تاريخ
الدولة العربية الإسلامية

دكتور عطية القوصي
أستاذ التاريخ الإسلامى
بكلية الآداب – جامعة القاهرة

الناشر
دار الثقافة العربية
٣ ش المبتديان – السيدة زينب – القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس
تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾

صدق الله العظيم

تقديم

تاريخ الدولة العربية الإسلامية تاريخ رائع حافل ، ويعد حقبة مضيئة مشرقة داخل إطار تاريخ الإنسانية منذ وطأت أقدام الإنسان الأرض وحتى الآن .. وقد شغل هذا التاريخ فترة زمنية لا تتجاوز القرن ونصف القرن ، ورغم قصر عمرها إلا أن الإنسان العربى حقق خلالها المعجزات وأنجز أعظم الإنجازات . ولقد ارتبط قيام هذه الدولة بديانة ورسالة من أسمى الديانات والرسالات وأكملها ، ووضع لنبتها محمد رسول الله الذى أرسله الله هادياً ومبشراً ونذيراً . هادياً للناس لما ينفعهم فى دنياهم ويُصلح لهم آخرتهم ، ومبشراً بتمام عقيدة التوحيد التى وضعت للبشر أسمى الشرائع ، وهى الشريعة الإلهية التى نزل بها الوحى على خير الأنبياء والرسل لتطبيق العدالة على الأرض ولإنقاذ البشرية مما سادها من فساد وضلال وأطبق عليها من جهالة وعمى وظلام . ونذيراً للناس ليقيموا العدل دون الجوْر ، وليأمروا بالمعروف وينهوا عــن المنكر ، وليعملوا لما يُصلــح آخرتهم ودنياهم ، وأن ينعموا بما حلله الله لهم ويتركوا ما حرمــه حتى يفوزوا بخيرى الدنيا والآخرة وحتى لا ينزل بهم ما نزل بالشعوب والأقوام البائدة الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربُك سوط عذاب وكان ربك لهم بالمرصاد .

ولقد جاء بدء قيام هذه الدولة فى الجزيرة العربية ، بعد أن أعز الله رسوله ونصره على أعدائه بعد أن هاجر من مكة إلى المدينة . وفى المدينة كان ميلاد الدولة العربية الإسلامية التى وضع أساسها محمد رسول الله ونبيه ، وتعهد إتمام بنائها من بعده خلفاؤه الراشدون ، واكتمل هذا البناء وبلغ تمامه فى عهد خلفاء الأمويين .

ولقد دانت الدنيا كلها للعرب حين دانوا بالإسلام وأعزهم حين أذلوا أنفسهم للواحد القهار ، وتحولوا بالإسلام من رعاة غنم إلى رعاة بشر . ونقلهم الإسلام من الجهالة والبداوة إلى المدنية والحضارة ، ومن الضيق والعسر إلى السعة واليسر ، وأقاموا تحت ظلال راية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » دولتهم العظمى التى تسيدت العالم فى العصر الأموى ، وفتحت البلاد وأسلمتها وصارت حدودها تمتد شرقاً إلى تخوم الصين وغرباً إلى المحيط الأطلسى . وشمالاً إلى حدود سيبريا وجنوباً إلى خط الاستواء . وحكم العرب هذه الدولة الواسعة المتشعبة الأطراف والمتعددة الأجناس والألوان واللغات حكماً عادلاً مستمداً من كتاب الله وسُنّة نبيه ، ولم يعاملوا الشعوب التى فتحوا بلادهم إلا بالعدل والمساواة والأخوة والمحبة ، وأعادوهم بعد أن خلصوهم من استبداد حكامهم وتسلطهم وعنصريتهم أحراراً كما ولدتهم أمهاتهم .

لقد أقام العرب ، قبل الإسلام دولاً لهم فى اليمن وعلى تخوم الشام والعراق ، لكن هذه الدول كانت محدودة فى حجمها قصيرة فى عمرها ، سرعان ما انقرضت وسقطت لأنها قامت على المادية وتغذت على الوثنية وعلى فتات الحضارات المادية القديمة التى قامت فى العالم القديم وكانت تؤله الملوك والحكام وتسجد لهم من دون الله الواحد القهار . كذلك عاشت هذه الدول فى الضلالات وانهمكت فى الملذات والشهوات واحتوت مجتمعاتها على كل المتناقضات فكان لزاماً أن ينتهى بها الحال إلى التدهور والزوال . لكن الدولة العربية الإسلامية ، ولأنها دولة كان أساسها التوحيد وقاعدتها الإيمان بوحدانية الخالق والامتثال لما نزل به على نبيه ورسوله ، وسلاحها العلم والتقدم وغايتها تطبيق شريعة الله وإقامة دولة الحق فوق أرض الله والمساواة بين الناس ومراعاة حقوق الإنسان والعمل

علـى كل ما يسعد الناس فى هذه الحياة وينجيهم يوم الحساب ويضمن لهم فـى الآخـرة الجنة والرضوان .

ونحن حين نعرض لتاريخ هذه الدولة سوف نتبين ظروف قيامها وكمال بنائها واتساعها حتى أواخر العهد الأموى ، وهى الفترة الزمنية التى حرص فيها حكام هذه الدولة على تطبيق الدستور السماوى الذى أنزله الله على رسوله والالتزام بسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .

وسوف نرى أن هذه الدولة أخذت فى أواخر العصر الأموى فى الضعف والتدهور بسبب البعد عن أحكام الشريعة والدين والميل إلى الدنيا مما أدى إلى كثرة الفتن وزيادة المحـن ؛ الأمر الذى أدى إلـى الوهن وكلف الدولة أفدح الثمن . ولَمَّا بَعُدَ المسلمون عن الطريق الذى رسمه الله لهم ورسوله وحادوا عن تطبيق أحكام الإسلام وأوامره وتساووا مع أعدائهم فى المعصية والبُعد عن الله ، سلط الله عليهم من يسقط دولتهم ويشرع فى إذلالهم ويسلط عليهم من لا يرحمهم . وهو سبحانه مالك المُلك يؤتى المُلك من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير . وصدق الله العظيم .

المـــؤلـف

الفصل الأول

ظهور النبي الرسول المصلح
والدعوة المحمدية

ظهور النبي الرسول المصلح
والدعوة المحمدية

لقد اصطفى الله من عباده المخلصين أنبياء ورسل ليهدوا الناس إلى عبادته والإقرار بوحدانيته وأن لا شريك له ، له الحكم والملك وهو الواحد الأحد الفرد الصمد ، وهو خالق الكون ومدبر أمره رب السموات والأرض وهو على كل شيء قدير .

وتُفرق المصادر الإسلامية بين النبى والرسول ، فلابد أن يكون الرسول نبياً ولا يُشترط أن يكون النبى رسولاً ؛ بمعنى أن الرسول نبى مُرسل من قبل الله تعالى ونزل عليه كتاب من عنده به مكنون هذه الرسالة ، بينما النبى لم ينزل عليه كتاب . وعلى سبيل المثال فإن موسى وداود وعيسى ومحمد أنبياء ورسل نزلت عليهم كتب سماوية ، بينما هارون وإسحق ويحيى وإسماعيل وغيرهم كانوا أنبياء ولم تُنزل عليهم كتب . ومن الكتب التى نزلت على رسله ونعرفها : التوراة والزبور والإنجيل والقرآن . وهنالك العديد من الرسل الذين أرسلهم الله تعالى بكتبه لهداية الناس ولكنا لا نعرف عن أخبارهم شيئاً ، ودليل ذلك ما ورد فى قوله تعالى فى قرآنه الكريم : ﴿ ورسلاً قد قصصنا عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ... ﴾ [النساء : ١٦٤] ، و ﴿ لقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ... ﴾ [غافر : ٧٨] .

ولقد كان إرسال الأنبياء والرسل فضلاً ورحمة من الله على عباده حين تتباعد بهم السنون ويتباعدون بدورهم عن عبادته سبحانه ووحدانيته ، وحين يشركون معه فى العبادة بشراً أو أصناماً وأوثاناً أو كائنات من خلق الله لا تنفع ولا تضر . فيجىء الأنبياء والرسل بقبس جديد من نور الهداية الربانية ويدعون الناس

للعودة للإسلام الدين الحنيف ، وهو الدين الذى اختاره الله لعباده حين قال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [آل عمران : ١٩] ، و ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

ولقد جاء محمد بن عبد الله آخر هؤلاء الأنبياء والرسل وخاتماً لهم ، ونزل عليه الوحى بالقرآن الكريم الذى هو آخر كتب السماء المبلغة إلى الأرض ، وآخر طوق نجاة يقذف الله به من فوق سبع سنوات لإنقاذ عباده الغارقين فى بحور الفساد والضلال ونجاتهم إلى بر الأمان .

وكان ميلاد محمد وبعثه فى مكة من إقليم الحجاز بشبه جزيرة العرب ، اصطفاه الله نبياً ورسولاً ، جوهر رسالته الإقرار بوحدانية الله وأنه خاتم أنبيائه ورسله أرسله للناس كافة وعامة ، ونبذ العبادات الوثنية التى تلقى ظلاً من المشاركة مع الله . وأن الناس كلهم أبناء أب واحد وأم واحدة ، لا يفرق بينهم لون ولا جنس ولا ثروة ولا فقر ، لا فضل بينهم إلا باتباع هدى الله ورسوله وبالعمل الصالح الذى يُرضى الله ويعود بالخير والنفع على النفس وعلى الإنسانية جمعاء ، ولذلك فهم جميعاً متساوون فى الحقوق بصفتهم أخوة فى الإنسانية ولكونهم جميعاً عباداً لخالق واحد . وأن محمداً ما بُعث إلا لينشر السلام ويقر العدالة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولينشر الفضائل ويحارب الرذائل ويقاوم الفساد ويتمم مكارم الأخلاق .

ولقد بُعث محمدٌ ، وهو مُزود من قبل الله تعالى بكل صفات النبى الرسول ومواصفات الزعيم الراعى وأخلاق الإنسان الكامل وشجاعة القائد المحارب . وبساطة العبد المتواضع لله المؤمن إيماناً كاملاً بحقيقة رسالته وصدق دعوته . وقد

كان المثل الأعلى فى كل أطوار حياته ، صادقًا مع خالقه ومع نفسه وقومه . وإذا قرأنا كتب السيرة النبوية وجدناها تفسر عبقرية محمد ، على أنها من قبيل الإعداد الإلهى والتربية الربانية لأكرم أنبيائه ورسله ، إضافة إلى اكتسابه نوعًا من الخبرة التى يكتسبها كل إنسان من تجاربه . فلقد صُنع محمد على عين الله وأدّبه ربه فأحسن تأديبه وزودته العناية الإلهية بنفحات نورانية أتمت له شخصيته وسمت بشمائله وخلقه حتى شهد الخالق له بذلك بقوله فى كتابه الكريم ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

ولقد شارك محمد فى الحياة العامة فى مكة ، فى طفولته وشبابه ، ولم يكن فى معزل عن أحداث مجتمعه ، وقد ساهمت هذه المشاركة فى إتمام تكوين شخصيته وتزويده بالخبرة والمعرفة اللازمة لفترة بعثته وتبليغ رسالته . فقد عمل بالرعى وبالتجارة وسافر مرتين إلى الشام وتعرف على العالم خارج شبه الجزيرة ، وعاين شيئًا من حضارة الروم هنالك وعرف المسيحية والخلاف بين كنائسها وتخبط الناس هناك فى إدراك الطريق الموصل إلى الله الواحد الأحد الفرد الصمد . وشارك محمد فى الحياة السياسية فى بلده فاشترك فى حلف الفضول ، وعاصر حرب الفجار التى شارك أعمامه فيها بدافع العصبية والنعرة القبلية ، وهى واحدة من حروب أرهقت قبائل العرب وفرقت وحدتهم وأضعفت شأنهم .

وعرف الناس محمدًا طوال حياته بالخلق الطيب والسلوك القويم ولم يؤخذ عليه ما يشينه طوال حياته قبل البعثة وبعدها ، ولذلك أطلق عليه قومه بالصادق الأمين . واحتكمت إلى رأيه مشيخات قريش حين تنازعوا الأمر بينهم وكادوا يقتتلون بسبب أمر وضع الحجر الأسود فى الكعبة عند إعادة بنائها بعد أن هدمتها السيول . وارتضت بحكمه

فأظهـر بسرعـة خاطره وحسن بديهته ما حسم الأمر وأرضى المتنازعين ومنع وقوع الحرب بينهم .

ولقد دفعت الصفات الطيبة والأخلاق الفاضلة والسلوك القويم الذى تميز به محمد ، السيدة خديجة بنت خويلد ، وهى من أشرف بيوت العرب ، أن تعرض عليه الاتجار لها فى مالها ، وقد كانت تلك من عادات شريفات العرب . فخرج فى تجارة لها إلى الشام مع غلام مولى لها يُدعى « ميسرة » ، وقد عادت عليها هذه التجارة بالربح الوفير ، وانتهت بخطبتها لمحمد زوجًا لها ، بعد أن أكد لها ميسرة حقيقة ما عُرف به محمد من صفات وأخلاق أثناء مرافقته له . وقد يسّر زواج محمد من خديجة له نوعًا من الاستقرار كان فى حاجة له لمواصلة التفكر والتدبر فى أمر الكون ، ومحاولة التعرف على خالقه بعد أن نبذ قلبه واستبعد عقله السجود والتعبد للأصنام والأوثان واتباع الوثنية التى كان عليها قومه وعشيرته . كذلك وفّر هذا الزواج الموفق الطمأنينة للنبى والتشجيع بعد نزول الوحى عليه ، إذ كانت خديجة أول من آمن به وصدّقه وشد من أزره فى أمر دعوته وهونت عليه الصعاب ووقفت إلى جانبه . وأيضًا وفر له الحنان والمواساة بعد أن جهر بالدعوة وتصدى الناس لدعوته وقاموا بإيذائه ومحاربته ، ولم يلق ساعتها إلا قلب الزوج الحنون وعطف شريك العمر المحب ودعاء سيدة نساء الأرض .

ولقد مرت الدعوة المحمدية بدورين رئيسيين : الدور المكى ؛ الذى يبدأ بنزول الوحى على محمد ، بعد أن أتم الأربعين من العمر ، وهو يتلمس ويتحسس طريقه إلى الله فى غار حراء ، يوم الإثنين السابع عشر من شهر رمضان العام الثالث عشر قبل الهجرة (أول شباط – فبراير ٦١٠ ميلادية) ، وينتهى بهجرته إلى المدينة المنورة (يثرب) ، يوم الثانى عشرة من ربيع الأول العام الثالث

عشر بعد البعثة (٢٤ سبتمبر ٦٢٢م) . والدور المدنى ، الذى يبدأ بالهجرة وينتهى بوفاة محمد فى المدينة ، يوم الإثنين الثانى عشرة من ربيع الأول العام الحادى عشرة بعد الهجرة .

الدعوة الإسلامية في الدور المكي :

وكان محمد قد اعتاد أن يذهب فى شهر رمضان من كل عام إلى غار فى جبل خارج مكة ، يُعرف بغار حراء ، يخلو هناك بنفسه أياماً ويحتمل معه القليل من الزاد ، يظل هنالك حتى ينفذ زاده ثم يعود إلى مكة . وخلال هذه الخلوة فى الغار كان محمد يتفكر فى أمر هذا الكون ، ويُجهد ذهنه فى البحث عن خالقه ، وكان يكثر من النظر إلى السماء ، على أمل أن تنفتح له يوماً وينزل عليه ما يطمئن قلبه ويثبت فؤاده ويقوده إلى حقيقة الخالق الأعظم . هذا ولم تذكر المصادر السنة التى بدأ فيها محمد هذا التحنث فى الغار ، ولكنها ذكرت أن محمداً كان يرى فى منامه رؤىً ، كانت تتحقق وتأتى صادقة وواضحة كنور الصبح ، وكان ذلك بمثابة الإعداد الروحى لنزول الوحى عليه انتظاراً للتوقيت الربانى الذى حدده الله تعالى لهذا الأمر العظيم والخطب الجليل .

ولمّا نزل الوحى على محمد استجاب لأمر الله ، وطفق يدعو الناس إلى ما كُلف به ، وكان ذلك بداية الفترة الأولى من الدعوة التى أخذ محمد يدعو فيها إلى الإسلام أقرب الناس إليه وسراً دون الجهر . فاستجاب له عدد من رجالات قريش . وليس صحيحاً ما أشيع فى هذا الصدد على أن معظم الذين استجابوا لدعوة محمد ودخلوا فى الإسلام كانوا من العبيد والمستضعفين ، بل استجاب لدعوته عدد من أشراف قريش وسادتها ، ولم تخل عشيرة من رجال استجابوا

لدعوة هذا الدين الجديد لإيمانهم بصدق الرسول وأمانته . وقد ظلت الدعوة سرية لمدة ثلاثة سنوات ، ثم أُمِرَ الرسول بالجهر بها فصارت علنية .

وقد سايرت الرسالة فى ظروف الدعوة إليها ظروف تكوين المجتمع العربى ، وما كان عليه من أعراف وعادات وتقاليد . فقد أُمِرَ الرسول ، أول الأمر ، بأن يدعو عشيرته الأقربين ، لأنهم بالقطع ، كان لزاماً عليهم أن يؤازروه ويناصروه ويكونوا عوناً وسنداً له وحماية أمام العصبيات الأخرى . ثُم أُمِرَ بعد ذلك ، أن يدعو أهل مكة وما حولها ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ لتنذر أُم القرى ومن حولها ﴾ ، وقد عنى القرآن بذلك قريش ومواليها وأحلافها وأحابيشها . فالانتقال من عصبية العشيرة إلى عصبية القبيلة أمر جرى عليه التكوين الاجتماعى عند العرب .

وكان من المنتظر أن تؤمن العشيرة أولاً بمحمد ، ثم تتبعها فى ذلك القبيلة ، وهذا هو الأمر الطبيعى . لكن الذى حدث كان غير ذلك ، فقد غيرت هذه الدعوة المناظير الاجتماعية فى المجتمع العربى الجاهلى ، وذلك بسبب وقوف عصبية أخرى فى طريق عصبية العشيرة وعصبية القبيلة ، وهى عصبية التقاليد والعادات القديمة ، التى وقفت حائلاً بين الناس وبين الدخول فى دعوة محمد . وكان العرب فى الجاهلية يتعصبون أشد التعصب لموروث عاداتهم وتقاليد آبائهم وأجدادهم . وحتى أقرباء الرسول من بنى هاشم وبعض أعمامه ، لم يؤمنوا بالدعوة الجديدة ولم يعتنقوا هذا الدين الجديد ، برغم وقوف بعضهم إلى جانبه وحمايته بدافع عصبية العشيرة ، وغلبتهم فى ذلك عصبية التقاليد على أنفسهم .

كذلك فإن حرص قريش على مكانة الزعامة التى تبوأتها على القبائل

العربية ، وحرصها على المكاسب التى كانت تتحصل عليها بسبب رعايتها الأصنام والأوثان عند البيت الحرام ، منعا قريش من اتباع محمد ، رغم اقتناعها بصدقه ، خوفًا على ضياع هذه الزعامة وتلك الثروة بسبب هذا الدين الجديد الذى جاء بمعتقد نبذ كل معتقدات العرب الرثنية المتوارثة بينهم عبر القرون . وقد تركزت معارضة قريش فى رجال الملأ وتابعهم فى ذلك عامة الناس . وكان زعماء مكة الذين يشكلون جماعة الملأ ، التى بيدها أمر الحل والعقد فى شئون قبائلها العامة ، حريصين على مبدأ التناظر بينهم كزعماء ؛ بمعنى ألا يسود أحد عليهم ، ويرون التكافؤ فيما بينهم . فالصفات العامة فى أحدهم من الممكن أن تتوفر فيهم جميعهم ، كالشجاعة والإقدام والحكمة والكرم وغيرها من الصفات المطلوبة للزعامة والرياسة ، أما أن يكون واحدٌ من بين العرب نبيًا فهذا أمر ليس بمدرك لهم . ولو تواجد هذا الشخص النبى تكتب له حينئذٍ الزعامة والسيادة عليهم دون منازع ، ويرون أنفسهم مضطرين للخضوع لزعامته والامتثال لقيادته . من أجل ذلك عارض رجال الملأ ، منذ البداية ودون تمهل ، الدعوة المحمدية ، برغم معرفتهم بمحمد وبخلق محمد وتأكدهم من أنه لا يمكن له أن يأتى بدعوة باطلة . فتصدى رجال الملأ بكل قوتهم لهذه الدعوة الجديدة وحاربوها بكل ما يملكون ، لكنهم رغم بذلهم كل جهدهم فى ذلك ، لم يستطيعوا أن يحجروا على أفكار الناس وعلى حقهم فى حرية اختيار ما يرونه صوابًا لهم . فلم يستطيعوا أن يحولوا بين الرسالة المحمدية ووصولها إلى قلوب الناس ، لأن مفاتيح القلوب بيد الله تعالى . وقد وجدت الأرواح الحائرة والنفوس المعذبة فى هذا الدين الجديد ضالتها وخلاصها . فآمن بمحمد بعض سادة أهل مكة ممن سمت نفوسهم ونضجت عاطفتهم الدينية ، وتبعهم فى ذلك عدد من الرقيق والموالى من الرجال والنساء وجدوا فى

مبادئ الرسالة الجديدة الخلاص لهم والضمان لحريتهم بعد أن سلبها منهم إخوتهم فى الآدمية والإنسانية .

ومرت الأيام والدعوة المحمدية تشق طريقها ، حقيقة فى بطء وتعثر ، ولكنها استمرت فى سيرها بسبب صلابة حامل هذه الدعوة وإيمانه الكامل فى نصر الله . ولم يحفل رجال الملأ وزعماء مكة كثيراً بالرسالة المحمدية ، فى أول الأمر ، ظناً منهم أن محمداً ليس إلا واحداً من اولئك الحنيفيين بقايا أتباع ملة إبراهيم ، أو من الحنيفيين العرب المتمردين على الوثنية الذين كان صوتهم فى بعض الأحيان يعلو مطالباً الناس بترك عبادة الأصنام وعبادة الله الواحد الأحد ، وسرعان ما يخفت هذا الصوت ويضيع فى ضجة الحياة القائمة فى مكة كما خفت وضاعت أصوات قبله . لكن قريشاً كانت تخدع نفسها وتغالطها ، فسرعان ما اكتشفت أنها تواجه خطباً جسيماً جاء به داعية حق واتبعه جماعة آمنت به وأخلصت له . اكتشفوا أن محمداً جاد فى دعواه يدعو إلى الدين الجديد بالحسنى بكل حماسة وإخلاص ، ويعمل على إقامة مجتمع جديد متغير على أنقاض مجتمعهم الفاسد العفن . سمعوه يتلو كلاماً بليغاً غريباً على أسماعهم لا هو بشعر الشعراء ولا هو بسجع الكهان . كلام به حلاوة وله وقع عجيب على القلب والسمع لم يعهدوا بمثله من قبل .

ووجدت قريش أتباع محمد يتزايدون يوماً بعد يوم . وظنوا أول الأمر ، أن محمداً سوف يلتزم فى دعوته بالدعوة لإلهه وحثه الناس على الفضائل ونبذ الرذائل دون أن يتعرض لآلهتهم ودياناتهم بسوء أو يصمهم بعيب أو ينالهم بسب أو بشتم . ولكنهم فوجئوا به يسب آلهتهم ويحقر من شأنها ويجردها من قدسيتها التى ادعوها لها ، ويعلنها حرباً شعواء صريحة لا مواربة فيها على الأصنام

والأوثان وعلى كل عبادة تدعو إلى الوثنية والشرك بالله . ورأت قريش أن قيام محمد بذلك ، يهدم مكانتها وزعامتها بين العرب ، تلك المكانة والزعامة التى اكتسبتها بسبب رعاية الأصنام والأوثان حول الكعبة وبداخلها ، وبالتالى يزلزل مركزها الاقتصادى الذى نجم عن زعامتها الروحية بين العرب . وكان لابد من الصدام مع محمد ، لأنه أصاب قريشاً فى مقتل بعد أن هدد كيانها الروحى والمادى . وكانت مصلحة قريش المادية من أهم الأسباب والعوامل التى دفعتها إلى حرب محمد والتصدى للدعوة الجديدة بكل ما تملك .

وقد استخدمت قريش فى تصديها لمحمد ولدعوته أساليب مختلفة ، وكانت كلما ترى ازدياد أعداد الداخلين فى الإسلام كانت تتدرج فى العنف حتى انتهى بها الأمر إلى التفكير فى قتل محمد نفسه والخلاص منه والخلاص من دعوته . فبدأت قريش باضطهاد من أسلم من الموالى والفقراء أملاً فى الرجوع إلى دينهم تحت تأثير العذاب والعسف . وقد لقى هؤلاء عنتاً كبيراً وأوذوا إيذاءً بالغاً فى أنفسهم وأولادهم وأموالهم ، وقد دفع بعضهم حياته ثمناً للثبات على اعتقاده الجديد ، وتحمل أيضاً بعضهم ألواناً من التعذيب ما لم يتحمله بشر .

ولما كان رجال الملأ يدركون مكانة العصبية ويخشون خطرها لو تعرضوا لمحمد ذاته بالأذى والعدوان ، لذلك لجأوا إلى عمه أبى طالب ، شيخ بنى هاشم والمتكفل بحمايته ، وطلبوا منه أن يتدخل ليمنع ابن أخيه من التعرض بالمهانة لآلهتهم ومعتقداتهم . وقد شجعهم على ذلك أن أبا طالب كان قد ظل على عبادة آبائه وأجداده ولم يدخل فى دين محمد رغم عطفه عليه ورعايته له . ويلاين أبو طالب قومه ويردهم بالحسنى عن محمد ، لكنه لم يطلب من محمد أن يتوقف عن دعوته . فيعاود القوم اللجوء إلى أبى طالب ، وفى هذه المرة

يهددون ويتوعدون ويطلبون منه أن يخلى بينهم وبين محمد ، ويعرضون عليه رجلاً من خيرة أبنائهم يتبناه أبو طالب على أن يسلم لهم محمداً يقتلونه إن عجز هو عن رده . وفى المرة الثالثة كان إنذار قريش لأبى طالب أقوى وأشد ، فقد أنذروه بمنازلته وحربه إن لم يكف ابن أخيه عن دعوته . وفى هذه المرة يدعو العم ابن أخيه ويعرض عليه ما عرضته قريش ، ويطلب منه أن يُبق عليه وعلى نفسه وألا يحمله ما لا يطيق من عداوة القوم . وظن محمد أن عمه خاذله ومسلمه إلى قريش يقتلونه أو ينفونه عن مكة ، فقال له فى قوة وثبات كلمات خلدها التاريخ : « والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » . وأعجب الشيخ بثبات ابن أخيه وقوة عزيمته وشدة إيمانه بصدق دعوته ، فقال له : « اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً » . ومنذ تلك اللحظة أوقف العم الشيخ حياته على حماية ابن أخيه مهما كانت عواقب ذلك . وقد زاد ذلك القول وتلك الحماية من العم الرسول فى إصراره وعزمه على السير قُدماً فى دعوته .

وبعد أن فشلت مناورات قريش مع أبى طالب ، نهجت مع محمد نهجاً آخر ظنت أنه يثنى محمداً عن دعواه ، وقد تلخص هذا النهج فى إغرائه بالمال والجاه والسلطان بناءً على اقتراح لهم بذلك من شيخهم عتبة بن ربيعة . فذهب إليه ابن ربيعة يعرض عليه الدنيا ومباهجها على أن يتحول عن دعواه ووعده بأن تستجيب قريش لكل ما يطلب لو فعل ذلك . وحين أتم عتبة كلامه لم يزد النبى على أن تلا عليه آيات من القرآن ، ما أن سمعها عتبة حتى أُخذ بها ، وبهت وانبهر وقام من عنده وأبلغ قومه بأنه لا سبيل إلى هذا الرجل غير متابعته أو منابذته حتى يحكم الله بينه وبينهم .

ولجأت قريش ، بعد ذلك ، لأسلوب الحرب الكلامية ضد الرسول ، بقصد التشكيك فى رسالته ونبوته . فاستعانوا بالنضر بن الحارث ، وكان بصيراً بثقافات الفرس القديمة ، فأخذ يروى قصصاً يحاكى بها قصص القرآن ، وكان يدعى بأن محمداً ما يقول إلا أساطير الأولين . وتولى القرآن الرد عليه فى ذلك بقوله تعالـى : ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تُملى عليه بكرة وأصيلاً * قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ .

وقالوا ضمن هذه الحرب الكلامية أن القرآن من وضع محمد وتأليفه وأنه استعان فى تصنيف مادته من تعاليم اليهود والنصارى ، وأن عدداً من أحبار اليهود ورهبان النصارى كانوا يلتقون بمحمد ويزودونه بما يحتاج إليه فى كتابه .

وقد رد عليهم الله فى ذلك بقوله تعالى : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ . وتحدى القــرآن الناس جميعاً ومعهم الجن جميعاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بمثل بعضــه ، ثم دمغهم بالعجز حين أنزل قوله تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ .

ومن خلال هذه الحرب الكلامية قام أهل قريش بترويج إشاعات كاذبة ضد الرسول واتهامه بأشياء لم تكن فيه ، فاتهموه تارة بالسحر وتارة بالجنون وتارة بأنه شاعر ، ووقفوا على مشارف مكة يحذرون كل وارد عليها من ذلك الرجل الساحر الذى فرق بين المرء وزوجه والأب وابنه والأخ وأخيه .

ولما أعيت قريش السبل مع محمد وصحبه ، لجأت إلى الاضطهاد الشديد والتعذيب البالغ الذى لا هوادة فيه حتى تخيفهم وتردهم عن دينهم وتمنع غيرهم

من متابعة محمد حتى لا يلقوا نفس المصير . وتواصت بطون قريش بتعذيب من أسلم منها ومن مواليها وعبيدها رجالاً ونساءً .

ولما رأى النبى الأذى يشتد بأصحابه أمرهم بالهجرة إلى الحبشة ، والهجرة إلى الحبشة تؤدى إلى غرضين ؛ الغرض الأول : هو أن المهاجرين سيلقون ترحيباً من ملك الحبشة ، لما عُرف عنه من تسامح وعدل ، كذلك أملاً فى أن يتمكن بمساعدتهم من التدخل فى شئون مكة وفرض سيطرته عليها . والغرض الثانى : هو لفت نظر قريش إلى أن عدوانها على المسلمين قد يضطر المسلمين إلى الالتجاء إلى قوة خارجية ربما تتدخل لحمايتهم فتتعرض بذلك مكة لغزو أجنبى أو تتعرض مصالحها الاقتصادية للضرر ، ولذلك فإن من مصلحتها مهادنة المسلمين . وتمت هجرة المسلمين إلى الحبشة فى العام الخامس من البعثة (٦١٥م) ، وكان عدد المهاجرين ٨٣ رجلاً ، و١٨ امرأة خرجوا إليها على فوجين متتابعين ، فاستقبلهم النجاشى خير استقبال واحتفى بهم وأكرمهم وسمح لهم بالإقامة فى بلاده مع تأمينهم على حريتهم وعقيدتهم .

وقد أوجست قريش خيفة من هذه الهجرة وحسبت لها حساباً كبيراً وخافت من تقوىً المسلمين هناك واحتمال إمداد النجاشى لهم بقوات من عنده فيغزون مكة . فسارعت قريش إلى إرسال بعثة إلى النجاشى ، على رأسها عمرو بن العاص الذى لم يكن قد أسلم بعد ، تحمل الهدايا له ورجاله وخاصة الجلود ، وتطلب منه رد المهاجرين إليهم . لكن هذه البعثة فشلت فى مهمتها لما تأكد النجاشى من بطلان دعوى قريش ، وبقى المهاجرون المسلمون ينعمون بالحرية والرعاية فى الحبشة حتى أذن لهم النجاشى بالعودة إلى المدينة فى السنة السابعة من الهجرة فعاد معظمهم واستقر بعضهم هناك . وفى هذه الأثناء أعز الله

الإسلام بدخول عناصر قوية فيه من القرشيين ، فقد أسلم رجلان اشتهرا بالبأس والقوة وكان لإسلامهما أثر كبير فى قوة الإسلام فيما بعد ، هذان الرجلان هما حمزة بن عبد المطلب ؛ عم الرسول ، وعمر بن الخطاب . واشتد بإسلام هذين البطلين الإسلام وقوى ساعد المسلمين ، وجهر المسلمون بعد ذلك بالصلاة عند الكعبة ، وتبع إسلام حمزة وعمر إسلام كثير من رجالات قريش اقتداءً بهم .

ولمَّا أعيت قريش السبل فى محاربتها للرسول ولدعوته ، حاولت إجبار بنى هاشم على أن يسلموا محمداً لها ليقتلوه ، وذلك بفرض مقاطعة اقتصادية واجتماعية عليهم توردهم إلى الهلاك فيضطرون إلى التخلى عن محمد وتسليمه لهم . وبالفعل فرضت قريش هذه المقاطعة على بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، فبعد مشاورة عامة قاموا بها اتفقوا على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه ضد بنى هاشم وبنى المطلب على ألا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئاً وألا ينكحوهم أو ينكحوا إليهم ، وأن يفرضوا عليهم مقاطعة شاملة ويحصرونهم فى شعبهم . فكتب هذا الكتاب فى صحيفة علقوها فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم . وإزاء هذه المقاطعة التامة انحاز بنو عبد المطلب وبنو هاشم إلى شعب بنى طالب شرقى مكة ، وحصر الجميع هناك . واستمرت تلك المقاطعة نحو ثلاث سنوات لقى بنو هاشم والمطلب فيها عناءً شديداً ، ونزلت بهم المجاعة ، ولم يجدوا ما يأكلونه إلا القليل الذى كان يهربه لهم بعض المتعاطفين معهم من أصهارهم . وأخيراً أخذت الرأفة بعض سادة قريش من أصهار بيت النبى وقرروا خرق الصحيفة ورفع المقاطعة . ولمَّا أراد القوم تمزيق الصحيفة وجدوا أن الأرضة قد أكلت كل ما فيها ولم تُبق بها إلا عبارة « باسمك اللهم » ، وبذلك فشلت سياسة المقاطعة ، وقد كانت من أمضى الأسلحة التى استخدمتها قريش ضد الرسول وعشيرته .

وما كاد الرسول يفرح بانتهاء مقاطعة قريش ، إلا وقد أصيب فى اثنين من أعز أحبابه وأنصاره . فقد مات عمه أبو طالب بعد نقض الصحيفة بستة أشهر ، فى منتصف شوال من السنة العاشرة للبعثة ، وهو يومئذ ابن بضع وثمانين سنة ، وبعد موت أبى طالب بشهر وخمسة أيام ماتت زوجه خديجة بعد زواج لها استمر خمساً وعشرين عاماً . فاجتمع على النبى فى هذا العام حزنان ، لذلك عُرف العام العاشر من البعثة بعام الحزن . وكان موت أبى طالب ابتلاءً كبيراً لمحمد وأتباعه ، لأن رئاسة بنى هاشم صارت من بعده لعدوه عمه أبى لهب ، بعد أن كانت لناصره ومؤيده عمه أبى طالب . ومنذ ذلك الحين سارت الأمور من سيىء إلى أسوأ مع رسول الله والمسلمين . فازداد أذى الكفار لهم وتجرأوا على الرسول وكاشفوه بالعدوان وصمموا على قتله فمنعهم الله من ذلك وتكفل بحمايته .

ولما رأى رسول الله ثبات أشراف مكة على الكفر وتصديهم لدعوته وإصرارهم على حربه وصدهم وفود القبائل عنه ، واضطهادهم لأتباعه من الفقراء والمستضعفين ، خرج إلى مدينة الطائف ، ثانى كبرى مدن الحجاز ، والتى تبعد عن مكة ثمانين كيلو متراً ، يلتمس النصرة من سادتها من بنى ثقيف وهوازن بعد أن لم يجدها فى مكة ، رجاء أن يفتح الله قلوبهم للإسلام . فخرج ومعه مولاه زيد بن حارثة ، ووصلا الطائف بعد رحلة شاقة على الأقدام عبر هذه الطبيعة القاسية التى يتميز بها الطريق بين مكة والطائف . ومكث الرسول وصاحبه هنالك عشرة أيام يدعو أشراف ثقيف وهوازن للإسلام ، غير أنهم لم يستجيبوا لدعوته وأجبروه على مغادرة الطائف بعد أن أغروا به سفهاءهم وعبيدهم فرموه وزيداً بالحجارة حتى أصيبا ببعض الجروح . والتجأ الرسول إلى حائط بستان لابن ربيعة ؛ فاحتمى به ، ورفع عليه السلام رأسه إلى السماء

ضارعاً إلى الله يشكو إليه بقوله : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى أو إلى عدو ملكته أمرى !؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلُح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بىّ غضبك أو تحل علىّ سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » . وهكذا رد أهل الطائف من ثقيف وهوازن الرسول عن بلدهم ، دون أن يعطوه فرصة ليستمعوا له ، فعاد إلى مكة ، ولم يستطع دخولها إلا بعد أن أجاره المطعم بن عدى زعيم بنى نوفل من قريش ، فدخلها فى حمايته وحماية أبنائه .

وبعد أن يئس محمد من أهل مكة وأهل الطائف ، لم ييأس فى التوجه إلى غيرهما ولم يترك أى باب يطرقه عسى أن يستمع أصحابه إلى دعوة الله ، فأخذ ينتهز الفرص التى يجتمع فيها الناس فى المواسم العامة التجارية والدينية يعرض على رؤساء القبائل وشيوخها دعوته الجديدة ، ويدعوهم لقبولها ونصرته على إظهار أمرها . لكن القبائل كانت تخشى قريش وبطشها ، وتخاف على مصالحها لو هى عادت قريشاً . وكانت قريش تتعقب الرسول برجالها الذين يشيعون عنه الجنون والسحر ، فيزداد لذلك نفورهم منه وتجنبهم له . وأخيراً ، حين أراد الله لرسالة نبيه أن تنتصر ولراية دينه أن تعلو وتخفق سخر له قلوباً وأفئدة أراد الله لها الصلاح والفلاح . وقد وجد الرسول ضالته فى قبيلتى الأوس والخزرج اليثربيتين . وكانت القبيلتان تسكنان يثرب ويسكن معهما عدة قبائل يهودية ، وكانت القبيلتان فى حرب دائمة بينهما يؤجج نارها اليهود ويشعلونها كلما تنطفئ وتنكفئ قدورها . وقد كانت حرب « يوم بعاث » آخر وقائع الحرب بينهما سنة ٦١٧ ميلادية ، وفيها

نجح الأوس بتحالفهم مع اليهود فى هزيمة الخزرج ، لكن الخزرج لم يرضوا بالهزيمة وباتوا يعدون العدة للثأر .

ولما أراد الله عز وجل أن يُظهر دينه وأن يعز نبيه وينجز وعده له ، خرج محمد فـى الموسم كعادته يعـرض نفسه على قبائل العرب كما كان يفعل فى كل موسم ، فالتقى هذه المرة عند مكان يُعرف بالعقبة ، يبعد ميلين عن مكة بينها وبين منى ، بستة نفر من أهل يثرب من الخزرج أراد الله بهم خيراً فدعاهم إلى الإسلام فاستجابوا له وأسلموا ، وقبل أن ينصرفوا تواعدوا مع رسول الله أن يلتقوا به فى مكة العام المقبل ، ثم عادوا إلى يثرب يدعون قومهم للإسلام . وكان لإسلام هذه الجماعة السريع دوافعه ، فلقد كان يهود يثرب يعيرون العرب وثنيتهم ويهددونهم بقرب ظهور نبى قد أطل زمانه يتبعونه فيقتلونهم معه قتل عاد وإرم . كما كان الخزرج حديثى عهد بهزيمة يوم بعاث فخشى الخزرج أن يسبقهم الأوس إليه ، أو أن يسبقهم اليهود إليه فيتحقق بذلك تهديدهم لهم . ولقد أوقف الخزرجيون محمداً على الوضع الملتهب فى مدينتهم ، ووعدوه بنشر الإسلام بينهم وبشروه بالفوز والنصر لو قُدر له أن تجتمع قبائل مدينتهم على نصرته .

ووفد فى العام التالى إلى مكة ثنتا عشرة رجل من يثرب ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، بايعوا الرسول عند العقبة ، وتُعرف هذه البيعة فى التاريخ ببيعة العقبة الأولى ، كما تُعرف ببيعة النساء ، لأن الرسول بايع النساء حين أسلمن عند فتح مكة على نفس شروطها ، وهى ألا يشركوا بالله شيئاً ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتون ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصون فى معروف .

ولما عاد هؤلاء النفر إلى مدينتهم أرسل معهم الرسول أحد أصحابه من السابقين إلى الإسلام ، وهو مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن وليعرفهم بتعاليم الإسلام . وكانت لجهود مصعب أثر كبير فى انتشار الإسلام فى يثرب ، حتى أنه لم تبق دار إلا وفيها ذكر لرسول الله . وقد استطاع ابن عمير أن يكسب إلى جانبه أكبر زعيمين من زعماء الأوس ، وهما سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، اللذين كان لإسلامهما أثر كبير فى دخول بطون كثيرة فى حظيرة الإسلام ، كما كانا ، بعد ذلك من أشد أنصار النبى إخلاصاً وتفانياً فى نصرة دولة الإسلام فى المدينة.

وبعد عام عاد مصعب إلى مكة فى موسم الحج ومعه وفد من يثرب قوامه ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان ، التقوا بالرسول ، فى إحدى الليالى سراً بالعقبة ، حيث بايعوه هناك بيعة العقبة الثانية ، وقد حضر هذه البيعة مع الرسول عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له . وفى العقبة الثانية استوثق الطرفان كلٌ لنفسه ، أما الرسول فقد طلب منهم أن يبايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم . وأما أهل يثرب فقد أخذوا عهداً على النبى بأن يكون منهم وأن يكونوا منه وأن يحارب من حاربوا ويسالم من سالموا . وتسمى بيعة العقبة الثانية هذه ، ببيعة العقبة الكبرى ، أو بيعة الحرب . ولما تمت البيعة طلب منهم الرسول أن يخرجوا له من بينهم إثنى عشر نقيباً ليكونوا كفلاء عليهم ، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . وبذلك نرى أن هجرة الرسول إلى يثرب قد تقررت فى بيعة العقبة الكبرى بعد أن تعهد الرسول لأهل يثرب أن يبقى بمدينتهم بعد أن يظهره الله على أعدائه .

ولقد أذن الرسول بعد ذلك للمسلمين بمكة أن يهاجروا إلى يثرب بعد أن صار لهم فيها إخوة فى الدين ورفاق فى الإسلام . فتسللوا أفراداً وجماعات مهاجرين إليها ، وقد استخفى بهجرته من خشى على نفسه ، وجاهر بها من وجد فى نفسه القدرة على التحدى . وكان عدد أول المهاجرين حوالى سبعون نفراً ، تتابعت بعد ذلك أعدادهم وتزايدت . وحاولت قريش منع الكثيرين من الهجرة ونجحت مع البعض وفشلت مع البعض الآخر . لكن الهجرة إلى يثرب ، مع ذلك ، تمت ، وهاجر معظم المسلمين إلا من قدرت قريش وغُلب على أمره . وانتظر الرسول فى مكة الإذن من الله له بالهجرة ، وطلب من صديقه أبى بكر أن يستعد لذلك وأن يُعد رواحل السفر .

وتخوفت قريش من احتمال هجرة الرسول إلى يثرب واتخاذها مركزاً لجماعته وقاعدة لحربه لهم فى المستقبل ، فيقضى بذلك على زعامتهم وعلى تجارتهم إن لم يقض أصلاً على وجودهم كله . من أجل ذلك مشى زعماء قريش إلى بعضهم وعقدوا اجتماعاً عاماً لهم فى دار الندوة وتدارسوا الأمر من جميع جوانبه واستعرضوا كافة الاحتمالات وكل الخطوات الواجب اتخاذها حول هذا الأمر الخطير ، فقر رأيهم – فى النهاية – على الخلاص من محمد بالقتل ، على أن يكون هذا القتل جماعياً بمعنى أن تشارك فيه بطون كل القبائل بفتى من فتيانها يضرب محمداً بسيفه مع الآخرين ضربة رجل واحد ، فيتفرق بذلك دمه بين القبائل ، وتعجز عشيرته عن الأخذ بثأره من كل البطون وترضى بالدية .

وكان اليوم الذى حُدد لتنفيذ هذه المؤامرة هو اليوم الموعود الذى أذن الله فيه له بالهجرة مع صاحبه أبى بكر . وخرج الرسول من داره وشباب قريش واقفين

أمام الدار ومعهم سيوفهم ، خرج دون أن يشعروا به وقد ألقى الله عليهم النعاس ووضع الرسول التراب بيده على رؤوسهم . ولما أصبحوا هاجموا فراشه وهم على يقين أنه به ، ولكنهم فوجئوا بابن عمه على بن أبى طالب ينام مكانه .

وجن جنون قريش ، وطفقت تبحث عنه فى كل مكان ، ورصدت مبلغاً كبيراً لمن يعثر عليه . لكن الرسول وصاحبه اختبئا بغار ثور خارج مكة ، وقد نسج العنكبوت نسيجه على باب الغار وباضت اليمامة فوق الباب ، فنجا الرسول منهم ، ولم يتوصلوا إليه وقد كان قاب قوسين منهم ، وإلى ذلك يشير الله تعالى فى كتابه الكريم بقوله : ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ . وكان من نتيجة الهجرة أن تكونت الدولة الإسلامية ، وبالهجرة بدأ الدور المدنى فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، وهو دور اختلف فى تكوينه وأحداثه ووقائعه عن الدور المكى .

الدعوة الإسلامية في الدور المدني :

كان خروج رسول الله من مكة لهلال ربيع الأول العام الثالث عشر بعد البعثة ، ووصوله إلى المدينة يوم الإثنين الثانى عشرة من نفس الشهر (٢٤ سبتمبر ٦٢٢م) . وكان قد أقام فى قباء - قبل أن يدخل المدينة - خمسة أيام ، وأسس هنالك مسجدها ، وهو أول مسجد بُنى فى الإسلام ، ثم خرج تاركاً بنى عمرو ابن عوف بقباء متجهاً إلى المدينة ، فأدركته صلاة الظهر فى بنى سالم بن عوف فى بطن وادى رانواء ، فصلى بهم صلاة الجمعة فى بطن الوادى . وكانت هذه أول صلاة جمعة صلاها رسول الله ، ولم يرد عنه عليه السلام أنه صلى جمعة قبلها بمكة أو خارجها . ووصلت ناقتى رسول الله وأبى بكر مشارف المدينة يوم الإثنين فتزاحمت القبائل على الناقتين تُمسك بخطاميهما ، وكل منها تريد أن

تحظى بشرف نزول رسول الله وصاحبه عندها . لكن الناقتين واصلتا السير وبركتا عند دار بنى مالك من بنى النجار ، وهم أخوال رسول الله ، فى مكان باب مسجده اليوم بالمدينة . وكان هذا المكان مكاناً يجفف فيه التمر ، وكان ملكاً لغلامين يتيمين من بنى النجار . فاشترى رسول الله المكان منهما وأمر أن يُبنى هنالك مسجده ومسكنه . وقد نزل رسول الله ضيفاً على أحد أقربائه من بنى النجار هو أبى أيوب خالد بن زيد الخزرجى الأنصارى ، وسكن فى الطابق الأسفل من داره الذى كان يتكون من طابقين ، حتى يتم بناء مسكنه ومسجده . وقد قام المسلمون يبنون فى همة ونشاط ورسول الله يشاركهم فى البناء بيديه ، حتى أقاموا المسكن والمسجد ، وقد صار مسجد الرسول بالمدينة مركزاً للحكومة الجديدة ومقراً لقيادتها وإدارتها ، فضلاً عن كونه مكان العبادة الأكبر بها .

وتلاحق المهاجرون من مكة إلى يثرب ، فلم يبق فيها إلا المجبر على البقاء فيها والمضطر ، وصارت يثرب عاصمة الدولة الإسلامية الجديدة التى أقامها رسول الله وأعلن قيامها منذ استقراره فيها . وتحوّل اسم يثرب منذ ذلك الوقت ، وغلب عليها الإسم الجديد ؛ وهو المدينة المنورة ، التى أنارها مقدم رسول الله ﷺ إليها ، وخرجت من جنباتها مشاعل النور والهدى إلى كل العالم لتبدد ظلمات الشرك ولتحطم أصنام وأوثان الكفر ، ولتنشر راية لا إله إلا الله محمد رسول الله عالية خفاقة فى الآفاق .

وقد تميز الدور المدنى للدعوة الإسلامية بعدة خصائص ، ففى مجال الدعوة إلى الإسلام ونبذ الكفر وعبادة الأصنام والأوثان وكل ما هو شرك بالله ، فيعد هذا الدور استمراراً للدور المكى وهدفاً أساسياً من أهداف الدولة الجديدة . وإذا

كان الدور المكى قد شهد تقرير الصلاة منذ السنة الثانية للبعثة ، وتقريرها كركن أساسى من أركان الإسلام الخمسة محددة بخمسة مواقيت فى اليوم والليلة ، بعد الإسراء والمعراج فى السنة التاسعة من البعثة ، فإن الدور المدنى قد شهد تحويل القبلة عن بيت المقدس فى الصلاة إلى الكعبة والبيت الحرام ، كذلك شهد تقرير الصوم والزكاة والحج فرائض أساسية وبقية لأركان الإسلام الخمسة . كذلك شهد هذا الدور وضع التشريع للجماعة الإسلامية والدولة ، وهو الجانب الخاص بالأحكام والمعاملات وتنظيم أمور الدولة وحل مشاكلها وعلاقة الفرد بجماعة الإسلام وعلاقة الفرد بالدولة ، وحقوق الإنسان وما عليه من واجبات مع الدولة ومع المجتمع ومع الأسرة ، وأحكام البيع والشراء والفصل فى المنازعات وغير ذلك من أمور تمس واقع المجتمع السياسى والاقتصادى . وبذلك يتميز الإسلام عن اليهودية والمسيحية بأن رسالته رسالة دين ودولة .

فاليهودية والمسيحية جاءتا والدولة قائمة ، لكن الإسلام جاء ليقيم الدولة التى تطبق شرع الله وتطبق العدالة على الأرض بما يرضى الله ويحقق للناس ما يضمن لهم الحياة الكريمة والسعادة فى الدارين . ولقد نزلت معظم سور القرآن المدنية للتشريع الذى تناول كافة جوانب الحياة للجماعة الإسلامية وأرسى القواعد الثابتة التى قام عليها المجتمع العربى الجديد فى ظل دولة الإسلام . وانتقال الجماعة الإسلامية إلى طور الدفاع عن النفس وعن العقيدة ورد عدوان قريش وتهديد مصالحها ، الأمر الذى أدخل المسلمين فى عدة معارك مع قريش وسائر قبائل العرب ، انتصر المسلمون فيها ، وانتهى الأمر بهم بفتح مكة ذاتها ودخول كل قريش فى الإسلام . واستتبع ذلك سقوط كل معاقل الوثنية فى الجزيرة العربية ، ومجىء وفود قبائل العرب من شتى الأنحاء تبايع رسول الله على الإسلام والسلام . وقد صاحب ذلك كله جهود الرسول ﷺ وعبقريته فى تحقيق

الوحدة لمجتمع المدينة ووضع اللبنات الأولى لحكومتها التى كانت أساس الدولة العربية الإسلامية التى شملت عرب شبه جزيرة العرب جميعهم . ومن خلال هذا الدور فى حياة محمد ، برزت عظمته وكمال شخصيته وقوة عزيمته وشدة إيمانه كقائد للجماعة الإسلامية ورئيساً لحكومتهم ومبلغاً لرسالة الإسلام للعالم أجمع تحقيقاً للدور الخالد الذى أراده له الله تعالى وتبليغاً للرسالة التى اصطفاه الله دون سائر خلقه من أجلها .

ولقد كانت الخطوة الأولى التى تعيَّن على رسول الله أن يخطوها بعد هجرته إلى المدينة ، هى العمل على حماية الدعوة وتأمين الجماعة الإسلامية فى قاعدتها الجديدة من عدوان قريش . وكان الرسول القرشى يعلم أن قريشاً لن تتركه يفلت من يدها بدعوته ، ولن تتركه يقوى فى المدينة بأهلها ومن هاجر إليه من مكة وأن تتوافر له عدة الحرب فيقوم بغزوها وحربها والانتصار عليها . وكان الرسول على يقين من أن قريشاً ستبذل أقصى جهودها للقضاء على الدولة الجديدة وهى فى المهد وأن لا تتيح لها فرصة التقاط الأنفاس . لذلك لم يكن أمامه لمواجهة ذلك إلا تحقيق وحدة مجتمع المدينة وتقوية هذه الوحدة . ولقد فرضت ظروف الهجرة على المهاجرين من مكة إلى المدينة أن يتركوا أولادهم وأموالهم وممتلكاتهم بها ، ويقدموا للمدينة وقد جردوا من كل شىء إلا الإيمان بالعقيدة الجديدة واتباع الرسول ؛ فكان على الرسول أن يدبر لهؤلاء أماكن إقامتهم ومعاشهم وأن يوفر لهم سبل العمل حتى لا يصيروا عالة على إخوانهم الأنصار ، أهل المدينة .

كذلك كانت الدولة الجديدة فى حاجة إلى إقامة الوفاق والتجانس بين أهل المدينة ، سكانها الأصليين ، وبين المهاجرين إليها . وقد جعل الرسول رابطة الأخوة فى الإسلام هى الرابطة التى ألف بها بين المسلمين من المهاجرين

والأنصار . فأصلح عليه السلام أولاً بين الأوس والخزرج ، أهل المدينة ، وحرص على إزالة كل ما من شأنه أن يذكرهم بالعداء القديم بينهما فجمعهما فى إسم واحد جديد وهو « الأنصار » . وقد صار اسم الأنصار علماً جديداً يستظل تحت رايته جميع أهل المدينة المسلمين .

ثم عمد النبى – بعد ذلك – إلى التأليف بين المهاجرين والأنصار ، وفى ذلك لجأ عليه السلام إلى رابطة الأخوة فى الإسلام ، فجعل كل رجل من المهاجرين يؤاخى رجلاً من الأنصار ، فيصير ما بين الرجلين من روابط ما بين الأخوين من قرابة الدم . وجعل الأخوين بالتآلف يتقاسمان السكن والتجارة والزراعة وكافة وسائل العيش . وقد رحب الأنصار بذلك ونفذوه عن طيب خاطر فتآخوا مع المهاجرين وقسموا ما عندهم معهم ، حتى أن بعضهم كانت له زوجتان ، فطلق إحداهما ليزوجها لأخيه المهاجر . كذلك كان المترابطان بالتآخى يرث أحدهما الآخر إذا ما مات . وقد ظل هذا الأمر قائماً حتى استقرت الدولة الإسلامية فى المدينة بعد غزوة بدر ، وبعد أن فرضت الزكاة ألغى نظام التوارث هذا لزوال الضرورة التى أدت إلى إقراره ، ونزل التشريع الإسلامى بنظام التوارث على أساس قرابة الدم ، ونزلت سورة الأنفال (آية ٧٥) تحرم التوارث بالمؤاخاة ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شىء عليم ﴾ .

بعد ذلك وضع النبى دستوراً لتنظيم الحياة العامة فى المدينة ، وتحديد العلاقات بينها وبين جيرانها ، وقد عُرِفَ هذا الدستور باسم « الصحيفة » ، وقد كتبت هذه الصحيفة قبل انقضاء العام الأول من الهجرة ، وكان المهاجرون

طرفها الأول ، والأنصار من أوس وخزرج طرفها الثانى ، ويهود أهل يثرب طرفها الثالث ، وهى الجماعات الرئيسية التى كان يتشكل منها مجتمع المدينة آنذاك . وقد حددت هذه الصحيفة شكل الدولة الإسلامية التى دخلت القبائل والبطون والعشائر فيها فى الجماعة الكبرى الجديدة ، وهى أمة الله ، وقد احتفظت الصحيفة لهم بشخصيتهم ، ولكنها نقلت منهم اختصاصاتهم كوحدات قبلية إلى الدولة مع حفظ الروابط فيما بينهم .

وبتحليل نصوص الصحيفة ، نرى أنها أعطت أول شيء تصنيفاً للجماعة الإسلامية ؛ فقد قررت أن المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس . وبهذا التقرير ألغى النبى الحدود القبلية ، وأصبح الإسلام ملكاً لمن دخل فيه . وللأمة فى هذه الصحيفة صبغة دينية أيضاً ، فهى جماعة الله التى ترعى مبادئ الإسلام ومبادئ حماية الجار ونصرة المظلوم ، والله هو الشهيد عليها ومحمد يشرف عليها باسمه .

والمؤمنون هم رباط الاتحاد ، وهم أول من يجب عليهم الوفاء لهذا الاتحاد ، وهم فى الوقت نفسه أول من يتمتع بالحقوق التى يخولها لهم . والأمة لها منطقة محددة من الأرض هى المدينة التى صارت حرماً وأرض سلام لا يُعتدى فيها على أحد . وهذه الأمة لا تشتمل على المؤمنين وحدهم ، بل هى تتألف من كل من يتبعهم ويحارب معهم أى مع كل أهل المدينة بما فيهم من لم يُسلم من أهل المدينة وكذلك اليهود . والأمة ، برغم أنها ضمت كل طوائف المدينة ، فإنها لم تكن تتكون من أفراد وإنما تتكون من جماعات ، فالفرد لا ينتمى إلى الأمة إلا من خلال العشيرة والقبلية . فقد جاء فى الصحيفة أن تبقى القبائل كما هى وأن تدخل فى الأمة كما هى . وبذلك بقى التشكيل الاجتماعى القبلى كما

هو ، وبقى لرؤساء القبائل رياستهم التى كانت لهم . وقد ألزمت القبائل بدفع الديات وفداء الأسرى . وبقيت للعشيرة والقبيلة مسألة الولاء ، فلا يجوز لأحد إجارة قريش ومن نصرها فإن ذلك كان محرماً على كل المشتركين فى هذه الصحيفة .

وبمقتضى هذه الصحيفة صار القضاء من حق الدولة ، وأصبح على القبائل أن تتنازل عن حق الأخذ بالثأر بينها للدولة ، لأن أول أهداف الأمة هى منع نشوب حرب فى الداخل ، فإذا قام نزاع داخلى وجب أن يعرض على القضاء ، وقد جاء عن ذلك فى هذه الصحيفة ما نصه : « وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ » .

والغرض الثانى الذى بينته الصحيفة هو اتحاد القبائل جميعها لرد كل عدوان على المدينة يقع عليها من الخارج من قبل قريش ومن يناصرها ، والتزام كل قبيلة بالدفاع عن منطقتها والالتزام بالنفقة على نفسها . كذلك قررت الصحيفة حرمة المدينة كحرمة مكة ، أى أن يحرم فيها ما يحرم فى مكة .

وقررت الصحيفة بصدد اليهود أن الباب مفتوح أمام من يريد منهم الدخول فى الإسلام ، ومن رغب البقاء على ملته فله الحق فى الاحتفاظ بها دون أية قيود . مع موافقة اليهود على أن يحكم محمد فى الخصومات التى تقع بين أطراف الصحيفة وفق شرع الله . وباتفاق اليهود على بنود هذه الصحيفة اعترفوا بزعامة محمد وسلّموا أيضاً بما أنزل الله من تشريع فى الإسلام ، وأقروا بقيام الحكومة الإسلامية فى المدينة .

وهكذا رسمت الصحيفة التخطيط العام للأمة ، وقد أخذ نظامها يكتمل شيئاً فشيئاً ، وكان المؤمنون وعلى رأسهم النبى هم روح هذه الأمة والعنصر

الناهض بها الذى كانت تصدر منه كل الحركة ، ومع ازدياد انتشار الدين قويت أركان الأمة وتوطدت .

وكانت مهمة النبى السياسية بعد هذا تنحصر فى الدفاع عن حدود دولته وضمان الأمن لها ولم تخرج تصرفاته عن هذا الهدف طوال العصر المدنى . ولتقوية جبهة المدينة اعتبرت الهجرة إليها أساس حق المواطنة فى الدولة الجديدة . وقد ظلت حكومة المدينة قاصرة على المدينة نفسها وريفها إلى عام فتح مكة سنة ثمانية للهجرة .

وكما حرص الرسول على تنظيم شئون دولته الوليدة الداخلية ، كذلك حرص على أن يضم إلى المدينة ما حولها من ريف وما حولها من قبائل وأن يعقد لها أحلافًا مع القبائل النازلة فيما حولها . ذلك لأن الحاضرة لا تستطيع أن تعيش بنفسها ، ولا تستغنى عن ريف يزودها بالمؤن . ولهذا الغرض أرسل النبى عدة سرايا ، خرجت من المدينة واتجهت إلى جميع أرجاء الريف المجاور للمدينة ، ونجحت هذه السرايا فى تأمين هذا الريف كما نجحت فى عقد أحلافًا مع القبائل المجاورة . وقد قاد هذه السرايا عدد من كبار الصحابة ، وقد تسمت الحملات التى قادها الرسول بنفسه باسم (الغزوات) ، دون هذه السرايا . وقد بلغ عدد السرايا التى أرسلها الرسول قبل غزوة بدر ثمان سرايا . ويتبين لنا من دراسة ظروف إرسال هذه السرايا أنه كان من مهمتها منع تجارة قريش من المرور فى أراضى الدولة الجديدة ، طبقًا لنص الصحيفة الذى يقول « أن لا تُجار قريش ولا أموالها » ، وقد دخل هذا فى نطاق أعمال السيادة لدولة المدينة . وكان لابد من إشعار قريش والقبائل المجاورة أن حدود الدولة الجديدة محروسة ، وأن سيادتها على أراضيها يجب أن تحترم ، وأنه من الخير الاتفاق معها والاعتراف بها

وسيادتها . كما أن السرايا حملت فى الوقت نفسه تهديداً مباشراً لقريش مفاده أن تجارتها مرهونة برضاء الدولة الإسلامية عليها ، وأنها إذا كانت تريد لقوافلها استمرار السير نحو الشام أو العراق عليها أن تحسب حساب الوضع الجديد ويجب أن تغير من سياستها العدوانية مع النبى ومع مسلمى المدينة . كذلك عليها أن تترك الحرية لمن حبستهم بمكة من المسلمين ومنعتهم من الهجرة إلى المدينة أن يهاجروا ، وأن تترك الدعوة الجديدة تشق طريقها دون تدخل منها ، وإلا عرّضت تجارتها التى هى أساس اقتصادها وجوهر حياتها للخطر والضياع .

وقد بدأت سرايا المدينة بالفعل تتجه إلى الطرق الرئيسية التى تمر منها تجارة قريش إلى الشام وتواجه قوافل قريش وتؤكد لها حقيقة وجود الدولة الإسلامية الجديدة ، وإن كانت لم تصادر هذه القوافل ولم تتحرش بها . كذلك أخذ قواد هذه السرايا يتصلون بالقبائل القاطنة على جوانب هذه الطرق التجارية ، ويعقدون معها أحلافاً تتعهد هذه القبائل بموجبها بعدم معاونة قريش إذا ما هى اعتدت على دولة المسلمين وعدم لجوء قوافلها إلى حماية هذه القبائل فى حالة العدوان . ولم يزد أمر هذه السرايا عن كونها مظاهرات عسكرية لإظهار القوة استمرت طيلة عشرة أشهر ، وقد ردت قريش على ذلك من جانبها بتعزيز الحراسة على قوافلها وتسيير دوريات عسكرية كانت تتقابل وتتواقف مع دوريات المسلمين دون وقوع قتال بينهما . لكن سرية إسلامية واحدة من هذه السرايا تعرضت لقافلة قريشية كانت قادمة من الطائف تحمل بعض التجارة . وكان يقود هذه السرية الصحابى « عبد الله بن جحش » من المهاجرين ، وكان عددها صغيراً إذ كانت تتألف من ثمانية أشخاص ، وكانت مهمتها استطلاعية بحتة . وقد هاجم رجال هذه السرية القافلة القريشية عند بطن نخلة ، واستولوا على ما بها بعد أن قتلوا رجلاً من رجالها وأسروا رجلين آخرين . وقد وقع ذلك فى آخر

يوم من شهر رجب من السنة الثانية للهجرة ، ومن المعروف أن شهر رجب من الأشهر الحرم الأربعة التى تُحرم العرب فيها القتال . وانتهزت قريش هذه الحادثة واتخذتها فرصة للتشهير بمحمد وبالمسلمين واتهامهم بسفك الدم الحرام فى الشهر الحرام . وهنا نزل القرآن الكريم يرد على دعاية قريش بقوله تعالى فى سورة البقرة (آية ٢١٧) : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ .

وقد كانت أحداث هذه السرية بمثابة مفترق طرق فى سياسة الإسلام ، فالقرآن الكريم يوافق المشركين على أن القتال حرام فى الشهر الحرام ، لكن ما هو أكبر وأشد حرمة ، وقد قام به المشركون ، هو الصد عن سبيل الله والكفر وإخراج أهل المسجد الحرام منه وفتنة الناس عن دينهم . ومن هنا شُرع الجهاد فى الإسلام ، فنزلت الآية ٣٩ من سورة الحج تقرر مشروعية الحرب للمسلمين دفاعًا عن أنفسهم ، فى قوله تعالى : ﴿ أُذنَ للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وأن الله على نصرهم لقدير الذين أُخرِجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله .. ﴾ كما قرر الجهاد على المسلمين لتأمين الدعوة والدفاع عنها أمام كل من يقف فى سبيلها ، وذلك حتى لا يخشى من يريد الدخول فى الإسلام الفتنة على دينه ، وذلك بقوله تعالى فى سورة البقرة (الآيات ١٩٠-١٩٤) : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين * واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن إنتهوْا فإن الله غفور رحيم * وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة

ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين * الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ .

وبدأ المسلمون بعد سرية ابن جحش يفكرون تفكيراً جدياً فى وقف قريش عند حدها واتخاذ موقف الشدة الصريح معها ، ذلك أن قريشاً حاولت ، بعد حادث هذه السرية ، أن تثير شبه جزيرة العرب كلها على محمد وأصحابه ، لدرجة أيقن النبى أنه لم يبق فى مصانعتها أو الاتفاق معها أى رجاء . لذلك اعتزم أن يقــف من اعتداءاتها على حدود دولته ، بتسيير تجارتها فى أرضها موقفاً صارماً . فما لبث حين علم بخروج قافلة كبيرة من قوافلها إلى الشام بقيادة زعيمها أبى سفيان بن حرب بن أمية ، أن خرج لقطع طريق هذه القافلة ومصادرتها ثمناً لما استولت عليه قريش من ممتلكات وأموال المهاجرين المسلمين من مكة إلى المدينة وتعويضاً لهم ، وقد كان ذلك فى أوائل خريف السنة الثانية للهجرة . ووصلت قوات الرسول إلى موضع يقال له العشيرة ، لكن أبا سفيان سبق الرسول فى الخروج من هذا الموضع متجهاً إلى الشام ، فانتظر الرسول عازماً على مهاجمة القافلة عند عودتها من الشام ، وأرسل عيونه خلفها يتجسسون أخبارها . وعندما علم بخبر عودتها ، خرج من المدينة يوم الثامن من رمضان للسنة الثانية من الهجرة (فبراير ٦٢٤م) على رأس ثلثمائة وسبع عشرة رجل ، منهم ستة وثمانون من المهاجرين والباقون من الأوس والخزرج ، ليتصدوا لأبى سفيان قبل أن يفلت بالقافلة التى كانت تحمل بضائع قوامها خمسين ألف دينار. وقد تحسس أبو سفيان بدوره أمر ترصد المسلمين له فغيّر طريق رحلته وسار محاذياً للبحر الأحمر حتى جاوز مكان المسلمين ثم اتجه إلى مكة دون أن تُمس تجارة قريش بسوء ، وأرسل رجلاً من قبيلة غفار يسبقه إلى مكة ليستنفر قريشاً

لنجدة أموالها . ولم تكن قريش فى حاجة إلى من يستنفرها ، فقد كانت القافلة شراكة لجميع أهلها ، كما كان حال القوافل فى رحلتى الشتاء والصيف . كذلك كانت قريش تعتزم إيقاف قوة المسلمين النامية وضربها قبل أن تكتمل . فصممت قريش علىَ الخروج لقتال محمد ، وإن كانت هنالك طائفة ترددت فى الخروج بفعل العصبية العشائرية عند بنى عبد مناف أقرباء الرسول ، إلا أن أبا جهل بن هشام المخزومى رجحٌ كفة الخروج للقتال فخرجوا فى ألف رجل مسلحين من المشاة وبينهم مائة من الفرسان .

ولقد أصبح الموقف غاية فى الدقة والحرج بالنسبة لرسول الله ، فلقد خرج ليواجه قافلة تجارية لا يزيد حماتها عن الأربعين رجلاً على أكثر تقدير ، فلم يأخذ لذلك للحرب أهبتها ولم يكن معه سلاح أو عتاد جيش محارب ، وها هو يواجه مكة قد خرجت جميعها وعلى رأسها أشرافها للدفاع عن تجارتها ولاستئصال شأفة الدولة الإسلامية الجديدة التى باتت تهدد هذه التجارة ، عصب اقتصادها . عند ذلك استشار الرسول أصحابه وأوضح الموقف لهم ، فوافقه المهاجرون على الحرب ومواجهة العدو وكذلك الأنصار ، فأشرق وجه النبى سروراً وبدا عليه كل النشاط ، وقال : « سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين . والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » ، وكانت غزوة بدر .

وكان أبو سفيان ، بعد أن نجى بالقافلة ، أرسل إلى قريش يطلب منهم الرجوع خوفاً على قومه وسادات قريش من لقاء المسلمين واحتمال هزيمتهم وما يستتبع ذلك من نتائج تكون شراً عليهم . لكن القوم لم يستمعوا له وواصلوا مسيرتهم تجاه المدينة حتى نزلوا خلف كثيب من الرمل بالعدوة القصوى يحتمون

به بعد أن علموا أن المسلمين قد بادروا بالنزول عند ماء بدر . وقد انتقل المسلمون من مكان نزولهم الأول عند بدر إلى مكان أدنى ماء من القوم وبنوا عليه حوضاً للشرب ثم ردموا بقية الآبار هناك حتى يمنعوا قريش من الشراب ، وقد كانت تلك مشورة الحباب بن المنذر بن الجموح أشار بها على رسول الله وأخذ الرسول بها على مبدأ أن الحرب مكيدة . وبُنى للرسول عريشاً يقود منه المعركة ، بناءً على نصيحة من سعد بن معاذ .

واتخذ الجيشان مواقفهما للقتال ، وقد اكتسب الرسول الموقف الأحسن باستدباره الريح ، وجعلها وترابها فى وجه العدو إذا ما حمى وطيس القتال وازداد الغبار ، كذلك جعل الشمس لا تواجه عيون رجاله وإنما تواجه عيون رجال العدو ، وجعل اللواء فى يد مصعب بن عمير . وتعجلت قريش القتال بأن اندفع أحد رجالها ، وهو الأسود بن عبد الأسد المخزومى ، من بين صفوفها يريد هدم الحوض الذى بناه المسلمون فعاجله عم النبى – حمزه بن عبد المطلب – بضربة سيف أطاحت بساقه وضربة أخرى قضت عليه . عندئذٍ خرج عتبة بن ربيعة ومعه أخوه شيبة وابنه الوليد بن عتبة وطلبوا المبارزة ، فخرج لمبارزتهم فتيان من الأنصار فنحوهم وطلبوا مبارزة رجال من قومهم ، فخرج إليهم حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب . وبسرعة خاطفة أجهز كل من حمزة وعلى على عتبة والوليد وقاما بمعاونة عبيدة على قتل شيبة .

فلما رأت قريش ما حاق بفرسانها ودماءهم تروى ظمأ أرض الصحراء القاحلة هاجوا وماجوا وزحفوا بجميع قواتهم على قوات المسلمين ، وكان هذا اللقاء الحاسم فى معركة بدر صبيحة يوم الجمعة السابع عشرة من شهر رمضان

للسنة الثانية للهجرة . وخلال عدة ساعات من القتال انجلى الموقف بنصر المسلمين وهزيمة قريش ، وقُتل سبعين من رجالاتها وساداتها ، وأسر سبعين آخرين ، أما المسلمون فقد استشهد منهم أربعة عشر رجلاً . وكان من أشراف قريش الذين قتلوا فى بدر : عتبة بن ربيعة وأخوه شيبه ، والوليد بن عتبة ، وأبو جهل (عمرو بن هشام) ، وأمية بن خلف وابنه .

هذه هى غزوة بدر التى استقر بها الأمر للمسلمين فى بلاد العرب ، والتى كانت مقدمة لوحدة شبه الجزيرة العربية ، والتى تعتبر على صغرها ، معركة حاسمة من معارك التاريخ الكبير الأثر ، فقد أقامت دعائم الدولة العربية الإسلامية ، وكانت البداية لقيام دولة مترامية الأطراف امتدت حدودها من حدود الصين إلى المحيط الأطلنطى ، وخلفت حضارة من أزهى حضارات الدنيا .

وكان لانتصار المسلمين فى هذه المعركة أكبر الأثر فى تثبيت الإسلام ، وفى رفع الروح المعنوية للمسلمين . والمعارك الأولى دائماً ما تقرر مستقبل أى حركة ، فإذا ما أحرز النصر فيها إستمرت وعاشت ، وإذا ما قدر لها الهزيمة فيها ماتت فى مهدها وتلاشت . ولنا أن نتصور لو حدث العكس فى معركة بدر هذه ، لكن الله وعد رسوله النصر ووعد أن يتنشر هذا الدين ولو كره الكافرون ، والله منجز وعده ولو كره المشركون .

وقد تركت معركة بدر أثراً عميقاً فى كل من مكة والمدينة على حد سواء ، فأما فى مكة فقد عادت قريش مهزومة مخذولة ، قتل من قتل من رجالها وساداتها وأُسر منهم من أُسر . وقد تركت الهزيمة جرحاً كبيراً فى نفوس القرشيين جعلهم يحرصون على الثأر من محمد وأتباعه يوم أن تتهيأ الفرصة لهذا الثأر . وقد حرصت قريش على أن تكون فرصة الثأر قريبة قبل أن تهدأ النفوس

ويميل الناس مع الوقت إلى السلم وتخمد النار فى الصدور ويتحولوا عن حرب محمد وأتباعه . فما كادوا يرجعون إلى مكة حتى اجتمع زعماؤهم فى دار الندوة واتفقوا على التنازل عن أرباح قافلة أبى سفيان ورصدها لإعداد جيش قوى لحرب محمد والمسلمين . كذلك اتصلوا بأحلافهم من القبائل وأحابيشهم للمشاركة معهم فى هذه الحرب المقبلة ، كما اتصلوا بيهود المدينة ليتعاونوا ضد محمد ، وهم يعلمون أن نفوسهم لم تكن صافية لمحمدولا لرسالته يوماً ما .

أما أثر بدر فى المدينة ، فقد كان أوضح ، فقد ذاق المسلمون حلاوة النصر وتأكدوا من صدق دعواهم وصدق وعد الله ورسوله لهم . فازدادوا إيماناً على إيمانهم ، وازدادوا أملاً فى بقاء دولتهم وسيادتها على دولة الكفر فى شتى الأنحاء . ومن ناحية أخرى ، شعر اليهود والمشركون والمنافقون بالمدينة بعد بدر بالقوة المتزايدة للمسلمين فازداد حسدهم لهم وازدادت مؤامراتهم ضدهم .

وعاد الرسول بقواته إلى المدينة ، بعد أن دفن شهداء المسلمين حيث قتلوا ، وقتلى قريش فى قليب احتفر لهم مكان المعركة .

وفى الطريق وقف الرسول فقسم الغنائم بين المسلمين ، وفقما نزل عليه فى سورة الحشر ، وجعل للفرس مثل ما للفارس ، وللورثة حصة من استشهد . أما الأسرى فقد عاد بهم إلى المدينة حيث فاداهم ، وجعل فداء من يعرف الكتابة منهم تعليم عشرة من صبية المسلمين الكتابة والقراءة ، وأما من لا مال له ولا يعرف الكتابة فقد مَنَّ عليه الرسول بالإعتاق . ولم يأمر الرسول بقتل أحد من الأسرى إلا اثنين ، هما : النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط ، وكانا من أشد المؤذين للرسول وللمسلمين أثناء مقامهم بمكة . وقد قتل النضر عند منطقة الصفراء فى الطريق إلى المدينة ، أما عُقبة فقد قُتل عند عرق الظبية .

وكان من نتائج غزوة بدر أن بدأ اليهود وقبائلهم فى التآمر على المسلمين ، وكان تذمر اليهود ومناوشتهم للمسلمين قد بدأت من قبل بدر ، ولم يحل دون انفجار العداوة بين الطرفين إلا عهد الموادعة الذى كان بين الفريقين فى اتفاق الصحيفة . على أنه ما كاد المسلمون يعودون منتصرين حتى بدأ تغامز اليهود وشتمهم للمسلمين والتحريض عليهم . فما كان على المسلمين بعد نصرهم ، إلا أن يردوا الكيد على اليهود بمثله . وكان يهودى من بنى عمرو بن عوف يدعى أبو عفك يقرض الشعر يطعن به الرسول والمسلمين ويحرض قومه على الخروج عليهم . فقام سالم بن عمير باغتياله فى داره ليلاً وقتله .

كذلك قتل عمير بن عوف امرأة أموية تسمى عصماء بنت مروان كانت تسب النبى وتحرض عليه ، وأيضاً قتل جماعة من المسلمين زعيماً لليهود شاعراً شيطاناً هو كعب بن الأشرف ، وكان يكيد للمسلمين ويحرض عليهم وقد آلمه ما نزل بقريش من هزيمة فى بدر فذهب إلى مكة يرثى قتلى قريش فيها من أهل القليب وينشد فى ذلك الأشعار ، ويشبب بنساء المسلمين . وقد زاد هذا الحادث من مخاوف اليهود لكنه لم يمنع تآمرهم وعدوانهم . وقد كان بنو قينقاع إحدى قبائل اليهود التى عاهدت الرسول من خلال اتفاق الصحيفة ، أول هذه القبائل المعتدية . وقد كان بنو قينقاع يقيمون فى حى لهم بوسط المدينة ، وكان لهم فى هذا الحى سوق كبير مشهور ، اشتهر ببيع الحلى التى تخصص بنو قينقاع فى صياغتها . وقد بدأ النزاع بين المسلمين وبنى قينقاع حين قدمت امرأة من الأنصار إلى سوقهم لتصنع حلياً لها فعبث بها نفر منهم ، فاستغاثت بالمسلمين ، فأغاثها رجل مسلم قام بقتل الصائغ اليهودى ، فشد اليهود على المسلم فقتلوه . ورفضوا أن يحكموا الرسول فيما حدث بما عاهدوا

عليه فى الصحيفة ، وتمادوا فى غيهم حين طالبهم الرسول بذلك ، وقالوا له : « لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس » . عند ذلك لم يكن أمام الرسول إلا مقاتلتهم بعد أن كشفوا عن حقيقة نواياهم العدوانية . عندئذ أمر الرسول بحصارهم فى حيهم ، فحاصرهم المسلمون مدة خمسة عشر يوماً ، لم يستطيعوا بعدها الصمود ، واضطروا إلى النزول على حكم الرسول والتسليم بقضائه فيهم . وانتهت مشاورات النبى وأصحابه ولتدخل حليفهم عبد الله بن أُبى بن أبى سلول ، بإجلائهم دون قتلهم . وبجلاء بنى قينقاع عن وسط المدينة أمن قلب المدينة خيانتهم وعدوانهم ، خاصة وأن المدينة كانت آنذاك تستعد لعدوان محتمل من قبل قريش ثأراً لما وقع لهم فى بدر .

وكان لابد لمكة أن تقوم بعمل يعيد إليها مكانتها فى جزيرة العرب بعد هزيمة بدر ، وبفتح الطريق التجارى أمام تجارتها من جديد ، وإعادة قريش لأذهان العرب أنها لا زالت لها عصبيتها وقوتها وقدرتها على الحرب وإحراز النصر . لذلك ما لبث أبو سفيان ، بعد شهر من معركة بدر ، أن جمع مائتين من رجال مكة وخرج بهم مستخفين ، حتى إذا كانوا على مقربة من المدينة ، خرجوا فى السحر وأغاروا على ناحية من نواحى المدينة يُقال لها (العريض) ، فحرقوا بها بيتين ونخلاً وقتلا رجلين ثم عادوا مسرعين إلى مكة حتى لا يتعقبهم محمد وأصحابه . فلمَّا علم الرسول بما فعل أبو سفيان تعقبه بعدد من رجاله حتى بلغ مكاناً يُقال له « قرقرة الكدر » ، على نحو أربعة وعشرين ميلاً من المدينة ، وقد وجد أن أبا سفيان ورجاله هربوا وتركوا ما يحملونه من زاد بما فيه سويقهم .

فرأى الرسول ضرورة التوقف عن مطاردتهم والعودة إلى المدينة بعدما ظهر من خوفهم وجبنهم ، وقد عُرفت هذه الغزوة « بغزوة السويق » .

وحاولت قريش أن تتخذ طريقاً جديداً لتجارتها مع الشام يكون مساره عبر العراق ، وقد جهزت بالفعل قافلة كبيرة لتسير عبر هذا الطريق بقيادة صفوان بن أمية تبلغ قيمتها مائة ألف درهم . ولما سمع الرسول بخبر هذه القافلة بعث زيداً إبن حارثة فى مائة راكب اعترضوا طريقها عند ماء من مياه نجد يُقال له (القردة) ففر رجال قريش من وجه القوات الإسلامية وتركوا القافلة بما فيها للمسلمين غنيمة لهم .

وقد زاد هذا الحادث من حنق قريش على محمد وعلى المسلمين وأدى إلى تصميمهم على حرب محمد وغزوه فى عقر داره ، ودعت إلى ذلك حلفائها من ثقيف وكنانه . وأعدت لذلك جيشاً قوامه ثلاثة آلاف رجل منهم سبعمائة دارع ومن بينهم مائتى فارس . وساروا فى العام الثالث للهجرة نحو المدينة يريدون اقتحامها ، وأصرت النسوة من قريش على أن يسرن مع هذا الجيش لتحميسهم وتذكيرهم بقتلاهم فى بدر ، وكانت هند بنت عتبة بن ربيعة ، زوج أبى سفيان ، فى مقدمة هؤلاء النسوة ، وقد كانت أشدهن على الثأر حرصاً بسبب قتل أبيها وعمها وأخيها يوم بدر . وقد بلغ خبر هذا الإعداد الرسول من كتاب أرسله إليه عمه العباس بن عبد المطلب الذى كان لا يزال آنذاك على دين قومه .

وقبل أن يبت الرسول فى أمر مواجهة هذه الحملة دعا إلى اجتماع عام حضره أهل الرأى من المسلمين والمنافقين . وانقسم المسلمون فى الرأى إلى فريقين ، فريق يرى عدم الخروج لملاقاة العدو والاكتفاء بالبقاء فى المدينة

والتحصن فيها ، وقد كان على رأس هؤلاء رأس المنافقين عبد الله بن أبى سلول بحجة أنهم أهلها وأعلم بها وبدروبها وأقدر على دفع العدو والتغلب عليه . وقد وافق على هذا الرأى عدد من أكابر الصحابة من المهاجرين والأنصار ، كذلك كانت نفس النبى تميل إلى هذا الرأى . أما الفريق الثانى ، الذى كان يرى الخروج فكان يتألف من شباب ذوى حمية لم يشهدوا بدراً ورغبوا فى أن ينالهم فضل ما نال إخوتهم يوم بدر وذاقوا حلاوة النصر فى هذا اليوم وتمنوا تكراره ..

وكان اليوم يوم جمعة فصلى الرسول بالناس وأمرهم بالتهيؤ لملاقاة العدو واتخذ عدة الحرب ولبس سلاحه . وتراجع الداعون للخروج عن إصرارهم وحسبوا أنهم أكرهوا الرسول على أمر لم يكن يريده وحاوروه بشأن عدم الخروج ، فقال لهم الرسول : « ما كان ينبغى لنبى إذا لبس لامته (عدة حربه) أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . انظروا ما آمركم به فاتبعوه والنصر لكم ما صبرتم » .

وتقدم الرسول بالمسلمين متجهاً إلى جبل أحد ، خارج المدينة ، حيث عسكرت قريش ببعض سفوحه . وفى الطريق انسحب عنه عبد الله بن أبى سلول بثلث الناس وعاد إلى المدينة محتجاً بأن الرسول قد خالف رأيه وأخذ برأى الغلمان . وبقى الرسول ومعه سبعمائة مقاتل من المسلمين ليقاتلوا ما يزيد على الثلاثة آلاف مقاتل من قريش وحلفائها وأحابيشها . وجعل الرسول جبل أحد إلى ظهره ، وصف قواته فى مواجهة العدو ، ووضع خمسين من رماة السهام على مرتفع يقال له (عينين) ، وطلب منهم أن يحموا ظهور المقاتلين وألا يبرحوا مكانهم بأى حال من الأحوال حتى يأمرهم الرسول بذلك .

واستعد الجيشان كل فى مواقعه ، ونساء قريش يمشين خلال صفوفها

يضربن بالدفوف والطبول وينشدن تحميساً للجنود . وكان قائدىْ قريش يومئذ فارسيهم خالد بن الوليد فى الميمنة وعكرمة بن أبى جهل فى الميسرة . ودارت رحى الحرب بين الفريقين ، وكان النصر حليف المسلمين فى بادئ الأمر ؛ إذ استطاعوا أن يمزقوا صَفوف الكفار بفضل بسالة قتال المقاتلين الأشداء من أمثال أبى دجانة سماك بن خرشة الأنصارى وحمزة بن عبد المطلب . وتبع المسلمون عدوهم يضعون السلاح فيهم حيث شاءوا ويجمعون من الغنيمة ما أرادوا ، وقد صرفهم جمع الغنيمة عن القضاء نهائيًا على عدوهم . وخالف الرماة أمر النبى وأمر قائدهم عبد الله بن جبير وتركوا مواقعهم إيقانًا بالنصر ورغبة فى المشاركة فى جمع الغنائم . فانتهز خالد بن الوليد الفرصة والتف بعدد من قواته واحتل مواقع رماة المسلمين . ومن هناك أخذوا فى رمى المسلمين ، فدارت الدائرة عليهم وحلت بهم الهزيمة بعد النصر ، وتفرق الناس وهربوا ولم يبق مع رسول الله سوى أربعة عشر مقاتل والباقون كانوا بين قتيل وجريح ومنهزم فى بطن الجبل ، وصاح صائح من قريش أن محمداً قد قُتل فازدادت البلبلة وعم الاضطراب . أما النبى فقد وصل العدو إليه وناله بالأذى ، فضربه ابن قميئة بالسيف على عاتقه وكاد يصيبه لولا أن اتقى الضربة عنه طلحة بن عبيد الله بيده فشُلت . وضربه عتبة بن أبى وقاص بحجر فشجه فى جبهته وأصيبت رباعيته وكلمت شفته ودخلت حلقتان من المغفر فى وجنته ، ثم سقط فى إحدى الحفر ، فأخذ علىٌّ وطلحة بيده حتى استوى قائماً ، ودافع صحابة رسول الله عنه بأجسادهم وترّس أبو دجانة نفسه دون النبى واستقبل النبال عنه بظهره ، وقاتل طلحة ، دفاعاً عن النبى ، قتالاً شديداً . كذلك قاتلت أم عمارة – نسيبة – بنت كعب الأنصارية عن رسول الله حتى جرحت جرحاً بليغاً ، ورمى سعد بن أبى وقاص بالنبل إلى جانب النبى من كانوا يرمون النبى بنبالهم .

وقُتل فى المعركة سبعون من المسلمين ، منهم حمزة بن عبد المطلب – عم الرسول – الذى اغتاله عبدٌ حبشـى ، يُقال له وحشـى ، استأجرته هند بنت عتبة ، وقد كان عبداً لجبير بن مطعم ، وقد وُعدَ بالإعتاق إذا هو قتل حمزة . وقد رصد وحشى حمزة أثناء المعركة من وراء صخرة حتى إذا اقترب منه دون أن يراه ، رماه بحربته ، فأصاب ثنته (أسفل بطنه تحت السرة) فقتله . وقد مثلت هند بجثة حمزة ، فبقرت بطنه وأخرجت منها كبده ولاكتها ثم لفظتها وقطعت أنفه وآذانه . واستشهد فى المعركة مصعب بن عمير حامل راية المسلمين فى المعركة .

أما قريش فقد طارت بنصرها فرحاً وحسبت نفسها انتقمت ليوم بدر أشد الانتقام حتى صاح أبو سفيان يخاطب المسلمين من فوق الجبل بقوله : « يوم بيوم بدر والموعد العام المقبل » . وعاد المسلمون إلى بيداء المعركة بعد انصراف جـيش قريش ، لدفن موتاهم ، وانصرفوا بعد ذلك إلى المدينة والحزن يملأ قلوبهـم . وكان على النبى – بعد هذه الهزيمة – أن يعالج الموقف من نواح متعددة . فعليه أولاً أن يعالج الناحية النفسية عند المسلمين ، بعد أن أوشكت الهزيمة أن تقتل روحهم المعنوية ، والإحساس بالذنب لمخالفتهم أمر النبى أن يذل نفوسهم ويصغر أقدارهم فى نظر أنفسهم . فعفى الرسول عن كل مسىء فى المعـركة ، ولم يحمل أحداً بعينه ممن حضرها نتائجها بل جعل المسئولية جمـاعية . وقد واساهم القرآن فى ذلك بقوله تعالى : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين * إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء .. والله لا يحب الظالمين ﴾ . وكان على الرسول أن يعالج موقف قوة الدولة وإظهارها بأنها ما زالت قوية ليُشعر قريشاً والمنافقين واليهود بأن دولته لا تزال قادرة على الضرب

والتغلب على العدو ، وأن ما حدث فى أحد هو أمر عارض لم يؤثر فى جوهر المسلمين ولا فى شجاعتهم . ولذلك أمر النبى بأن يؤذن مؤذن فى المسلمين بطلب العدو فى الغد من يوم أحد ، على ألا يخرج للقتال إلا من حضر الغزوة . فتحامل المسلمون المقاتلون على جراحهم ، ولم يتخلف منهم أحد عن النداء ، وسار بهم النبى حتى وصلوا إلى حمراء الأسد ، على بُعد ثمانية أميال من المدينة ، فوجد قوات مكة قد بلغت الروحاء على بعد سبعة وثلاثين ميلاً من المدينة ، عائدة إلى مكة دون أن تستفيد من نصرها على المسلمين بمهاجمة المدينة . وظلت قوات النبى عند الروحاء توقد النار طيلة الليل ثلاث ليال متتابعة دون أن تعود قريش للقتال لأنها كانت قد واصلت طريقها عائدة إلى مكة مبقية على نصرها فى أحد . ورجع الرسول إلى المدينة ، وقد استرد المسلمون الكثير من مكانتهم وعادت لنفوسهم شجاعتها والطمأنينة لقلوبهم .

وفى داخل المدينة ، كان لغزوة أحد رد فعل شديد ، وبرغم سيادة النبى العليا فيها إلا أن كثيراً من اليهود والمنافقين شمتوا لهزيمة المسلمين وأشاعوا أن نصر المسلمين فى بدر كان مجرد صدفة لأن قريشاً لم تعد العدة الحقيقية للحرب وأنها حين اكتملت عدتها انتصرت على محمد وعلى قواته ، وأن محمداً ليس مؤيداً فى زعمهم ، من قبل الله كما يدعى . كذلك اهتزت مكانة النبى وقوة الدولة الجديدة فى أعين قبائل العرب المحيطة بالمدينة ، والتى كانت تخشى سطوة دولة الإسلام بعد بدر . فتجرأت بعض هذه القبائل فى التفكير فى مهاجمة المدينة . وكان على الرسول أن يسارع فى مواجهة هذه التغيرات الجديدة وأن يثبت أن هزيمة أحد كانت أمراً طارئاً لا عودة له . وبعد شهرين من أحد أرسل الرسول سرية عدد أفرادها مائة وخمسون ، منهم كثير من شجعان المسلمين أمثال سعد بن أبى وقاص ، وأبى عبيدة بن الجراح

وأسيد بن حضير ، لمهاجمة بنـى أسد فـى نجد بعد أن علم أن طليحة بن خويلد ، وابنه سلمة يريدان مهاجمة المدينة ليغنموا من نعم المسلمين التى ترعى عند أطرافها . ونجحت هذه السرية فى مباغتة العدو وإيقاع الهزيمة السريعـة به مما ألجأهم إلـى الفرار ومطاردتهم لهم والظفر بما معهم غنيمة للمسلمين . وقد أعادت هذه السرية المظفرة الهيبة للمسلمين بعد هزيمة أحـد .

كذلك أرسل الرسول عبد الله بن أنيس ليستطلع أمر صفوان بن خالد زعيم هـذيل بنخلة حـين علم أنه يجمع الناس حوله لغزو المدينة . فنجح ابن أنيس فـى اغتياله . لكن بنى لحيان من هذيل أرادت أن تنتقم من المسلمين لمقتل زعيمها ، فاتفقوا مع قبيلتين من بنى مخزوم لمساعدتهم فى أخذ ثأرهم من محمد . وقام بنو مخزوم بمخادعة الرسول إذ أرسلوا إليه رهطًا منهم يعلنون له دخولهم فى الإسلام وحاجتهم إلى نفر من أصحاب الرسول يأخذونهم إلى بلادهم ليفقهوهم فى الدين ويقرئونهم القرآن . فرحب الرسول بذلك وبعث معهم سبعة من صحابته جعل عليهم مرثد بن أبى مرثد الغنوى رئيسًا . فخرجوا مع القوم حتى ما وصلوا إلى ماء لهذيل بناحية الحجاز ما بين عسفان ومكة يقال له (الرجيع) ، وجد المسلمون أنفسهم فجأة محاطين بمئات المقاتلين من بنى لحيان . فطلبوا منهم التسليم وأرادوهم أحياء كى يبيعوهم لقريش . فرفض أربعة منهم الاستسلام وقاتلوا حتى قتلوا ، واستسلم الثلاثة الباقون فأسروهم ، وخرجوا بهم إلى مكة مكبلين فى الأغلال ليبيعونهم هناك حتى إذا كانوا بالظهران نزع أحد الثلاثة ، وهو عبد الله بن طارق الأوسى يده من قيده وأخذ سيفه وقاتل حتى قُتل ودُفن بالظهران . أما الرجلان الباقيان ، وهما خبيب بن عدى وزيد بن الدثنه فقدموا بهما مكة وبادلوهما مع أسيرين لهذيل كانا فى مكة . وابتاع

خبيباً ، عقبة بن الحارث فقتله بأبيه . وأما زيد فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف ، فقتلوه عند التنعيم خارج مكة .

وبعد تلك الحادثة بقليل ، بعد أحد بأربعة أشهر تقريباً ، قُتل أربعون من صحابة الرسول غدراً وغيلة على يد المشركين عند مكان يُقال له (بئر معونة) . وكان أبو البراء عامر بن مالك ، شيخ بنى عامر ، قد وفد فى شهر صفر على الرسول بالمدينة فعرض عليه الرسول الإسلام ، فلم يسلم ولم يبعد من الإسلام ، ولكنه طلب من الرسول أن يرسل معه رجالاً من أصحابه إلى أهل نجد يدعون قومه إلى الإسلام . فبعث معه الرسول المنذر بن عمرو فى أربعين صحابى من خيار المسلمين . فساروا مع أبى البراء حتى نزلوا ببئر معونة ، وهى من أرض بنى عامر وحرة بنى سليم . وهنالك أحاط بهم رجال من بنى سليم وذكوان قاتلوهم حتى قتلوهم عن آخرهم ما عدا كعب إبن زيد الذى تظاهر أنه قد قُتل ولم يُقتل فتركوه بين القتلى ، وقد عاش كعب حتى استشهد يوم الخندق . وقد شهد هذه المذبحة التى تعرض لها المسلمون رجلان مسلمان أحدهما عمرو بن أمية الضمرى والآخر رجل من الأنصار ، وكانا في مرعى القوم . فقام هذان الرجلان بمقاتلة المشركين من بنى سليم ، فقُتل الأنصارى وأُخذ عمرو أسيراً ، لكن عمراً إبن الطفيل أطلق سراحه . وعندما وصل عمرو إلى مكان يقال له (القرقرة) بالقرب من المدينة ، أقبل رجلان من بنى عامر فنزلا معه فى الظل الذى كان يستظل فيه . وكان لهذين الشخصين من بنى عامر عهد وجوار مع رسول الله لم يعلم الضمرى به . ولقد أضمر الضمرى قتل الرجلين حين علم أنهما من بنى عامر ثأراً منهم فيما أصابوا من أصحاب رسول الله . فلمّا قدم عمرو بن أمية الضمرى إلى رسول الله وأخبره بالخبر ، قال له رسول الله : «

لقد قتلت قتيلين وجبت علينا ديتهما » وأخذ الرسول يتدبر أمر دفع هذه الدية لقتلى بنى عامر .

ولقد وجد المنافقون واليهود من أهل المدينه فيما أساب المسلمين بالرجيع وبئر معونة ما ذكرهم بانتصار قريش فى أحد ، ربما أنساهم انتصار المسلمين على بنى أسد ، وبدا أنهم أخذوا يستهينون بالمسلمين وبقوة الدولة الجديدة . وكان على الرسول أن يتدارك هذا الخطر وأن يثبت للمنافقين ولليهود فى داخل المدينة وللقبائل خارجها ثبات قوة دولته وثبات قدراتها على الحركة وإحراز النصر . وكان على الرسول أن يستدرج هؤلاء الأعداء فى الداخل والخارج ويكشف نواياهم السيئة وبالتالى يتولى عملية التعامل معهم . وبدأ الرسول بيهود بنى النضير حلفاء بنى عامر . فذهب الرسول إلى حيهم ، وقد كان على مقربة من قباء ، يصحبه عشرة من كبار صحابته من بينهم أبو بكر وعمر وعلى . وطلب إليهم ، بسبب حلفهم لبنى عامر ، أن يعاونوه فى دفع دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو ابن أمية الضمرى بطريق الخطأ ، وذلك تطبيقاً لاتفاق الصحيفة . وأظهر اليهود ترحيبهم بالرسول وصحبه واستجابتهم لتنفيذ ما طلب ، ثم استمهلوه لبعض الوقت تظاهراً بتجهيزهم للمبلغ المطلوب . فجلس الرسول وصحابته بجوار جدار بيت لهم منتظراً . ولمّا خلوا إلى بعضهم اتفقوا على قتل محمد بإلقاء حجر عليه من فوق البيت الذى كان يستظل بجداره . وفطن الرسول إلى المؤامرة – بعد أن أخبره الوحى بذلك – فانتقل من مقامه قبل أن يُسقط عمر بن جحاش بن كعب ، الذى كُلفَ بإلقاء الحجر عليه ، الحجر عليه وتعجب اليهود من ذلك ، وانفض الصحابة عائدين إلى المدينة لمّا علموا أن الرسول قد سبقهم عائداً إليها . ونقض اليهود بذلك عهدهم مع الرسول وتآمروا على قتله فحكم عليهم بالجلاء عن المدينة ، وأرسل إليهم الحكم مع محمد بن مسلمة الأنصارى ، وقد أمهلهم

فيه الرسول عشرة أيام يجلون خلالها عن المدينة ، وأنذرهم بأن القتل سيكون مصير من يتخلف بعد تلك الأيام العشرة .

وبدأ يهود بنى النضير يستعدون للرحيل ، وأثناء ذلك جاءهم رسولان من عند عبد الله بن أبى بن أُبى سلول ، رأس المنافقين وكبيرهم وكان فى حلف معهم ، يطلب منهم عدم الجلاء ومقاومة محمد ويعدهم بالمساعدة فى ذلك . فأوقف اليهود تجهزهم للرحيل وأخذوا فى التجهز للقتال ، اعتماداً على المساعدة المرتقبة التى سوف تأتيهم من عند أبى سلول وأتباعه . فأغلقوا عليهم حصونهم وتزودوا بالمؤنة والسلاح وأعلنوا تحديهم للرسول والمسلمين . وسارع الرسول بمحاصرة حصون بنى النضير وقتالهم مدة عشرين يوماً . لكن مقاومة اليهود انهارت بسبب ضراوة قتال المسلمين لهم وإحكام حصارهم عليهم ، والحيلولة دون وصول نجدات لهم من الخارج . وقام المسلمون بإحراق بيوت اليهود وتقطيع نخيلهم لإجبارهم على الاستسلام ؛ لذلك يئس اليهود فطلبوا مصالحة الرسول ، فصالحهم على الخروج من ديارهم خارج المدينة ، على أن يحملوا من متاعهم وأموالهم ما أرادوا لكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاءوا ليس لهم غيره ، على أن يتركوا سلاحهم وأرضهم وزرعهم غنيمة للمسلمين . فإرتحل بنو النضير عن المدينة ، وهم يحملون ستمائة بعير بمتاعهم حتى أن بعضهم أخذ معه أبواب بيوتهم وأسقفها ، كذلك حملت النسوة معهم حليهن وملابسهن . وتوجه غالبية اليهود إلى خيبر ، التى كانت أكبر مركز تجمع لليهود فى شمال الحجاز ، وتوجه البعض الآخر إلى الشام . وقد توجه من أشراف بنى النضير إلى خيبر وسادوا فيها كل من سلام بن أبى الحقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، وحيى بن أخطب . وقام الرسول بتوزيع أرض بنى النضير على المهاجرين حتى لا يعيشوا عالة على إخوانهم من الأنصار ، ولم يعط من الأنصار

إلا لأبى دجانة وسهيل بن حنيف بسبب شدة فقرهما . وقد نزل فى بنى النضير معظم آيات سورة الحشر ، يذكر الله فيها ما أصابهم من نقمته وما سلط به عليهم رسوله .

وبعد شهرين من جلاء بنى النضير ، قام الرسول فى أربعمائة من أصحابه ، بغزو نجد يريد حرب بنى محارب وبنى ثعلبة من قبيلة غطفان ، وكان قد بلغه أنهم يجمعون الجموع لحربه . فنزل الرسول بقواته عند موضع نخل بنجد من أرض غطفان به شجرة تعرف (بذات الرقاع) ، فسميت هذه الغزوة باسمها . وتقابلت قوات الرسول مع جمع كبير من غطفان ، لكنهم لم يحاربوا وأظهروا الطاعة والولاء للرسول ، فانصرف الرسول بالناس عائداً إلى المدينة بعد أن أظهر قوته للقبائل خارج المدينة .

وحين استدار العام من أحد ، وذكر الرسول قول أبى سفيان فى نهاية المعركة « يوم بيوم بدر والموعد العام المقبل » ودعوته محمداً للقائه مرة أخرى ببدر ، خرج رسول الله – فى شهر شعبان – بعد عودته من غزوة ذات الرقاع فى ألف وخمسمائة مقاتل وعشرة فرسان إلى ماء بدر للوفاء بموعده مع أبى سفيان . ونزل الرسول بقواته هناك ينتظر مقدم قوات أبى سفيان مدة ثمان ليال . وكان أبو سفيان قد جهز جيشاً كبيراً قوامه ألفى رجل وخمسين فارس وسار بهم من مكة ، وتوقف عند (عسفان) بعد مسيرة يومين من مكة . إلا أنه آثر العودة إلى مكة بعد أن خشى مغبة القتال فى هذا العام المجدب ، ولعله تذكر هزيمة قريش الساحقة فى بدر وقتل شجعانها فيها فدخل الخوف إلى قلبه ، فعاد أبو سفيان ورجاله دون حرب إلى مكة بعد أن شربوا (السويق) فى عسفان .

ولمّا تأكد الرسول من عودة جيش قريش إلى مكة ، عاد بجيشه إلى المدينة

بعد أن وفّى بوعده وأظهر قوة المسلمين وجبن قريش ، وقد أرهب ذلك القبائل المجاورة للمدينة ومحى أثر هزيمة أحد من ذاكرتهم تماماً . وفى العام الخامس للهجرة ، فى شهر ربيع الأول ، خرج رسول الله بقواته إلى « دومة الجندل » ، وهى واحة على الحدود بين الحجاز والشام ، تبعد عن دمشق حوالى مائة ميل ، وكان يُعقد بها سوق شهير . وكان الرسول قد علم أن القبائل الضاربة على حدود الشام تتحرش بتجارة المسلمين مع الشام . وعند وصوله بقواته هناك لم تتصدى أى قوة له ولم يلق عدواً لأن القبائل التى خرج لقتالها ولت مدبرة بعد أن امتلأت رعباً وفزعاً حين علمت بمقدم قوات المسلمين إليها ، ففروا وتركوا للمسلمين غنائم حملوها وعادوا بها إلى المدينة .

وفى شهر شعبان من نفس العام قام الرسول بغزوة بنى المصطلق ، وهم بطن من خزاعة ، وكان قد بلغه أن رئيسهم الحارث بن أبى ضرار قد أعد قومه لحرب المسلمين . وقد فوجىء بنو المصطلق بمهاجمة رسول الله لهم عند ماء يُقال له « المريسيع » على شاطىء البحر الأحمر من ناحية قديد إلى الساحل . وهزم بنو المصطلق وتفرق جيشهم وقتل عشرة من رجالهم وهرب الباقون . واستولى المسلمون على غنائم كثيرة منهم من بينها ألفين من الإبل وخمسة آلاف رأس من الماشية ، وقاموا بسبى مائتى امرأة من نسائهم هرب رجالهم وتركوهم للأسر . ولكن رسول الله عفى عن الأسرى ، فدخل بنو المصطلق فى الإسلام ، وتزوج الرسول من ابنة زعيمهم جويرية بنت الحارث التى صارت من أمهات المؤمنين .

استقر محمد بعد ذلك ، بالمدينة عدة أشهر متتابعة ليقوم بإتمام التنظيم الاجتماعى داخل الدولة الإسلامية الناشئة ، مطبقاً ما ينزل عليه من وحى ، مسخراً علمه وخبرته وخلقه وحسن سلوكه فى سبيل إقرار الإسلام وزيادة نشر

دعوته . لكن أعداءه الذين كانوا يتربصون له ، لم يشاءوا يتركوه يتفرغ لعملية البناء ، فصمموا على مداهمته والقضاء على دولته مجتمعين فى مواجهتهم له بعد أن كانوا يواجهونه فرادى . وقد اختمرت فكرة تأليب العرب على محمد فى نفوس اليهود وزعمائهم من بنى النضير الذين التجأوا إلى خيبر بعد إجلائهم عن المدينة ، وأرادوا لها أن تكون الضربة الأخيرة والقاضية لمحمد ، وفى سبيل ذلك ادخروا كل جهدهم من حيلة ومكر ومال وسلاح . وتنفيذاً لهذا المخطط خرج حُيى بن أخطب النضرى وسلام بن أبى الحقيق وأخوه كنانة ومعهم جماعة من يهود خيبر ، حتى قدموا على قريش مكة . وقد بدأوا بقريش لأنها هى التى تحمل لواء المعارضة الأكبر ضد محمد وضد الإسلام وهى المستفيدة الكبرى من أى نهاية أو هزيمة تحيق بمحمد وبدولة الإسلام الناشئة وأرادت قريش أن تستوثق من خطة اليهود لحرب محمد ، فسألتهم عن موقف قومهم من بنى النضير ، فأخبروهم بأنهم على أهبة الاستعداد فى أى وقت لقتال محمد . وسألهم عن أقرانهم من بنى قريظة – الذين كانوا لم يزالوا بداخل المدينة – فأخبروهم بأنهم سوف يميلون معهم إذا هم هاجموا المدينة . فاتفقت معهم قريش على الخروج بعد عدة أشهر يتجهزون فيها للحرب . وخرج أولئك المتآمرون من اليهود من عند قريش إلى باقى قبائل العرب ليتموا جولة التحريض على محمد ، فذهبوا إلى غطفان وبنى مرة وفزارة وأشجع وسليم وبنى سعد وبنى أسد ، وكل من له ثأر عند المسلمين ، فأخذوا الموافقة منهم على الانضمام للأحزاب التى أعدت لحرب محمد . وفى السنة الخامسة للهجرة ولمّا جاء الموعد المحدد للخروج ، خرج جيش الأحزاب لمهاجمة المدينة فى عشرة آلاف مقاتل وستمائة فارس بقيادة أبى سفيان بن حرب . ولما علم الرسول بهذا الغزو قام بحفر خندق حول المدينة ، من النواحى التى يمكن للعدو أن يأتيها منها ، وهى

الناحية الشمالية الغربية – السهلة الاختراق وغير المحصنة ، وكان حفر الخندق فكرة سلمان الفارسى ، وهو أسلوب فى القتال كان متبعاً عند الفرس . ولذلك عُرفت هذه الغزوة بسبب هذا الخندق بغزوة الخندق ، كما عُرفت أيضاً بغزوة الأحزاب لكثرة الأحزاب التى شاركت فيها ضد المسلمين . هذا ولم يشمل الخندق الناحية التى كان يهود بنى قريظة يحتلونها من أرض المدينة اعتماداً على حصونهم بها وتعهد اليهود بالدفاع عن ناحيتهم فى اتفاق الصحيفة . وقد خرج الرسول فى ثلاثة آلاف من المسلمين عند مدخل المدينة وجعل جبل سلع وراءه وجعل الخندق بينه وبين أعدائه . وحاولت قوات الأحزاب عبور الخندق للوصول لقوات المسلمين دون جدوى ، فقد كانت سهام المقاتلين المسلمين تعمل على ردهم إلى حيث وقفوا عاجزين أمام الخندق فى جو شتوى بارد .

ولما فشلت القوات الغازية فى اقتحام وعبور الخندق لجأت قريش أن تدخل المدينة عن طريق يهود بنى قريظة إذا هم فتحوا ثغرة للوصول منها من جانبهم ونقضوا بذلك اتفاق الصحيفة . وبالفعل جرت الاتصالات بين رجالات قريش وزعماء يهود بنى النضير وأقرانهم زعماء يهود بنى قريظة لتنفيذ هذا التآمر ، ووافق زعماء بنى قريظة – بعد تردد – على خيانة عهدهم للرسول بعد أن منتهم قريش بالأمانى إذا ما هم انتصروا على محمد وأزالوا دولته . وبذلك تعرض المسلمون للخطر وزلزلوا زلزالاً شديداً ، ﴿ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ . وقد رأى الرسول ضرورة تفكيك وحدة الأحزاب والتفريق بين بنى قريظة وقريش وإدخال الشك فى أنفسهم من بعضهم واستخدام الحيلة فى ذلك حتى لا يتم مخطط التآمر الذى تم بينهم .

فأرسل الرسول نعيم بن مسعود ، وكان قد أسلم حديثاً ولم يعلم الناس

بإسلامه ، وكان داهية ذكياً ، كما كان مقرباً من قريش وحليفاً لبنى قريظة ومحل ثقة الطرفين . فذهب نعيم أولاً إلى بنى قريظة وأفهمهم ألا يقاتلوا مع قريش إلا بعد أخذ رهائن من أشرافهم حتى لا يغدروا بهم . ثم ذهب إلى قريش فأخبرهم أن بنى قريظة سوف يطلبون رهائن من أشرافهم تكون فى يدهم وسوف يقدمونهم لمحمد ويصطلحوا معه مقابل أن يعيد محمد بنى النضير إلى المدينة . وانطلت الخدعة على الطرفين فتنابذا ونقضا عهدهما وواصلت قريش حصارها للمدينة فى جو قارس البرودة مدة ثلاثين يوماً ، وفى ليلة شديدة البرد أرسل الله عليهم ريحاً شديدة حطمت كل شيء وأطاحت بخيامهم ومتاعهم ، فظنوا مع شدة الظلام أن جيش محمد هاجمهم فولوا هاربين عائدين إلى مكة وهم يجرون أذيال الخيبة ويتجرعون كؤوس الهزيمة . ولقد أورد الله ما حدث فى هذه المعركة فى سورة الأحزاب آيات ، منها قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾ .

ولم يخلع النبى ولا الجيش سلاحه بعد فرار الأحزاب ، بل نادى فى المسلمين بحرب يهود بنى قريظة الذين أدينوا بتهمة الخيانة وقت الحرب وتعريض دولة الإسلام فى المدينة لخطر الإبادة من قبل أعدائها . فاندفع المسلمون إلى محلة بنى قريظة وحاصروها ليوقعوا باليهود جزاء غدرهم وخيانتهم . واعتصم بنو قريظة بحصونهم ، واستمر الحصار خمساً وعشرين ليلة ، فلما أجهدهم الحصار وأدركوا عدم جدوى الاستمرار فى بقائهم محصورين ، طلبوا الصلح من الرسول على نفس شروط صلحه مع بنى النضير ؛ أى أن يخرجوا بنسائهم وذراريهم وأموالهم ومتاعهم خارج المدينة ، لكن الرسول رفض طلبهم . وبعد ذلك عرضوا على الرسول أن يحكم فيهم حليفهم سعد بن معاذ وأنهم سيرضون بما يحكم

به ، وقد وافقهم الرسول على ذلك . وكان سعد بن معاذ قد جُرح جرحاً خطيراً أثناء حصار المدينة فى غزوة الخندق من جراء سهم أصاب ساقه . وأخذ سعد العهد بأن يأخذ الطرفان بحكمه ، ثم أمر اليهود بإلقاء سلاحهم والنزول من حصونهم ، ففعلوا ، ثم أصدر حكمه بقتل المقاتلين من رجال اليهود وسبى الذرارى والنساء وتقسيم الأموال . وسيق اليهود إلى سوق المدينة فقتل هناك ستمائة يهودى ، ودفنوا هناك فى خنادق حفرت لهم . وهنالك رواية تقول أن عدد القتلى من اليهود تراوح ما بين الستمائة والثمانمائة رجل ، وأنه لم يُقتل من النساء سوى امرأة واحدة ثبت تورطها فى جريمة قتل . وتباكى المستشرقون على قتلى يهود بنى قريظة وذرفوا دموع التماسيح عليهم ، مع أن النبى لم يحكم عليهم بالقتل ، ولكن حليفهم – سعد بن معاذ – الذى اختاروه حكماً هو الذى حكم بذلك . كذلك كان القتل نتيجة الخيانة وقت الحرب التى وقعت من جانب اليهود ضد المسلمين ، وحكم الخيانة فى الحرب فى كل العالم وعلى طول التاريخ يجابه بالقتل . ولقد اعترف المستشرقون بخطورة ما قام به بنو قريظة ، ومن أنهم كانوا محاربين مشاركين بالفعل ضد المسلمين مشاركة كاملة . وتقع تبعة دم اليهود على حيى بن أخطب وعليهم معه ، لمتابعتهم له ، فى نقض العهد وارتكابهم الخيانة العظمى وقت الحرب التى عقوبتها الطبيعية هى القتل .

وبالخلاص من يهود بنى قريظة كانت نهاية القبائل اليهودية بالمدينة وتحققت الوحدة الحقيقية للمسلمين ، وانتهت كل المشكلات الداخلية بالمدينة فاطمأن الرسول على جبهته الداخلية اطمئناناً يعطيه كل الحركة للتوجه لمجال العمل الخارجى . كما كان لانتصار المسلمين فى غزوة الأحزاب أثره فى تتابع دخول قبائل الحجاز فى الإسلام ، ونستطيع القول من أن هذه الغزوة الحاسمة كانت

بمثابة مفترق طرق بين مرحلة الدفاع التى مرت بها دولة الإسلام عن وجودها ومرحلة الهجوم على قريش فى عقر دارها .

وهكذا نجد أنه بعد الهجرة بخمس سنوات فقط تصير جماعة الإسلام فى المدينة دولة معترف بها من كل جيرانها بعد أن أيد الله نبيه بنصره ، وصار محمد رئيس هذه الأمة وهاديها وقائدها وراعيها وصاحب الكلمة العليا فيها . وقد نمت جماعة الإسلام بالتدريج دينياً وسياسياً وصار لها جيش مستقل وموارد مالية ووضع الرسول اللبنات الأولى لهذه الدولة الإسلامية ، التى ستصبح فى عهد الأمويين من أكبر دول العالم وأكثرها حضارة ومدنية . وكان رسول الله يدرك أن بناء الدولة واستمرارها جزء من مهمته كنبى ورسول ، وكان يؤمن أيضاً أن بناء الدول مهمة من مهام الأنبياء والرسل . والإسلام ، باعتباره آخر رسالات السماء إلى الأرض وخلاصة شرائع الله والناسخة لما قبلها والمهيمنة عليها ، لا يمكن أن يحقق ذاته إلا بإرساء قواعد الدولة التى تحقق أهداف هذا الدين الخاتم وترسم للناس طريق حياتهم ومعاملاتهم فى الدنيا وطريق النجاة لآخرتهم . لذلك لم يغفل الإسلام حاجة المسلمين إلى تكوين دولة تنظم سلوكهم لأن المجتمع البشرى – بطبيعة تكوينه – فى حاجة إلى دولة أو دول تنظم سلوكه وأسلوب حياته . ولقد ورد فى القرآن الكريم أمر حكم دولة الإسلام ستاً وسبعين مرة ، وقد أشارت الآيات التى نزلت بصددها بوضوح إلى أن للإسلام دولته التى تحكم بما أنزل الله والتى تجعل العمل شرعة لها ومنهاجاً . وقد بينت تلك الآيات أن للإسلام دوراً ، مع دوره فى هداية الناس إلى الدين الحق والعبادة الصادقة ، وهو دور الحكم وقيام حاكم على المسلمين يسوسهم ويقودهم إلى ما يصلحهم وينظم حياتهم من خلال دولة يجب أن تقوم لتبقى ما بقى فى الدنيا إسلام . ودستور هذه الدولة هو كل ما ورد فى كتاب الله

وما تقرر فى سنة رسوله وما أجمع عليه أهل الرأى والعلم فيما لم يرد فى كتاب أو سنة .

ولقد وضع الرسول الأسس للدولة الجديدة فى السياسة والاقتصاد والاجتماع بما نزل عليه من قرآن وما اجتهد فيه برأيه وما استشار فيه أصحابه ، وواجه ، وهو القائد الأعلى ، مع جماعة فى الدولة الجديدة كل المشاكل التى تقابل بناة الدول وأوجدوا لها حلولاً علــى أساس العدل والحرية والإخـاء والمساواة . ولم يقتصر الرسول دولته على جزيرة العرب ، بل أرادها أن تسع العالم كله وأن توحده تحت راية التوحيد . لذلك نراه ، بعد قليل ، يرسل إلى ملوك العالم وحكامها آنذاك ، يدعوهم إلى الدخول فى الإسلام ، وقد أعلن بذلك عالمية دولة الإسلام . وحين وقف حكام هذه الدول حائلاً بين شعوبهم والإسلام قرر الجهاد والفتح لإزالة هذا العائق ووضع الشعوب أمام الدين ليختاروا بينه والنور الذى يحمله وبين ضلال العبادة الوثنية التى عاشوا فى ظلماتها يتخبطون قروناً طويلة .

ولم ينفرد محمد فى الدولة الجديدة برأيه فى الحكم ، بل اتخذ له مستشارين من صحابته فى إدارة شئونها فيما لم ينزل فيه قرآن . وقد كان يأخذ برأيهم ولا يقض فى أمر دون أن يطلعهم عليه . وكان كل من أبى بكر وعمر وعثمان وعلــى هم أقرب المستشارين إليه . وكان الرسول ، بحكم رئاسته للدولة ، هو الذى يقرر الحرب والسلم ، وهو الذى يختار قواده للمعارك ، أو يكون هو القائد للحملات بنفسه . وقد عرفنا رسول الله قائداً حربياً ماهراً ، كما عرفناه . سياسياً قديراً ، فضلاً عن دوره هادياً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . وكان الرسول يولى على المدينة من ينوب عنه فى حالة غيابه ،

وخاصة عند خروجه للقتال ، وكان يختار هؤلاء الولاة ممن شُهد لهم بالحزم والعزم والفهم للدين والسداد فى الرأى .

ولم يكن قد تقرر فى هذه الدولة الناشئة بيت مال عام لبساطة موارد الدولة آنذاك ، ولأن الرسول كان يوزع ما يحصل عليه من فىء وغنيمة وزكاة وخراج على مستحقيها فى حينه ، ولم يكن هنالك فائض يوجد بيت مال من أجل أن يوضع فيه . وكان على كل فرد فى الدولة أن يتكسب عيشه كيف يشاء متحرياً فى ذلك الحلال ومتجنباً ما نهى الله عنه من حرام . وقد أباح دستور هذه الدولة للناس التمتع بالطيبات من الرزق ولم يمنع الغنى أو جمع الثروة عن طريق الحلال . وفى نفس الوقت طالب أفراد الجماعة الإسلامية بالتكافل فيما بينهم ، بأن يساعد الغنى الفقير وأن يعطى ذو السعة المحتاج وصاحب الفاقة . وقد فرض الله الزكاة على المسلمين فى المال والزرع والسائمة والتجارة ووضع مقاديرها . كذلك حبب الله المسلمين فى الصدقة والإنفاق فى وجه الخير وفى سبيل الله . وفُرضت الجزية على أهل الكتاب مقابل فرض الزكاة على المسلمين . وفُرض الخراج على الأرض التى تُفتح عنوة ، كذلك كان الفىء والغنيمة من موارد الدولة الإسلامية .

كذلك ضمن التشريع الإسلامى حقوق الناس ، كما أقر عليهم الواجبات فضمن للناس الأمن والأمان فى أموالهم وأعراضهم ووضع العقوبات التى تقابل الجريمة وبينّ حدودها . كذلك نظّم الحياة الأسرية فيما يتصل بالزواج والطلاق وحقوق الزوجية . وحفظ للمرأة حقوقها وجعل الميراث من حقها بعد طول حرمان منه ، كذلك نظم التشريع الميراث تنظيماً دقيقاً ، وحدد كيفية معاملة الرقيق والموالى . ونظم التشريع الإسلامى المعاملات المالية وحرم الربا والاحتكار

والسمسرة وكل ما فيه استغلال للإنسان . كذلك حرم الخمر والميسر والزنا والموبقات أيًا كان نوعها ، وغير ذلك من القوانين التى تنظم للإنسان المسلم حياته الدنيا وتضمن له السعادة فى الآخرة . على هذا الأساس القويم قامت دولة الإسلام وارتفع بنيانها وازداد علواً مع مرور الأيام بعد أن كفلت حرية الفرد ورعت حماية الجماعة المسلمة وضمنت لها الأمن والأمان ورسمت لها طريق الخير دون طريق الشر . ولم تكن هذه التشريعات التى وضعت فى أول دولة الإسلام إلا النواة للتشريعات الكبرى التى أفرزتها جماعة الإسلام بعد أن كبرت دولتها وأصبحت دولة كبيرة تمتد من حدود الصين شرقًا إلى حدود الأطلنطى غربًا ، وصارت فى القرن الثانى الهجرى مركز إشعاع لحضارة زاهرة أشرق نورها على عالم العصور الوسطى المظلم كله .

وفى السنة السادسة للهجرة رأى الرسول ، بعد أن أعز الله الإسلام والمسلمين بإحراز هذه الانتصارات المتتالية علـى قريش ومن حالفها من القبائل وعلى اليهود ، أن يظهـر قوته للجزيرة العربيـة كلها ، وأن يجرد قريشًا – فى نفس الوقت – من أهم حججها فى محاربته ومحاربة دعوته ، وهى زعمها أن محمداً لا يعظم البيت الحرام ولا يدعو الناس للذهـاب إليه والطواف حوله . فخـرج فـى ذى القعدة من هذا العام ، على رأس ما يقرب من ألف وأربعمائة من المسلمين ، وليس معهم إلا السيوف فى أغمادها ، قاصدين مكة لأداء العمرة . وكان الرسول يدرك فـى قرارة نفسه ، أن قريشًا لن تسمح له بدخول مكة لأداء العمرة ، ولذلك قصد بخطته هذه أن يحقق هدفين فى وقت واحد ، الأول : هو أن يظهر قريشًا بمظهر المانع للناس من زيارة البيت ، وهى التى تدعى أنها الحامية للبيت ، والثانى : أن الإسلام قد حفظ للبيت الحرام قداسته وحرمته فى ظل العقيدة الجديدة على خلاف ما كانت تدعيه قريش عن هذا الدين الجديد

وعن معتنقيه . وكان الرسول يدرك حرج موقف قريش ؛ فهى لا تستطيع منعه مـن زيارة البيت فتفقد بذلك سـمعتها أمام قبائل العرب ، كمـا أنها لا تستطيـع منعه بالقوة بسبب ضعفها وفقدان قوتها وسمعتها العسكرية بعد معركة الأحزاب .

ولما بلغت قريشاً أنباء مسيرة محمد ومن معه إليهم حاجين ، أرسلت قوة استطلاعية من رجالها قوامها مائتى رجل بقيادة خالد بن الوليد – الذى لم يكن قد أسلم بعد – ليستطلعوا ما وراء زيارة محمد . ووصلت هذه القوة إلى موضع يقال له الحديبية ، على بعد تسعة أميال من مكة ، فوجدوا محمداً يعسكر هناك بقواته ، وقد أطلق فدوه فى الوادى . وكان الرسول قد سمح لعثمان بن عفان ومعه عشرة من المسلمين بزيارة أهاليهم فى مكة ، كذلك لمفاوضة قريش بشأن موضوع العمرة . ولما لم يعد عثمان ومن معه من مكة بعد ثلاثة أيام من ارتحالهم إليها ، سرت إشاعة بين المسلمين أن قريشاً قد قتلتهم . عند ذلك التف المسلمون حول رسول الله ، تحت شجرة الحديبية – يبايعونه على الحرب ، وهى البيعة التى عُرفت ببيعة الرضوان ، ونزل بصددها قوله تعالى فى سورة الفتح ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ . ولما تبين كذب إشاعة مقتل عثمان وصحبه بعودتهم للحديبية ، رحب الرسول بالتفاوض مع قريش حين أرسلت « سهيل بن عمرو » مفوضاً من قبلها للاتفاق مع الرسول على حل يرضى الطرفين . وقد انتهت المفاوضات بالنجاح ، وتوصل الطرفان إلى ما عُرف بصلح الحديبية ، الذى كانت أهم شروطه : أن يرجع محمد وصحبه فى عامهم هذا عن مكة دون أداء العمرة ، على أن يعودوا إليها فى العام القابل فتخلى قريش مكة لهم يطوفون بالبيت ويؤدون مناسكهم . وأن

تُعقد هـدنة بين الطرفين مدتها عشر سنوات ، يأمن فيها كل من الطرفين صاحبه . وأنه من أراد من القبائل أن يدخل فى حلف محمد دخل ومن أراد أن يدخل فى حلف قريش دخل . وأنه من جاء إلى محمد من أهل مكة دون إذن وليه رده إليهم ، ومن جاء من أصحاب محمد إليهم لا يردوه إليه .

لقد كان كلا الطرفين فى حاجة إلى هذه الهدنة ، فقريش تحتاجها لإنعاش تجارتها ، عماد اقتصادها ، التى أضرت الحرب بها ، كذلك احتاجها الرسول ليعزل قريش عن بقية القبائل العربية ويسعى لنشر دعوته بينها وإدخالهم فى الإسلام دون أن تتخوف هذه القبائل من عقاب توقعه قريش بها . ولقد اعترض بعض المسلمين ، ومن بينهم عمر بن الخطاب ، على بعض بنود الصلح وبخاصة البندين الأول والرابع منها . لكن الرسول لم يرض ، بصدد البند الأول ، إلا أن يحفظ ماء وجه قريش ، وقد ضحى بقبوله تضحية بسيطة ، لكنه فى المقابل اكتسب بموجبه اعترافاً رسمياً من قريش بدولته وبحقه وحق أتباعه فى الحج إلى مكة . أما بخصوص البند الرابع فإن الرسول كان يؤمن بأن من دخل فى الإسلام وذاق حلاوته سوف لا يرتد عنه أبداً مهما كانت عليه من ضغوط .

وأمر الرسول ، بعد توقيع الصلح ، أتباعه بنحر الهدى فى الحديبية والتحلل من الإحرام والعودة إلى المدينة ، بعد أن حقق نصراً كبيراً على قريش دون قتال . وفى الطريق إلى المدينة أنزل الله تعالى قرآنه ما يؤكد هذا النصر الذى أحرزه الرسول بقوله تعالى فى سورة الفتح : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ . وقد تحقق للرسول ما كان ينشده من عقد هدنة الحديبية ، فقد

تفرغ لنشر الإسلام بين القبائل العربية ولمحاربة بقايا تجمع اليهود فى خيبر . وشهد العام السابع للهجرة تحولاً كبيراً فى تاريخ الدعوة المحمدية التى أخذت تنتشر بين قبائل العرب ، فاعتنقت خزاعة الإسلام . بل إن قريشاً نفسها بدأت تراجع حينذاك حساباتها وتعاملاتها مع محمد وتخفف من معارضتها لدعوته . بل أخذت تنظر إليه بعين الإكبار ، على اعتبار أنه ابن من أبنائها ، وتشكك فى إمكانية النصر عليه ، وخاصة حين أنزل الله تشريع الحج فى هذا العام ، وهو تشريع حفظ للبيت مكانته وللكعبة حرمتها ، فتأكد كثيرون من رجالات قريش من صدق هذه الدعوة الجديدة بصدد حفظ حرمة البيت وقدسيته وفرض الذهاب إليه مرة فى العمر على المقتدر وجعله أحد أركانه الخمسة . وقد رأت قريش أن الإسلام بذلك قد حفظ لقريش مكانتها الروحية التى كانت تخشى عليها أن تضيع بين قبائل العرب . ولقد ظهر أثر ذلك التحول فى إسلام بعض كبار رجالات قريش من أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة فى ذلك العام .

ولقد احترم الرسول ما عاهد قريش عليه فى صلح الحديبية ، فرد إليهم من جاءه مسلماً من الرجال بغير إذن وليه ، لكنه لم يرد إليهم النسوة المسلمات المهاجرات إليه ، وذلك تطبيقاً لأمر الله بما نزل عليه فى سورة الممتحنة بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءتكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾ .

كما احترمت قريش تعهدها للمسلمين بأداء العمرة فى العام السابع من الهجرة ، وهو العام التالى لصلح الحديبية . فخرج الرسول فى شهر ذى القعدة

من ذلك العام ، لأداء العمرة واصطحب معه من المسلمين من خرج معه فى العام الأسبق ، وسمحت لهم قريش بالبقاء فى مكة ثلاثة أيام بعد أن أخلتها لهم وخرجوا إلى شعابهم . وها هى قريش ترى محمداً فى أصحابه كبدر بين النجوم عائداً إلى بلدته المحببة مكة معززاً مكرماً وفى منعة من أصحابه وإخوانه فى الدين بعد غياب عنها دام سبع سنوات ، وبعد أن خرج منها مهاجراً مطارداً فى صحبة أبى بكر ، ها هو اليوم يدخلها متحدياً رافعاً رايته وحوله قرابة الألفين من رجاله كل منهم علـى استعداد أن يفتديه بروحه ودمه . لقد اندهش رجال مكة ونسائها ، وهم ينظرون لموكب المسلمين الزاحف من فوق شعاب جبال مكة ، لما رأوا ، وتساءلوا كيف استطاع محمد اليتيم الطريد أن يحقق كل هذا المجد وأن يجمع حوله كل هؤلاء الرجال ؟ ! ولكنهم ، وهم فى دهشتهم ، كان بداخلهم يمتلىء فخراً وتيهاً بابن بلدتهم الذى حقق ما لم يحققه أحد من رجالهم والذى بعد أن بادءوه بالحرب ، جاءهم رافعاً راية السلام وهو قادر على حربهم .

لقد اغرورقت عينا محمد وهو يدخل البيت وحين أطلت الكعبة عليه ، واستعاد ذكريات الماضى بكل ما فيها من آلام ومعاناة ، فكبر وهلل ، وكبر معه المسلمون ، ودخل الحرم وطاف حول الكعبة سبعاً وسجد شكراً لله الذى حقق له النصر فى ذلك اليوم بعد أحداث سبع سنين طوال . وقضى محمد وصحبه الأيام الثلاثة بمكة وأدوا مناسك عمرتهم وذبحوا هديهم ، واتصل من المهاجرين بأهله من تركهم فى مكة ولم يستطيعوا اللحاق به ، وكان لقاؤهم بالدموع والأحضان . وبعد انقضاء الأيام الثلاثة ، خرج محمد والمسلمون من مكة مودعين الكعبة والبيت والأهل والعشيرة والدرب والحى ليس وداعاً نهائياً ، ولكن ثقة فى العودة والفتح حين يأذن الله تعالى بذلك .

وتحقيقاً لمبدأ تكوين دولة الإسلام العالمية ، ونشر دين الله فى الآفاق أرسل الرسول ، فى السنة السابعة للهجرة ، كتبه إلى ملوك وحكام العالم آنذاك يدعوهم إلى الإسلام ، ويطلب منهم ألا يقفوا حائلاً بينهم وبين شعوبهم دون التعرف على الدين الجديد ودون تفهم حقيقة رسالة التوحيد . فأرسل بكتبه مع رسله إلى قيصر الروم وكسرى فارس ، والمقوقس نائب امبراطور بيزنطة فى حكم مصر وزعيم القبط فيها ، كما أرسل لملوك الغساسنة بالشام والمناذرة بالعراق ولملوك اليمن وعمان والخليج . وقد رد بعضهم على الرسول رداً جميلاً ، بينما قام البعض الآخر بتمزيق الكتب وإيذاء الرسل مثلما فعل كسرى ملك فارس . وأما المقوقس ، فقد أحسن استقبال رسولَ رسولِ الله إليه ورد رداً جميلاً على كتاب الرسول ، وأرسل إلى رسول الله هدية مع حاطب بن أبى بلتعة رسول النبى إليه ، تتضمن جاريتين من أميرات مصر ، وهما مارية القبطية وسيرين كما أرسل بغلةً وعسلاً . وقد كانت مارية ملك يمين للرسول ، وأنجب منها ابنه إبراهيم ، الذى توفى وهو ابن عامين . أما سيرين فقد تزوجها شاعر النبى حسان بن ثابت . ولقد أوحى الرسول ، بمكاتباته هذه لحكام وملوك العالم آنذاك ، بضرورة الفتح وتبليغ رسالة الإسلام للناس كافة وعامة ، لأنها خاتم الرسالات كما هو خاتم الأنبياء والرسل . وهذا ما تم فى عهد خلفائه الراشدين أبى بكر وعمر وعثمان وحكام دولة الأمويين .

وبعد أن أمن الرسول جانب قريش بعقده صلح الحديبية معها ، كان عليه أن يأمن جانب فلول اليهود المنهزمة ، والتى تجمعت شمال المدينة عند خيبر وأخذت تسعى لتأليف جبهة يهودية كبرى تتألف منهم ومن يهود وادى القرى ويهود تيماء لغزو المدينة . وقد قدّر الرسول أن فى إمكان هؤلاء اليهود الاستعانة بقوة خارجية كبرى قد تكون رومية أو فارسية لضرب المسلمين ضربة قاضية ،

فقرر ضرورة القضاء على قوة هؤلاء اليهود والغذاء بهم قبل أن يتعشوا به وبالمسلمين . كذلك كان على محمد أن يسارع فى ذلك قبل أن يتاح لهم من الوقت ما يمكنهم من الاستعانة بعرب غطفان وهى القبيلة العربية الكبرى التى لا زالت آنذاك معادية لمحمد . ولقد تأكد للرسول من أن اليهود المجتمعين فى خيبر ، والتى لا تبعد عن المدينة إلا بمسيرة ثلاثة أيام ، يجهزون قواتهم لمحاربته أخذاً بثأر إخوتهم يهود بنى قريظة . وقد كانت هذه الجموع اليهودية فى خيبر من أقوى الطوائف اليهودية بأساً وأوفرها مالاً وأكثرها سلاحاً وأعظمها تدريباً على القتال . وكانت خيبر تنقسم إلى ثلاث مناطق حربية : منطقة الكتيبة ومنطقة الشق ومنطقة نطاة ، وهى جميعها مناطق حصون ، وهى حصون : الوطيح والسلالم ، وناعم ، ونطاة ، والقموص ، والشق ، والكتيبة . ولقد قام يهود خيبر ، حين علموا بقصد محمد لهم ، بإدخال أموالهم وعيالهم حصنى الوطيح والسلالم ، وأن يجمعوا ذخائرهم فى حصن ناعم ، وأن تتجمع المقاتلة فى حصن نطاة أقوى هذه الحصون . ولقد توجه الرسول ، بعد شهر من إقامته فى المدينة بعد صلح الحديبية إلى خيبر فى نحو ألف وستمائة من رجاله ومعهم مائة فارس ، وقد شارك فى هذه الغزوة كل من أبى بكر وعمر وعلى . وقد باغت الرسول اليهود بغزوه فلم يشعروا إلا والمسلمون يبيتون أمام حصونهم ، ووقعت الحرب بين الطرفين ، واستبسل اليهود فى القتال لعلمهم أن هذه هى آخر مواقعهم وأن الهزيمة لهم تعنى نفس نهاية إخوتهم من بنى قريظة . لكن بسالة المسلمين جعلت اليهود ينهزمون عند حصن نطاة ، ويتقهقرون إلى حصن ناعم . ثم نجح المسلمون بقيادة على بن أبى طالب بفتح هذا الحصن . وبعد ذلك افتتح المسلمون حصن القموص بعد قتال شديد واستماتة فى القتال من الجانبين . عند ذلك سلمت باقى الحصون صلحاً على أن يحقن النبى دماءهم ، فوافقهم النبى على

ذلك ، وسقطت خيبر جميعها فى يد المسلمين ووقع كثير من السبى منهم غنيمة فى أيديهم . ولم يعامل النبى يهود خيبر بمثل ما عومل به يهود بنى قريظة ، فقد أبقاهم على أرضهم على أن يأخذ منهم خراجها وهو نصف ما تغله هذه الأرض قل أم كثر ، على أن يبقوا عليها ويستمروا فى زراعتها . وقد جاء هذا التصرف من قبل الرسول لحاجته لخبرة يهود خيبر الزراعية فى أرضهم ، وقد كانت من أخصب مناطق شبه الجزيرة فى الزراعة . كذلك صالح الرسول يهود فدَك ويهود وادى القرى ، على نفس ما صالح عليه يهود خيبر ، أما يهود تيماء فصالحهم على أن يدفعوا الجزية . ولقد وقعت صفية بنت حُيى بن أخطب ، أرملة الزعيم اليهودى كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق الذى قتله النبى بعد خيبر بسبب تآمره وخيانته ، فى يد المسلمين ضمن الغنائم فاصطفاها رسول الله لنفسه وأعتقها وأسلمت وتزوجها فصارت من أمهات المؤمنين . وبذلك دالت دولة اليهود كلها وخضعت لسلطان الدولة الإسلامية وانتهى خطر اليهود فى شبه الجزيرة العربية .

وبعد فتح خيبر اتجه الرسول بنظره نحو شمال شبه الجزيرة ، وقد كان يرى أن هذه الجهة هى المنفذ الطبيعى لانتشار دعوة الإسلام إذا ما أريد خروجها عن حدود الجزيرة العربية . وقد رأى ضرورة ضم بقايا دولة عرب الغساسنة المتبقية هناك لدولته وفك حلفهم مع الروم وتبليغهم رسالة الإسلام . فجهز الرسول حملة تألفت من ثلاثة آلاف مقاتل جعل قيادتها لزيد بن حارثة بمشاركة عدد من كبار الصحابة من أمثال جعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة الأنصارى وخالد بن الوليد . وسارت الحملة فى السنة الثامنة للهجرة ، إلى غايتها عند حدود الشام . ورغم سرية أمر الحملة ، إلا أن أخبارها وصلت لهرقل ملك الروم ، فاستعد للقاء هذا الجيش العربى الصغير بجيش جرار كبير بلغ عدده مائة

ألف من الجنود المسلحين تسليحاً كاملاً ، وقد قاد هذا الجيش بنفسه ، ونزل به أرض البلقاء بالشام (شرقى الأردن) فى انتظار مقدم الجيش العربى . والتقت القوتان غير المتكافئتان عند قرية مؤتة على تخوم البلقاء ، وهنالك وقعت معركة سريعة أبدى المقاتلون المسلمون فيها شجاعة فائقة رغم التفاوت فى العدد والخبرة والتسليح . ولقد استشهد كل من زيد وجعفر وابن رواحة فى المعركة ، وكانوا قد حملوا راية الجيش بالتناوب فحملها بعدهم خالد بن الوليد ، الذى نجح فى الانسحاب بالجيش دون خسائر كبيرة بعد أن قام بتعديل صفوف جيشه ليظهر للعدو أن مدداً جديداً قد وصل إليه ففت ذلك فى عضد عدوه . وقد عاد خالد بمعظم الجيش سالماً إلى المدينة ، وأطلق رسول الله على خالد حينئذ لقب : سيف الله المسلول.

وبعد غزوة مؤتة ، نقضت قريش عهد الحديبية مع رسول الله ، إذ قامت بإمداد قبائل بنى بكر بن وائل ، حلفائها ، بالسلاح والرجال فى الحرب التى وقعت بينها وبين قبيلة خزاعة ، التى كانت قد دخلت فى يوم الحديبية فى حلف مع الرسول . وعند ذلك ارتأى الرسول أن ما قامت به قريش من نقض للعهد لا مقابل له إلا فتح مكة . عندئذ أمر الرسول رجاله بالتجهز للقتال دون أن يخبرهم بمكان غزوه حتى لا يتسرب خبر الغزوة إلى قريش . وأدرك رجال الملأ فى قريش خطورة الموقف ، وخافوا من حرب محمد لهم بعد أن نقضوا معه عهد الحديبية ، فأوفدوا زعيمهم وحكيمهم أبا سفيان إلى المدينة لمقابلة الرسول وإصلاح الأمر وتثبيت العهد والعقد . وتوجه أبو سفيان – أول ما توجه – إلى بيت ابنته أم حبيبة – زوج الرسول – فلم تستقبله ابنته بالاستقبال اللائق بابنة لأبيها . فتوجه أبو سفيان إلى الرسول حيث كان طلب منه تجديد صلح الحديبية ومد أجله . لكن الرسول لم يستجب إلى طلب أبى سفيان فيعود إلى مكة ليعلن لقومه فشل سفارته ، وينذرهم بغزو محمد لهم . وخرج الرسول فى السنة الثامنة

من الهجرة ، على رأس جيش بلغ عدده عشرة آلاف جندى من بينهم ألفى فارس لفتح مكة . ولم يكن فتح مكة غزواً بمعنى الغزو بقدر ما كان استسلاماً لمحمد من جانب قريش ، ذلك لأن قريشاً رأت لا مفر من الاستسلام الذى يحفظ لها كرامتها . وقد تمثل ذلك فى خروج بعض كبار رجالات قريش لملاقاة الرسول قبل دخوله مكة يعلنون له دخولهم فى الإسلام ، وكان على رأس هؤلاء : أبو سفيان بن حرب ، والعباس بن عبد المطلب ، عم النبى ، وحكيم إبن حزام ، وبديل بن ورقاء . ولقد أعطى الرسول الأمان لمن يدخل دار أبى سفيان تكريماً له ورفعاً لمكانته ، كما أعطى الأمان لمن أغلق عليه باب داره أو لاذ بالبيت الحرام . وقد لقى هذا الأمان قبولاً لدى قريش وراحة لنفوسهم ، فلما دعاهم أبو سفيان إلى الإسلام أقبلوا ، وفى مقدمتهم أشرافها ، على الرسول مسلمين . هـذا ولم تقع أية معارك كبيرة أثناء فتح مكة بين المسلمين والقرشيين ، سوى بعض مناوشات قليلة بين فريق من قريش وأحابيشهم وجيش خالد بن الوليد الذى دخل مكة من أسفلها . وقد قام بهذه المناوشات وقادها من جانب قريش : عكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو . وقد تفرقت قواتهم منهزمة بعد مناوشات بسيطة يائسة . وكان رسول الله قد حرص على أن يفتح مكة دون إراقة نقطة دم واحدة . وهكذا استطاع الرسول أن يكسب أكبر معركة فى تاريخ الدعوة الإسلامية بغير حرب ودون إراقة دماء .

ودخل الرسول مكة ، راكباً ناقته القصواء ، يلتف حوله جند المسلمين رافعين راية التوحيد . وقد كان هذا اليوم من الأيام الخالدة فى حياة محمد وحياة دولة الإسلام . ها هو محمد يعود اليوم إلى بلده ومسقط رأسه رافع الرأس مؤيداً بنصر الله بعد ثمان سنوات من الغربة والوحشة والصراع والتخاصم والحرب مع قومه وعشيرته الذين تنكروا له لا لشيء إلا لأنه دعاهم إلى ما يصلح دينهم

ودنياهم ، وكان لهم كالنذير . كان يشفق عليهم عنادهم وكبرهم وصلفهم ويدعو لهم ربه بقوله : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » . ها هو اليوم ينحنى شكراً لله علـى ناقته وهو يطوف ورجاله حول الكعبة سبعة أشواط مكبرين مهللين . وها هو يحطم بعصا فى يده أصنام وأوثان قريش التى أحاطت بالكعبة دون أن تدافع عن نفسها ودون أن يدافع عنها الذين سجدوا لها طويلاً وهم يرون أن لا حول اليوم لها ولا طول . ها هو محمد يعلن ، وهو فى موقف القوى المنتصر ، العفو عن قريش حين سألهم عن ظنهم ماذا هو فاعل بهم ، فقالوا : خيراً ، فقال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . وها هو محمد يعلن ، فى اليوم التالى لدخوله مكة حرمتها وقداستها كحرمة المدينة وقداستها .

وكان لفتح مكة صدى بعيد الأثر فى جزيرة العرب ، كما كانت له نتائج بعيدة المدى من الناحيتين الدينية والسياسية على حد سواء . فمن الناحية الدينية فإن محمداً بتحطيمه أصنام الكعبة وأوثانها ، قضى على الوثنية فى معقلها الأكبر قضاءً رسمياً . وقد أمر أتباعه أن يحطموا كل بيوت الأصنام والأوثان فى كل شبه الجزيرة ، فأعلن بذلك للقبائل العربية جميعها نهاية عهد الوثنية . أما النتائج السياسية ، فتمثلت فـى تعهد قبائل العرب الوفاق والوئام والسلام مـع دولة محمد . ولذلك أرسلت القبائل المختلفة ، فى الأعوام التالية للفتح ، رسلها إلى المدينة لتعقد عهداً بالسلام مع محمد ، حتى أنه لم تبق قبيلة إلا وأرسلت للنبى وفداً ليعقد عهدها معه . كذلك فإن الرسول ، بعد أن سيطرت دولته على الحجاز ، تطلع إلى فرض سيطرة هذه الدولة على شبه الجزيرة كلها ، وبذلك تخرج الدولة الإسلامية من نطاق المدينة الدولة إلى نظام الدول الكبيرة الموحدة بعد أن أصبح هدف النبى فى توحيد أمة العرب أمراً محققاً .

ومن النتائج السياسية القريبة لفتح مكة ، تحرك أهل الطائف ، توأم مكة ، من ثقيف وهوازن لتسلم لواء السيادة على الحجاز بعد أن انتزعه المسلمون من مكة . وقد رأت الطائف أن فتح مكة ضربة موجهة لها وأن الدور عليها بات قريباً . ومن أجل ذلك تجمعت ثقيف وهوازن لمحاربة المسلمين تحت قيادة زعيم بنى نصر من هوازن مالك بن عوف . وقد حدث هذا التجمع بعد فتح مكة بحوالى أسبوعين . فخرجت جموع القبيلتين تريد مكة ، وقد حشد مالك النساء والأطفال خلف الرجال حتى يجبر رجاله على الصمود ويضمن عدم فرارهم إذا ما اشتد عليهم القتال . ونزلت هذه القوات الغازية عند حنين ، على بعد ثلاثة أميال من مكة طريق الطائف . وخرج الرسول على رأس عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار ، الذين فتح الله بهم مكة ، غير ألفين انضموا إليهم من أهل مكة ، ووصلوا إلى حنين . وهنالك كمنت قوات ثقيف وهوازن لقوات المسلمين وأخذتهم على غرة ؛ ففزع المسلمون واضطربت صفوفهم ولم تغن عنهم كثرة عددهم التى اغتروا بها عند الخروج للعدو ، فولى الكثير منهم فى ميدان حنين منهزمين . لكن رسول الله ثبت فى الميدان ، ثبوت الجندى الشجاع ، ونادى فى الناس قائلاً : « أين أيها الناس ؟ هلموا إلىّ ، أنا الرسول لا كذب أنا ابن عبد المطلب » . ولم يبق حول الرسول إلا قلة من المهاجرين والأنصار وعلى رأسهم العباس بن عبد المطلب ، الذى كان ممسكاً ببغلة الرسول . وأمر الرسول العباس أن ينادى فى الناس ، وكان جهورى الصوت ، فنادى « يا معشر الأنصار ، يا أصحاب الشجرة » فأجابوه : « لبيك .. لبيك » . وأفاق المسلمون من هول المفاجأة ، وعاد إليهم صوابهم وعادت إليهم شجاعتهم ، فسارعوا ناحية الرسول للدفاع عنه ولقتال العدو . فانقلبت هزيمتهم نصراً ، وولت هوازن وثقيف مدبرين أمامهم تاركين أموالهم ونسائهم وذراريهم

غنيمة للمسلمين . وقد هرب مالك بن عوف مع بعض رجاله إلى الطائف ، وهرب آخرون إلى أوطاس ونخلة وتتبعهم المسلمون إلى هناك . ولقد صوّر الله تعالى معركة حنين وحال المسلمين فيها بقوله تعالى فـى آيات من سورة التوبة : ﴿ لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودًا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴾ .

واتجه الرسول بقواته ، بعد النصر فى المعركة ، إلى مدينة الطائف لإسقاطها فى يده ، غير أنها كانت مدينة حصينة وذات أسوار منيعة ، فقام الرسول بحصارها مدة خمس عشرة يومًا ، ثم اضطر لرفع الحصار عنها والانصراف لحلول شهر ذى القعدة ، الشهر الحرام . وفى طريق عودته قدم على الرسول وفد هوازن يعلن إسلام قبيلتهم جميعها ، ويطلب من الرسول أن يرد عليهم نساءهم وذراريهم وأموالهم . فوافقهم الرسول على رد النساء والذرارى ، أما الأموال فكانت قد وُزعت على المؤلفة قلوبهم ولم يكن فى إمكانه استعادتها منهم .

وأما ثقيف ، فقد أصابهم الزهو وتملكهم الغرور لانصراف الرسول عن مدينتهم دون استطاعة فتحها ، فظلت على وثنيتها ، ولكنها ما لبثت أن أدركت عزلتها بعد أن رأت إقبال القبائل على الدخول فى الإسلام . وأيقنت من أنها سوف لا تستطيع بمفردها تحدى دولة الرسول ، لذلك أرسلت وفدًا منها من ست رجال من رجالات ثقيف ، وقدم الوفد على الرسول ، فى شهر رمضان التاسع من الهجرة يعرضون على النبى إسلامهم مقابل شروط اشترطوها ، منها : أن يعفيهم من فرض الصلاة ، وأن يترك لهم معبودهم ، اللات ، وألا يهدم بيتها

إلا بعد مضى ثلاث سنوات . فرفض الرسول شروطهم واشترط عليهم دخول الإسلام دون أية شروط . وفى النهاية وافقوا على ذلك ، وأرسل الرسول معهم أبا سفيان والمغيرة بن شعبة لأخذ المواثيق منهم وجعل عثمان بن أبى العاص أميراً من قبله عليهم ، وكتب لهم كتاباً وعهداً . ولما عاد وفد ثقيف إلى الطائف أقبل أهلها على الدخول فى الإسلام .

هذا .. ولقد أقبلت وفود القبائل العربية تبايع الرسول على الإسلام ، فى العام التاسع للهجرة ، الذى عُرف بعام الوفود . وقد جاءت هذه الوفود من جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية كلها قد دخلت الإسلام وصارت تكون دولة الإسلام العربية الكبرى .

وفى السنة التاسعة للهجرة ، بلغ رسول الله أن الروم قد تجمعوا على حدود فلسطين لقتال المسلمين ومعهم بعض عرب الغساسنة ، فدعا المسلمين إلى الجهاد ليثأروا لهزيمة إخوانهم من الروم فى مؤتة . وأعلن الرسول – لأول مرة – وجهته للقتال ، وكان قبل ذلك يخفيها ، فأعلن أن غزوته ستتجه إلى تبوك ، التى تبعد شمال المدينة مسافة مائتى وخمسين ميلاً ، على حدود دولة الروم . ولعل الرسول قصد من إعلان وجهته أن يبين لأتباعه مدى أهمية هذه الغزوة وكثرة مشاقها وبعد مسافتها وخطر العدو الذى سوف يقاتلونه ، فضلاً عن وقوعها فى فصل الصيف الشديد الحرارة ، فيعدون للأمر عدته . وقد أصاب البلاد فى ذلك الوقت جدب ، لذا عُرف الجيش الذى جُهز لهذه الغزوة بجيش العسرة . وقد بلغ عدد المشاركين فى هذا الجيش ثلاثين ألف مقاتل ، وقد أمر الرسول أغنياء المسلمين أن يجهزوا من المقاتلة من لا طاقة له بالجهاز من دابة أو سلاح . فأنفق الصحابة أموالاً كثيرة فى تجهيز هذا الجيش ، ويكفى أن نعرف أن

عثمان بن عفان قد جهز من ماله الخاص ثلمائة بعير بكامل عدتها ، وقدّم ألف دينار عيناً للمساعدة فى النفقة . وقد خرجت هذه الحملة من المدينة بعد فتح مكة بحوالى عشرة شهور (رجب سنة ٩ هـ) ، وكانت آخر غزوات الرسول عليه الصلاة والسلام .

وحين وصل الرسول إلى تبوك لم يجد هنالك أى أثر لقوات الروم ، فأقام هنالك عشرين ليلة دون أن يظهر الروم له ، ثم قفل راجعاً إلى المدينة بعد أن حققت الغزوة الأهداف التى خرجت من أجلها ، وهى إظهار قوة الدولة الجديدة وإظهار تحديها لدولة الروم .

وقد أدرك أمراء تلك الأنحاء الشمالية حقيقة هذه القوة العربية الناهضة ، فلم يتصدوا لها وجنحوا للسلم مع رسول الله ، فجاءه صاحب أيله (إيلات الحالية) وعقد معه اتفاقاً على أن يدفع وأهل إمارته من النصارى الجزية ، وقد قدرها رسول الله عليهم بحوالى ثلثمائة دينار فى العام . كذلك جاءه أهل جرباء بالأردن ، وأهل أذرح ، واتفقوا معه على دفع الجزية ، وكتب لهم الرسول كتاباً بذلك . وأثناء مقام الرسول بتبوك أرسل قوة قوامها أربعمائة وعشرين فارساً يقودهم خالد بن الوليد إلى دومة الجندل ، وأجبر خالد مليكها المسيحى على أن يذهب إلى تبوك ويعقد معاهدة مع الرسول يتعهد فيها بدفع الجزية . وبعد هذا النجاح الذى حققته غزوة تبوك عاد الرسول إلى المدينة ، بعد أن أظهر قوة دولته للروم دون الدخول معهم فى معركة فاصلة . لكنه ، بحملته هذه ، أوحى لمن سيحكم دولة الإسلام من بعده أن يتعهد بحرب الروم وغزو بلادهم ، وهذا ما تم فى عهد الخلفاء الراشدين والخلفاء الأمويين .

وأقام الرسول بعد رجوعه من تبوك بقية رمضان وشوال وذى القعدة ، ثم

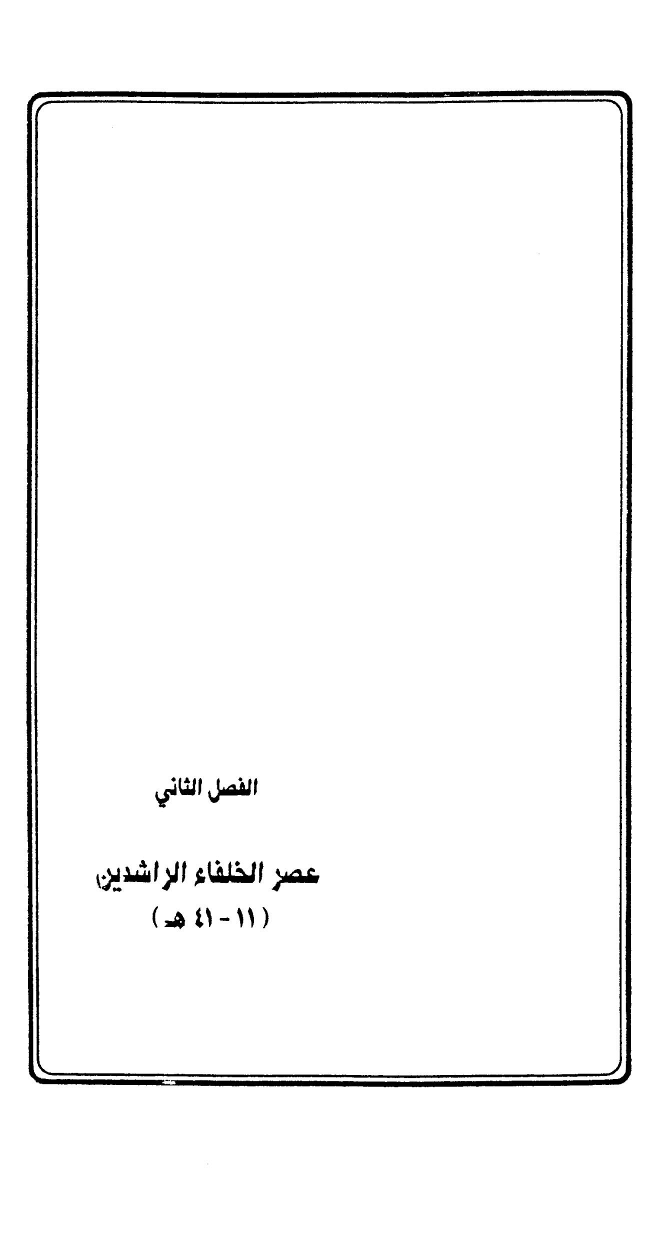
بعث أبا بكر أميراً على الحج ليقيم للناس حجهم ، وأهل الشرك ما زالوا على دينهم ومنازلهم من حجهم . فخرج أبو بكر على رأس ثلثمائة رجل ، ومعه عشرون بدنة لتذبح هنالك يوم النحر فى منى . ثم نزلت سورة براءة ، التى نقضت العقد الذى كان بين المسلمين والمشركين . فأرسل الرسول بها علياً بن أبى طالب ليقرأها على الناس وهم فى الحج ، ويلغى بها كل عهد سابق مع المشركين وليعلمهم أن البيت الحرام قد أصبح فى حوزة دولة التوحيد ، وأن الأمر فيه أصبح للرسول دون غيره ، وأنه لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . وقد أعلن علىٌ سورة براءة وأحكامها للناس يوم النحر .

ولما دخل شهر ذو القعدة من العام التالى – العاشر للهجرة – تجهز رسول الله للحج وأمر الناس بالجهاز له ، فخرج معه يومئذ زهاء تسعين ألف حاج ، ساقوا الهدى معهم . وقد قام الرسول بتعليم الناس قواعد حجهم وأصول مناسكهم ، وهو يقول ويكرر فى القول : « أيها الناس خذوا عنى مناسككم فلعلكم لا تلقوننى بعد عامكم هذا » . وقد سميت هذه الحجة التى قام بها رسول الله فى هذا العام بحجة الوداع ، لأن الرسول لم يحج بعدها ، وانتقل بعد أدائها بثلاثة أشهر إلى الرفيق الأعلى . وقد خطب الرسول فى الناس خطبته المعروفة بخطبة الوداع ، خطبها يوم عرفة من فوق جبل الرحمة ، وقد أنزل الله تعالى الوحى على رسوله مبشراً بإتمام الدين وكماله وإتمام رسالة رسوله فى آيات من سورة المائدة بقوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ .

وبعد أن أدى الرسول مناسك الحج ، وأقام بمكة فى حجته هذه عشرة أيام ، قفل راجعاً إلى المدينة . وقد أقام الرسول بالمدينة بقية ذى الحجة والمحرم وصفر ،

وضرب على الناس بعثاً إلى الشام جعل إمارته لأسامة بن زيد بن حارثة ، وكان فـى الثامنة عشرة من عمره ، وأمره بالسير بالجيش إلى أرض فلسطين لمحاربة الروم . فتجهز الناس لذلك ، وقد كانت هذه السرية آخر السرايا التى جهزها رسول الله ، وقد توفاه الله دون أن تتم ، فكانت أول شيء جهزه أبو بكر حين صار خليفة للمسلمين .

وبعد حجـة الوداع بشهرين من السنة الحادية عشـرة من الهجرة مرض رسول الله مرض الموت ، وقد أصابته حمى فى رأسه مدة ثلاث عشرة يوماً ، ولما اشتد به الوجع استأذن نساءه فى أن يُمرض فى بيت عائشة فأذنّ له بذلك . وتوفى رسول الله يوم الإثنين الثانى عشر من ربيع الأول فى وقت الضحى (٨ يونيو ٦٣٢م) ، وهو يبلغ من العمر ثلاثة وستون عاماً ، وكان قد نزل عليه الوحى وهو فى سن الأربعين ، وأقام بمكة يدعو الناس للإسلام ثلاث عشرة سنة قبل الهجرة ، وقام بالمدينة عشر سنين بعد الهجرة حتى توفى ودفن بها ، فى حجرة عائشة حيث ارتقت روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى ، صلى الله عليه وسلم .



الفصل الثاني

عصر الخلفاء الراشدين

(١١ - ٤١ هـ)



عصر الخلفاء الراشدين

(١١ - ٤١ هـ)

يعتبر عصر الخلفاء الراشدين عهد النقلة التى تحولت فيها الدولة العربية الإسلامية من دولة محصورة فى شبه جزيرة العرب إلى دولة كبرى إمتدت حدودها من الصين شرقاً إلي المحيط الأطلسي غرباً ، ومن سهوب سيبريا شمالاً إلا خط الإستواء جنوباً . كذلك يعتبر عهد النقلة التى تحولت فيها الدولة من نظام الشورى فى الحكم إلى النظام الملكى الوراثى .وقد حكم فى هذا العصر خلفاء أربعة من كبار صحابة رسول الله ﷺ عرفوا بالخلفاء الراشدين ، وجاء ترتيب وسنوات حكمهم كالتالى :

١ - أبو بكــر الصديــق ، عبــد الله عتيق بــن أبــى قحافة (١٢ ربيع الأول ١١ هـ) .

٢ - عمر الفاروق بن الخطاب (٢٢ جمادى الآخرة ١٣ هـ).

٣ - عثمان بن عفان ، ذو النورين (٢٩ ذى الحجة ٢٣ هـ) .

٤- على بن أبى طالب ، المرتضى (١٧ ذى الحجة ٣٥ هـ - ٤١ هـ) .

وإذا ما تتبعنا أحداث هذا العصر نجد أن سماتاً رئيسية جمعت بينها تجعلنا لا نتحدث عن عصر كل خليفة منهم حديثاً مستقلاً ، وإنما حديثاً شاملاً للعصر كله ، الذى لم يتعدى عمره الزمنى الثلاثين عاماً . وتتمثل هذه السمات التى تمثل عناوين كبرى للأحداث فيه فى التالى :

أ - نظام الحكم فى هذا العصر ، الذى عُرف بنظام الخلافة .

ب -محاولة إقرار النظام السياسى فى الدولة والقضاء على حركة الردة والمتنبئين وما نعى الزكاة .

جـ - توسيع حدود الدولة خارج نطاق شبة الجزيرة العربية ، فيما عُرف فى التاريخ بحركة الفتوح العربية ونشر الإسلام .

د - نقطة التحول فى تاريخ الدولة الإسلامية والخطر الذى تعرضت له ، فيما عُرف بالفتنة الكبرى .

هـ - ما استتبع الفتنة الكبرى من أحداث جسام فى خلافة على حتى نهاية عصر دولة الراشدين .

اولاً : نظام الخلافة :

واجه المسلمون ، بعد وفاة الرسول ﷺ ، مشكلة نظام الحكم وكيفية تدبير أمر الدولة ، التى وضع الرسول أساسها ، بعد وفاته . ولقد فوجئ المسلمون بوفاة الرسول ، رغم إيمانهم بحتمية الموت على كل البشر ، إلا أن وقوعه المفاجئ أوقعهم فى حيرة وبلبلة دلت على أنهم تناسوا هذا الأمر وأنهم استبعدوه عن أذهانهم . وجاءت هذه المشكلة من أن الرسول إرتحل عنهم دون أن يوصى بالحكم لأحد بعده ، كما أنه لم يترك وراءه إبناً يرثه فى حكم المسلمين وقيادة الدعوة والدولة الإسلامية من بعده . كذلك فإن آيات القرآن الكريم لم تشر لهذا الأمر ، وكأن الله ورسوله تركوا الأمر للمسلمين ليختاروا من نظم الحكم مايلائمهم ويتمشى مع تطور حياتهم ولا يتنافى مع تعاليم الدين الجديد . ولقد ارتبط التشريع الإسلامى بقيام الدولة التى وضع الرسول أساسها ولبناتها الأولى ، لذلك كان لابد من وجود سلطة تنفيذية ، بعد وفاة الرسول ، لهذه الدولة تقوم

بتطبيق التشريع وتحافظ على وحدة الأرض ووحدة الجماعة ، وتحقق عالمية الدولة خارج نطاق شبه جزيرة العرب ، وفى نفس الوقت تسهرعلى مصلحة الجماعة الإسلامية وتحافظ عليها من أى خطر يتهددها أو عدو يهدد أمنها . وقد عُرف النظام الذى تمثل فى الطريقة التى هدى الله المسلمين إليها لإختيار من يخلف الرسول فى حكمهم وفى تسيير أمور دولتهم باسم نظام الخلافة . على أن هذا النظام لم ينشأ من فراغ ، فلقد وضع الرسول أسسه عند إقامته الدولة ، وطوال العشر سنوات التى قاد فيها مسيرتها . وتمثلت هذه الأسس فى مبدأين هامين من مبادئ التشريع الإسلامى ، وهما : مبدأ الشورى بالنسبة للحاكم ومبدأ الطاعة لله وللرسول بالنسبة للرعية ، وقد أشار إليهما الله تعالى فى كتابة الكريم فى قوله ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ . وقد رسخ الرسول هذين المبدأين عملياً ، فأصبح الحكم فى الإسلام بمثابة عقد أو عهد ، وهو ما عُرف عند المسلمين باسم البيعة ، وهى بيعة بين الراعى والرعية ، يلتزم فيهاالطرفان بحدود التشريع الإسلامى . وقد طبق الرسول نظام الشورى فى الحكم ، وظهر فى عهده أهل الشورى ، وكانوا من كبار الصحابة ، واستبعد النظام الوراثى فى اختيار قيادات حكومته . وقد كان النظام الوراثى فى الحكم معروفاً عند العرب من إتصالاتهم بالفرس والروم وملوك الغساسنة والمناذرة ، وملوك اليمن الأقدمين . وما حدث فى إجتماع سقيفة بنى ساعدة بالمدينة ، بعد وفاة الرسول مباشرة ، يؤيد رسوخ مبادئ ومفاهيم الشورى فى الحكم عند المسلمين . وقد برز فى إجتماع السقيفة هذا مبدأ آخر فى الحكم ، وهو ضرورة أن يكون خليفة رسول الله من قريش ، وذلك من خلال المناقشات التى حدثت بها ، والتى استطاعت أن تتخطى حاجز العصبية القبلية عند القبائل بين المهاجرين والأنصار . وقد أُعتمد إقرار هذا المبدأ

على إقرار أهل السقيفة لما للمهاجرين من فضل وسابقة على الأنصار فى نصرة الدعوة الإسلامية . وبذلك نجد أن المبادئ التى قام عليها نظام الخلافة وأقرها إجتماع السقيفة هى : إقتصار إختيار الخليفة على القرشيين ، وأن يكون أهل الشورى ، الذين يساعدون الخليفة فى الحكم ، من كبار الصحابة ، وأن يتم إختيار الخليفة بالأنتخاب الحر ، وأن تؤخذ للخليفة البيعة العامة من عموم المسلمين . وكان على الخليفة المنتخب الإلتزام بكتاب الله وسنة رسوله ، وعلى الرعية التى بايعت السمع والطاعة طالما ظل الخليفة قائماً بهذا الإلتزام .

ولتفصيل ما وقع فى سقيفة بنى ساعدة ، نقول أنه لمّا وصل إلى الأنصار نعى رسول الله لهم ، سارعوا إلى التفكير فى شخص من يخلفه فى تدبير أمورهم وقيادة مسيرتهم ، فاجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة ، والمهاجرون مشغولون بأمر إعداد دفن الرسول . ولمّا كانوا يرون أن الأمر لهم لأن البلد بلدهم ، وهم أنصار الله وكتيبة الإسلام ، رشحوا للرياسة شيخاً من سادة الخزرج هو سعد بن عبادة . فدعوه ليتحدث باسمهم وليبين موافقته على إختيارهم له رئيساً لدولة الإسلام وخليفة لرسول الله فى حكم دولة المسلمين . فنهض سعد فيهم خطيباً وبيّن فى خطبته فضل الأنصار على دولة الإسلام وسبقهم لنصرة الله ورسوله . غير أن الأوس امتعضوا لهذا الاختيار وخافوا أن تؤدى رياسة سعد للمسلمين إلى سيادة الخزرج عليهم وإلى عودة الصراع بين الأوس والخزرج الذى كان قائما بينهما قبل هجرة الرسول إلى المدينة .

ولقد وصل خبر اجتماع السقيفة إلى كبار رجال الصحابة من المهاجرين ، فسارع ثلاثة منهم إلى هذا الاجتماع ، وهم أبو بكر وعمر وعبيدة بن الجراح ، حتى لا يتيحوا للأنصار فرصة الانفراد بالرأى فى أمر الخلافة الخطير دون أن يكون للمهاجرين رأى فيه . ونهض أبو بكر فألقى أول خطبة له فى الأنصار ،

بيّن فيها فضل المهاجرين عن الأنصار ، إستشهاداً بما نزل فئ القرآن ، وسابقتهم عليهم ، كذلك إعترف بالفضل للأنصار ولكنه أبان بأنه فضل يلى فضل المهاجرين . وقصد فى خطبته أن تكون الإمارة للمهاجرين والوزارة للأنصار . وقد قال لهم أبو بكر ضمن ما قال : « نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، وإن رسول الله ﷺ قال : الأئمة من قريش ، وقال : أوصيكم بالأنصار خيرا : أن تقبلوا محسنهم وتتجاوزا عن مسيئهم . إن الله سمانا الصادقين وسماكم المفلحين ، وقد أمركم أن تكونوا معنا حيثما كنا فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ .

ولم يعجب قول أبى بكر جميع الأنصار ، فقام الحباب بن المنذر خطيباً يدافع عن حق الأنصار فى الحكم ، ويطلب من الأوس والخزرج الاتفاق على اختيار رجل منهم وعدم الاختلاف والتفريط فى هذا الأمر حتى لا يكون لأحد دونهم . كما أشار إبن المنذر فى ختام خطابه بامكانية أن يتقاسم المهاجرون والأنصار الأمر بقوله : « وليكن منا أمير ومنكم أمير » .

ولمّا تحرج الموقف بين المهاجرين والأنصار قام أبو عبيدة بن الجراح فى المجتمعين خطيباً ، ووّجه حديثه للأنصار بقوله أنهم أول من نصر وآزر فلا يكونوا أول من غيرّ وبدّل . وفوجئ المجتمعون بقيام بشير بن سعد ، زعيم الأوس ، خطيباً مؤيداً حق المهاجرين فى الخلافة ، وقد كان لخطابه وقع بالغ فى النفوس . فانبرى عمر بن الخطاب وأبو عبيده يعلنان مبايعتهما لأبى بكر بالخلافة ، ثم تقدم بشير بن سعد وبايع أبا بكر ، وبايعه الأوس من بعده ، فاضطرت الخزرج للمبايعة ، عدا سعد بن عبادة الذى خـرج من الاجتماع ناقماً على ما حدث فيه . وعُرفت هذه البيعة التى تمت لأبى بكر فى السقيفة باسم البيعة الخاصة ،

ثم أخذت له ، بعد ذلك ، فى مسجد الرسول البيعة العامة ، بعد أن قام فى الناس خطيباً وصلى بهم . وقد بيّن أبو بكر فى خطبته الخطة التى سوف يسير عليها والالتزام الذى وجب على الحاكم المسلم أن يلتزمه مع نفسه ومع الرعية ، بقوله : « أيها الناس إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فقومونى ، ألا أن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه وأقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، الصدق أمانه والكذب خيانة ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

ولقد إنعقد إجماع المسلمين على بيعة أبى بكر بالخلافة ، بسبب مكانته فى الإسلام وصحبته للرسول ومناصرته وإخلاصه له وصحبة هجرته إلى المدينة ونيابته عنه فى الحج بالمسلمين فى العام التاسع من الهجرة ، ونيابته عنه فى الصلاة بالمسلمين فى مرضه الأخير . ومع أن هذا الاختصاص الذى أختص به أبو بكر لا يرق إلى مرتبة النص والتعيين ، إلا أنه ينطوى على أبلغ الدلائل على ما كانت لأبى بكر من خصوصية عند رسول الله ومن مكانة لم تكن لأحد غيره ، قد تسمح له بصدارة الجماعة الإسلامية .

ولقد إختلفت الروايات فى موقف على بن أبى طالب من بيعة أبى بكر بالخلافة ، فيقول كتاب الشيعة ومؤرخيهم أن علياً تخلف ، عن عمد ، عن مبايعة أبى بكر ، وأنه لم يبايعه إلا فى وقت متأخر ، وذلك بسبب إعتقاده فى أحقيته فى الخلافة دون أبى بكر ، لسبقه فى الإسلام ودوره قبل الهجرة وبعدها ولملازمته الرسول فى كل حروبه ومعاركه ، ولقرابته من الرسول وزواجه من إبنته السيدة فاطمة . بينما تقول رواية كتاب أهل السنة ومؤرخيهم أن سبب تأخر على عن إجتماع السقيفة هو انشغاله بالاعداد لدفن الرسول ، وأنه ما كاد يعلم

بمبايعة المسلمين لأبى بكر البيعة العامة فى مسجد الرسول حتى سارع إلى المسجد ليبايعه دون أن يُكمل لباسه . ورواية أخرى تقول أن علياً ظل ممتنعاً من مبايعة أبى بكر مدة ستة شهور بعد بيعة الناس له ، وذلك بعد أن توفيت السيدة فاطمة بنت الرسول التى كانت غاضبة من أبى بكر لمنع إعطائهـا حقها فى ميراث أبيها فى فدك وبنى النضير وخيبر عملاً بحديث ثبت عن الرسول مفاده قوله ﷺ : « نحن معشر الأنبياء لا نورث كل ما نتركه صدقه » . ولَمَّا ماتت لم يجد علىّ مفراً من البيعة لأبى بكر إحتراماً لغضب زوجته . ولقد أورد الطبرى هذه الرواية ، ويلحظ أن صيغة خبر الطبرى تجعل مسألة الميراث سبباً لإمتناع على وبنى هاشم عن مبايعة أبى بكر . لكن مطالبتهم بالميراث من أبى بكر تقتضى أن تكون بعد الإعتراف بخلافته ، وفى هذا من التناقض ما يجعل القصة مصطنعه وإن كان لها أصل ما . فكل ما يمكن أن يكون هو أنهم بعد مبايعتهم لأبى بكر طالبوا بما إجتهدوا أنه ميراثهم من النبى فأورد أبو بكر عليهم حديث رسول الله بصدد ميراث الأنبياء الذى سمعه عن رسول الله ، ووقف الأمر عند هذا الحد . ويكون ما عدا ذلك من قول من زيادات الشيعة وتأليفهم ، لأنه لا يمكن أن يكون على وفاطمة وبنو هاشم لم يصدقوا أبا بكر فى الحديث الذى رواه ، كما أنه لا يمكن أن يكونوا قد كابروا وأصروا على المطالبة بالميراث بعد سماعهم لحديث النبى عليه السلام . ومن الغريب أن أعداء الإسلام الذين يحملون على أبى بكر منع فاطمة من إرثها فى فدك وخيبر ينسون أن علياً نفسه ، لَمَّا تولى الخلافة ، لم يُعط أحداً ورث فاطمة ولا لأحد من بنى هاشم ما تركه رسول الله من ميراث عملاً بحديث « نحن معشر الأنبياء لا نورث ... » ، وإذا كان أبو بكر منع ذلك عن فاطمة فيكون من الأولى أن منع عن إبنته عائشة المشاركة فى الميراث ، وهذا ما حدث بالفعل . وعموماً فإن أكثر الروايات التى قيلت فى هذا

الصدد ، أن علياً سارع إلى بيعة أبى بكر وعاونه فى شئون الخلافة ، وأنه كان من أعرف الناس بفضله ومن أقرب الناس إليه . وقد ورد أن علياً لم ينقطع عن صلاة من الصلوات خلف أبى بكر ، وأنه خرج معه إلى ذى القصة لما خرج الصديق شاهراً سيفه يريد قتال أهل الردة . وبخصوص أمر الميراث هذا ، هنالك رواية تقول أن العباس بن عبد المطلب ، عم الرسول ، تعلق باله بميراثه وعلىّ فيما تركه النبى من فدك وبنى النضير وخيبر ، لكن علياً فاجأه بقوله : « إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده وإنى والله لا أسألها رسول الله ﷺ » .

وكان أبو بكر خير رجل يواجه الموقف الذى أصبح فيه المسلمون بجزيرة العرب بعد وفاة الرسول ويواجه الأحداث الشداد التى وقعت فى الدولة الإسلامية وهى لا تزال فى فترة النشوء والتكوين . ففضلاً عن أنه من أسبق الرجال إسلاماً وأعظمهم إخلاصاً للدعوة ولصاحب الدعوة ، فإنه إمتاز بقوة إيمانه بالدين الجديد وقوة إرادته التى فاقت فى صلابتها الفولاذ والحديد ، وبراعته السياسية وتفكيره السديد ، بفضل هذه الصفات إستطاع أن يواجه رياح التغيير التى هبت على الدولة الناشئة وأن يقود سفينتها إلى بر الأمان برغم ما اعترضها من أمواج مدمرة وأعاصير مهلكة .

ولقد استمرت خلافة أبى بكر مدة عامين ، ولما مرض مرض الموت وأحس بدنو أجله خشى إن هو قُبض ولم يتدبر أمر من يخلف المسلمين فى الحكم بعده ويجمع شتاتهم ويوحد كلمتهم ، أن يعود الاختلاف والشقاق بين المسلمين فيتمكن عدوهم منهم ، وهو يرى أن الأخطار لا زالت تحيط بدولة الإسلام وجيوشهم قد خرجت إلى الجهاد . ولقد كان ماثلاً أمام ناظريه ما حدث بين

المسلمين فى سقيفة بنى ساعدة غداة وفاة الرسول ، فرأىَ ، ببعد نظره ، أن يحتاط لهذا الأمر تلافياً للخطر وتجنباً له . فنظر أبوبكر فى أهل الشورى من كبار صحابة رسول الله رجلاً تتوافر فيه صفات خليفة المسلمين ويرضى المسلمون بحكمه لهم ، فوقع إختياره على عمر بن الخطاب . وأراد ، قبل أن يمكن لهذا الإختيار ، أن يستشير فيه كل من دخل عليه من الصحابة ، فاستشار منهم : عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وأسيد بن حضير الأنصارى ، وسعيد إبن زيد الأنصارى ، وغيرهم من كبار المهاجرين والأنصار ؛ فأثنوا على عمر وأيدوا ترشيحه للخلافة . ثم دعا أبو بكر عثمان بن عفان ، فأملاه كتاب عهده لعمر ، وقد جاء فى نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبوبكر خليفة محمد رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ويتقى الفاجر . أنى إستعملت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن بر وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه وإن جار وبدّل فلا علم لى بالغيب ، والخير أردت ، ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

وكانت هذه البيعة الخاصة ، وقد قرئت فى مسجد الرسول وأُخذت لعمر البيعة العامة ، وقام عمر خطيباً فى الناس يعلن عن برنامج سياسة حكومته ، ويتلخص فى تحمله مسئولية قيادة المسلمين على الطريق القويم . وتولى عمر بن الخطاب الخلافة ، لمدة عشر سنوات ، كان خلالها مثالاً للحاكم المسلم الذى إلتزم بمبادئ التشريع الإسلامى فى الحكم ومسيرة دولة الإسلام . وقد جاءت نهاية حياة هذ االخليفة العـادل على يد شاب مجوسى يسمى أبولؤلؤة ، وهو غلام المغيرة بن شعبة ، قتله بخنجر ، وتوفى فى شهر ذى الحجة سنة ٢٣ من الهجرة ، وكان يبلغ من العمر ثلاثة وستين عاماً ، مثله فى ذلك مثل الرسول

وأبى بكر . ولما طعن عمر دخل عليه نفر من الصحابة ، فقالوا له : « يا أمير المؤمنين .. لو استخلفت ؟ » قال : « من استخلف ؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لأستخلفته فإن سألنى ربى لقلت سمعت نبيك يقول أنه أمين هذه الأمة . ولو كان سالمَ مولى أبى حذيفة حياً لأستخلفته فإن سألنى ربى لقلت سمعت نبيك يقول أن سالماً شديد الحب لله » . فقال : « رجلاً أدلك عليه .. عبد الله بن عمر » ، فقال عمر : « قاتلك الله ، والله ما أردت الله بهذا ، لا أرب لنا فى أموركم ، ما حمدتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتى . بحسب آل عمر أن يُحاسب منهم رجلٌ واحد ويُسأل عن أمر أمة محمد ، فإن استخلف فقد استخلف من هو خير منى (يعنى أبا بكر) ، وإن أترك فقد ترك من هو خير منى (يعنى رسول الله) ولن يضيع الله دينه » ، فخرجوا . وقد خشى أصحاب رسول الله أن يقض عمر نحبه دون استخلاف ، وفى هذا دليل على رضائهم على طريقة أبى بكر فى الاستخلاف . فذهبوا إليه مرة أخرى يطلبون منه أن يرشح لهم خليفة بعده ، فرشح لهم ستة من كبار صحابة رسول الله من المبشرين بالجنة ، على أن يختاروا واحداً منهم يُجمعون الرأى عليه ، ثم يأخذون له البيعة العامة من عموم المسلمين . وهؤلاء الصحابة الستة هم : على بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله . وعلى أن يحضر عبد الله بن عمر عملية الاختيار ، دون أن يكون له من الأمر شئ ، ويكون مجرد مراقب . وقد تمت عملية الاختيار فى صالح عثمان بن عفان . هذا ويرى بعض المستشرقين الذين ينظرون إلى كل الأمور نظرة مـادية فقط ، ولا يقدرون أن الأمر هنا يختلف ، فإن الاختيار هنا هو إختيار خليفة للمسلمين يكون أهلاً لمقعد رسول الله ، والمرشحين هنا صحابة مبشرين بالجنة لا يسعون إلى الدنيا وإنما كل

همهم حكم الأصلح لصالح الإسلام والمسلمين ، وكلهم غيور وحريص على أن يصل أصلحهم إلى هذا الشرف الكبير والتكليف العظيم . يرى بعض هؤلاء المستشرقين أن اختيار أبى بكر وعمر للخلافة إنما جاء بتدبير وإتفاق وقع فى سقيفة بنى ساعدة بين أبى بكر وعمر وأبى عبيدة بن الجراح على أن يتولوا الخلافة بالتتابع ، واحداً بعد الآخر ، ويدعمون رأيهم بما حدث من إختيار أبى بكر لعمر خليفة من بعده ، وبما رُوى عن عمر من قوله فى أبى عبيدة ورغبته فى إستخلافه لو كان على قيد الحياة وهو على فراش الموت . وهذا إتهام مردود ، لأن أبا بكر حين إختار عمراً للخلافة فذلك لأن عمراً كان معقداً الإجماع عليه من جانب كل المسلمين ولم يتردد أحد فى شأن إختياره ولم يعترض أحد بكلمة واحدة على ذلك ، وذلك لدوره العظيم فى الإسلام أثناء حياة الرسول وبعد وفاته ، كذلك لشخصيته القوية الفذة ولصواب رأيه ولصداقته لرسول الله ﷺ ولشدته فى تدينه وغيرته الشديدة على الإسلام ، كما أن أبا بكر لم يستبد برأيه فى هذا الإختيار وإنما ترك الرأى النهائى لكبار الصحابة . فضلاً عن أن الظروف التى كانت تمر بها الدولة الإسلامية فى ذلك الوقت ، بسبب إنشغال جيوش المسلمين فى محاربة الفرس والروم لم تكن تسمح بحدوث أى إنقسام فى صفوف الجماعة الإسلامية . وما وصى به عمر فى إختيار من يخلفه يدحض هذا الرأى أيضاً ، فقد حصر إختياره فى أصحاب الشورى من كبار الصحابة ، الذين إنتهى إختيارهم إلى ترشيح عثمان بن عفان .

ولقد حكم عثمان بن عفان دولة الخلافة ، مدة أحد عشر عاماً ، ومات مقتولاً فى أعقاب الفتنة التى وقعت فى الدولة الإسلامية فى أواخر عهده . ولمّا قُتل عثمان أقبل الناس يهرعون إلى على بن أبى طالب يطلبونه للحكم ، وتراكمت عليه الجماعة فى البيعة فبايعوا ، ثم بايعه المهاجرون والأنصار ، ثم بايعه

الناس البيعة العامة ، وذلك يوم الجمعة الثالث عشر من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة . وقد ظل على فى الحكم مدة ست سنوات ، لكنه مات مقتولاً فى السابع عشر من رمضان سنة أربعين للهجرة ، قتله الخارجى عبد الرحمن بن ملجم بسيف مسموم . وبمقتل الخليفة على بن أبى طالب ينتهى عهد الخلفاء الراشدين لينتقل الحكم لبنى أمية ، ولأول خلفائهم معاوية بن أبى سفيان . هذا وقد حول الأمويون نظام الحكم فى الدولة الإسلامية من نظام الشورى والانتخاب الحر إلى النظام الملكى الوراثى ، ويتحول بذلك نظام الخلافة الذى كان قائماً فى عهد الراشدين إلى نظام جديد على العرب ، كان معروفاً لهم لكنه لم يكن مطبقاً عندهم إلا فى أطراف شبه جزيرتهم قبل الإسلام ، وعند الدول الكبرى المجاورة لهم وهما دولتى الفرس والروم .

ثانياً: حركة الردة والمتنبئين :

ظهر فى العام العاشر من الهجرة ، وفترة مرض الرسول الأخير ، بعض الخارجين عن الدعوة والدولة العربية الإسلامية من رجال القبائل العربية ، وتشبه بعضهم بالرسول وإدعى النبوة ، مثل : الأسود العنسى باليمن ، ومسيلمة الكذاب فى بنى حنيفة باليمامة ، وطليحة بن خويلد فى بنى أسد بنجد ، وسجاح التميمية فى بنى تميم بنجد أيضا . وقد انتقض عدد كبير من القبائل العربية الأخرى على الدولة العربية الإسلامية ، عقب وفاة الرسول ، ولم يكن الإسلام قد إستقر فى قلوب رجال تلك القبائل بعد ، وأعلنت تمردها على الدولة مستندة على حجج واهية متنوعة ، وقد عُرف هذا الأمر بحركة الردة .

ويتضح لنا من واقع دراسة المجتمع الإسلامى ، مع بداية تكوين الدولة الإسلامية ، أنه إن كانت هنالك قبائل عربية قد دخلت الإسلام طواعيةً وإختياراً

وإيماناً كاملاً منها بهذا الدين وبتعاليمه ، فإن هنالك قبائل أخرى قد دخلت تحت لواء الدولة الجديدة تحت ظروف متعددة ولأهداف مصلحية خاصة بها ؛ حتى أنها ما كادت تحس بمرض الرسول وتعلم بوفاته حتى تحلل بعضها من بيعته وخرجت على الدولة الإسلامية . ولقد انتشرت هذه الحركة أثر النزاع الذى دار فى المدينة بين المهاجرين والأنصار حول مشكلة الخلافة .

ولقد اتخذت حركة الردة أشكالاً مختلفة تبعاً للعوامل وللظروف التى تأثرت بها ، فبدأت بحركات التنبؤ ؛ التى ارتكزت أساساً على العصبية القبلية العربية . وقد ظهر جميع من إدعوا النبوة فى أواخر حياة الرسول ، أو بمعنى أصح فى العام الأخير من حياته . فظهر الأسود العنسى فى اليمن ، وتبعت دعوته بعض قبائل اليمن وأهل مدنها وبخاصة قبيلة مذحج . وأعلن طلحة بن خويلد نفسه نبياً فى بنى أسد بنجد ، فانضمت قبيلته بنو أسد إليه ومعهم كثير من حلفائهم من غطفان . وفى بلدة اليمامة ، إدعى مسيلمة بن حبيب الحنفى النبوة فى قبيلته بنى حنيفة ، وتطاول مسيلمة فى دعواه بأن أرسل إلى الرسول كتاباً يدعوه فيه مقاسمته معه النبوة ، وإدعى أن له قرآناً مثل قرآن محمد ، فسماه الرسول لكذبه بمسيلمة الكذاب . كما إدعت إمرأة من بنى تميم بنجد تُدعى سجاح النبوة ، وكانت على إتصال بمسيلمة ، وتزوجت منه ، وشكلا حركة واحدة فى إدعاء النبوة . وقد تجمعت معظم هذه القبائل التى إدعى رجالها النبوة فيهم خارج الحجاز ، وبالذات تجمعوا فى منطقة نجد واليمن . ذلك لأن العصبية القبلية التى عمل الإسلام جاهداً على القضاء عليها ، ونجح فى ذلك فى الحجاز ، لم يستطع أن يقض عليها فى بقية شبه الجزيرة العربية ، وظلت تسيطر عليهم بتقاليدها وأشكالها . فلمّا أعلن هؤلاء المتنبؤن دعواهم ، وجدت هذه القبائل أنها ليست بأقل من قريش التى ظهر من بينها نبى ، وكان أمل هؤلاء المدعين أن

تكون لهم السلطة والمجد لأشخاصهم ولقبائلهم ، كما كان للرسول ولقريش . فعمد هؤلاء المتنبؤن إلى التشبه بالنبى فى الشكل والمظهر واستخدموا السحر والكهانة والشعوذة التى كانت لا تزال منتشرة بين القبائل العربية آنذاك فى شبه الجزيرة . ورغم أن بعضَ القبائل كانت تعلم كذب إدعاء هؤلاء المتنبئين إلا أنهم شايعوهم وساندوهم نخوةً لتقاليدهم وعصبيتهم .

وإلى جانب هؤلاء المتنبئين ، كان هنالك المرتدون عن الإسلام ، وقد كانوا أصنافاً مختلفة . فمنهم من ثار على الأوضاع الاجتماعية الجديدة التى أقرها الإسلام والقيم الأخلاقية التى حاول إرساء قواعدها بينهم ، وكانت ترتكز أساساً على المساواة بين أفراد الجماعة الإسلامية وإذابة الفوارق والمتناقضات بين أفراد القبيلة الواحدة . ومنهم من إرتد عن الإسلام وتشكك فى نبوة الرسول غداة موته ، وكانوا يظنون أن الرسول معصوم من الموت ، فلما مات ادركوا أنه واحد مثلهم ، فكان اهتزاز صورة النبى أمام نظر هؤلاء وجهلهم بحقيقة الدعوة سبباً فى ردتهم ، وقد كان هؤلاء من المتأخرين فى الدخول فى الإسلام وكان معظمهم من سكان البحرين ، ولم يدع أحد منهم النبوة ولكنهم اكتفوا بالارتداد عن الإسلام . وهنالك من إرتدوا بسبب ثورتهم على فرض الزكاة الذى فرضه الإسلام على المسلمين ضمن فرائضه الخمسة . وقد إعتبر هؤلاء الزكاة مجرد جزية يعطونها لمحمد أثناء حياته ، أو صدقة يقدمونها لمحمد لتسيير أحوال دولته ، أما ومحمد قد مات ، فإنهم قد رأوا ، أنه ليس هنالك مبرر للاستمرار فى دفعها ، خاصة بعد أن تولى أبو بكر الخلافة ، وهو من قريش . وكان فى تصورهم أن دفعهم الزكاة له معناه الإنقياد لقريش ، وهم يرفضون هذا الأمر ويسعون للخلاص منه قدر إمكانهم . وقد جاء معظم هذا الفريق من ردة اليمن وعمان واليمامة .

وكانت الكثرة الغالبة من المرتدين من أولئك الذين تمردوا على سلطان حكومة المدينة ، بعد موت الرسول ، وبعد أن استقرت الخلافة بانتخاب أبى بكر القرشى خليفة . فهذا الفريق لم يرتد عن الإسلام كفراً به وبتعاليمه ولكنه تنصل من تبعية الخضوع لحكومة المدينة وسيطرة قريش ، وخاصة أن القبائل العربية لم تكن قد تعودت الخضوع لمثل هذه السلطة من قبل . وقد إنحاز فريق من هؤلاء إلى ثورات بعض المتنبئين يستنصرون بهم على قريش أملاً فى الخلاص من زعامتها وسيادتها التى فرضت عليهم .

ولقد ساعد على تفشى أمر الردة ودعوة المتنبئين وقبول القبائل لها سطحية هذه القبائل فى فهم تعاليم الإسلام الذى لم يكن قد إستقر فى قلوبهم بعد ، ولم تكن لديهم الفرصة لتفهم تعاليمه واستقرارها فى أذهانهم . وقد دخل معظم هؤلاء الإسلام فى وقت قريب ، وكانت صحبتهم للرسول صحبة قصيرة . ولم يكن أمر الإقتناع بالعقيدة والتعاليم الإسلامية الجديدة أمراً يسيراً على مثل هذه المجتمعات العربية القبلية التى عاشت على البداوة وتأثرت بطبيعة الصحراء القاسية وتأصلت فيها العادات القبلية وعبادة الأصنام والأوثان وتقديس كل ما هو قديم موروث . ولم يكن خافياً أنه كانت وراء هذه الحركات أصابع خارجية تحركها فى الخفاء ، تمثلت فى القوى المعادية للإسلام والحاقدة عليه أمثال يهود شمال الحجاز ، ونصارى الحبشة ونجران والشام وفرس العراق . وقد كان هؤلاء يعتمدون فى تدبير المؤامرات ضد الإسلام على عملائهم داخل أراضى دولة الإسلام . وقد ظهر ذلك واضحاً فى الشعارات المسيحية والمجوسية التى أضافها هؤلاء المتنبئين والخارجين لدعواهم ورسالاتهم الزائفة المزعومة .

ولقد كان الخليفة أبو بكر ، وهو فى بداية خلافته ، أمام أحد أمرين ، إما أن يتساهل مع هؤلاء المرتدين ، كسباً للوقت ، وحتى تتاح لهم فرصة تفهم

الإسلام تفهماً صحيحاً واستقراره فى قلوبهم ، خاصةً وأن هؤلاء لم يكن قد إنقضى زمن كافٍ على إسلام غالبيتهم . وقد كان له العذر لو تصرف كذلك بسبب الظروف الدقيقة التى كانت تمر بها الدولة الإسلامية وهى فى طور التكوين فى الداخل والخارج . وإما قتال المرتدين والمتنبئين والتساهل مع مانعى الزكاة . لكن أبا بكر رفض الأمرين وحسم الأمر واعتبر الجميع مرتدين ولم يفرق بينهم ، ورأى ضرورة إستخدام الشدة فى معالة مثل هذه الأمور . وتحولت رقة ولين أبى بكر إلى قوة وتصميم وعنف فى الحفاظ على وحدة الدولة التى ورث مسئولية قيادتها عن رسول الله وأخذ بيعتها من كافة المسلمين .وقد مال بعض الصحابة ، وفيهم عمر بن الخطاب ، وتكلموا مع أبى بكر فى شأن مانعى الزكاة فى أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة ويتألفهم حتى يتمكن الايمان فى قلوبهم ثم بعد ذلك يزكون . وقد كانت وفود هؤلاء قد قدمت المدينة يقرون الصلاة ويمتنعون عن الزكاة ، ومنهم من إحتج بقوله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم بها وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ ، وقالوا : « فلسنا ندفع زكاتنا إلا لمن صلاته سكن لنا » . وقد قال عمر لأبى بكر وغيره : « إذا منعك العرب الزكاة فاصبر عليهم » ، فقال أبو بكر : « والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه ، والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة ، والله لأقاتلنهن ولو قاتلتهم بمفردى حتى تنفرد بالموت سالفتى » .

ولقد بدأ أبو بكر معالجة الموقف بإنفاذ بعثة أسامة بن زيد إلى الشام أولاً تحقيقاً وتنفيذاً لأمر رسول الله ، وليوهم أهل الردة استخفافه بحركتهم وأنه يجهز قوته الحقيقية للحرب الخارجية ، وأن دولته فى وضع القوة ولو لم تكن كذلك لما أنفذ هذا الجيش فى مثل هذا الوقت . وقد كان هذا العمل العبقرى من جانب

أبى بكر أول بداية النهاية للمرتدين . وكانت المرحلة التالية فى مواجهة المرتدين هى تحصين المدينة وحمايتها بالحراس والطلائع عند منافذها لرد أى عدوان من قبل أى من هذه القبائل عليها . وقد صدق حدسه فى ذلك ، حينما طمعت قبيلة غطفان فى قوة المسلمين ، حيث علمت بخروج الجيش الإسلامى فى حملة أسامة إلى الشام ، فهاجموا المدينة ، وفوجئوا بالقوات الإسلامية مستعدة للقائهم ، فأوقعت بهم هزيمة ساحقة وفروا من وجهها عائدين إلى بلادهم ، وقد تتبعتهم القوات الإسلامية حتى بلادهم وقامت بضمها إلى تبعية الدولة الإسلامية . وكان لهذا الانتصار على غطفان نتيجة مزدوجة إحداها عند المرتدين والأخرى عند المسلمين ، فقد أدرك المرتدون متانة الجبهة الإسلامية وقوتها فى الداخل والخارج وان هذه القوة لم تتأثر بخروج حملة أسامة إلى الشام . وبالنسبة للمسلمين ، فقد أحس المسلمون بقوتهم مما دفعهم إلى الاستماتة فى قتال المرتدين وإحراز النصر عليهم . كذلك إستفاد أبو بكر من غنائم غطفان وغنائم حملة أسامة التى عادت منتصرة ومحملة بالغنائم ، فى تجهيز أحد عشر جيشاً للقضاء على حركة الردة والمتنبئين . وقد جعل أبو بكر اللواء والقيادة لكل جيش من هذه الجيوش لقائد كبير ولبطل رائد من مقاتلى الإسلام . ووجه ، فى وقت واحد ، كل جيش من هذه الجيوش إلى جهة من جهات أهل الردة والمتنبئين . ولقد انتدب أبو بكر لقيادة هذه الجيوش كل من : خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبى جهل ، والمهاجر بن أمية ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وعمرو بن العاص ، وحذيفة بن محصن ، وعرفجة بن هرثمة ، وطريف بن حاجز ، والعلاء بن المغيث الحضرمى ، وسويد بن مقرن ، وشرحبيل بن حسنة .

وقد أمر أبوبكر كل قائد من هؤلاء القواد بالتوجه للوجهة التى خصصت له ،

وطلب منهم ألا يبدأ أحدهم الحرب مع أهل الجهة المتوجه إليها إلا بعد أن يدعوهم إلى العودة إلى الإسلام ، فإن أجابت قبل منها وإن أبت قاتلها دون هواده . كذلك طلب منهم الاستعانة بمن ثبت على إسلامه من أهل القبائل على المرتدين منهم لأنهم أعلم بقومهم منهم .

ولم تستجب القبائل لنداء قواد المسلمين ، واستجابوا لنداء العصبية وصمموا على الحرب ، فحاربتهم الجيوش الإسلامية حرباً شرسة ، انتهت بالإنتصار عليهم والقضاء علي حركة الردة وعودة قبائل شبه جزيرة العرب إلى حظيرة الدولة الإسلامية . وتعد الحملة التى تولى قيادتها خالد بن الوليد من أهم الحملات التى جهزها أبو بكر لقتال المرتدين ، وكان بها خيرة المهاجرين والأنصار . وقد وجه خالد إهتمامه ، أول الأمر ، إلى إخضاع قبيلة بنى أسد وزعيمها طليحة بن خويلد ، ونجح فى هزيمة طليحة واخضاع قبيلته التى أعلنت عودتها للإسلام وأقرت دفع الزكاة . أما طليحة فقد هرب إلى الشام بعد أن إنفض عنه أتباعه ، ثم قدم بعد ذلك إلى المدينة وأعلن توبته أمام الخليفة أبى بكر ، فعفى الخليفة عنه . وقد أبلى طليحة فى الفتوح الإسلامية فى عهد عمر بلاءً حسناً خصوصاً فى فتح بلاد العراق .

بعد ذلك توجه خالد بن الوليد لإخضاع قبيلة بنى تميم ، بسبب عدم دفعهم الزكاة واتباعهم لدعوى النبؤة التى قامت بها إمرأة من نسائهم هى سجاح بنت الحارث التميمية ، ونجح خالد فى إخضاع بنى تميم وعودتهم إلى الإسلام وإقرار الزكاة . ثم سار خالد ، بعد ذلك ، بقواته إلى اليمامة لمقاتلة بنى حنيفة ونبيهم الكذاب مسيلمة . ونظراً لخطورة حالة مسيلمة وقوة تسليح أتباعه من بنى حنيفة ، قام أبو بكر بامداد جيش خالد بقوة جديدة من مقاتلى المسلمين بقيادة

عكرمة بن أبى جهل وشرحبيل بن حسنة . وتقابل الجيشان فى معركة حامية إستبسل الجانبان فيها وسقط فيها عدد كبير من قتلى الفريقين ؛ حتى ألجأ خالد مسيلمة إلى مكان حصين يُعرف بالحديقة ، فحصره هناك ، ونجح البراء إبن مالك من فتح باب سور الحديقة فإقتحمها المسلمون ونجح فى مقتل مسيلمة أبو دجانة الأنصارى بطل معركة أُحد الذى نال الشهادة فى هذه المعركة ووحشى الحبشى قاتل حمزة عم الرسول يوم أُحد . ففر بنو حنيفة منهزمين بعد مقتل مسيلمة وأمعن المسلمون القتل فيهم . وقد استشهد فى حرب بنى حنيفة عدد كبير من المسلمين ومنهم حفظة كتاب الله . وقد جاءت ، بعد ذلك ، وفود بنى حنيفة إلى معسكر خالد وأعلنوا توبتهم وندمهم وبراءتهم من الردة ومن مسيلمة ورجوعهم إلى الإسلام فقبل منهم ذلك وعفى عنهم .

ولقد نجحت كل القوات التى أرسلها أبو بكر فى مهمتها ، وقضت بغير رجعة على المرتدين والمتنبئين . ونجح خليفة رسول الله فى أكبر إمتحان تعرض له ، ودفع عن دولة الإسلام أكبر خطر تعرضت له وهى لا تزال فى المهد . ورغم إنتهاء حرب الردة ، إلا أن آثارها إستمرت قائمة فى المجتمع الإسلامى وكان لها تأثيرها على الجماعة الإسلامية فيما بعد فى عدة نواح :

فمن الناحية الإجتماعية ، ظلت جماعة المرتدين والقبائل التى شاركت فى الردة تشعر بعقدة الذنب حتى بداية خلافة عمر ، خاصةً لأن أبا بكر لم يسمح لهم بالمشاركة فى الفتوح الإسلامية ، فحرمهم بذلك من أجر الجهاد وحصيلة الغنائم التى كانوا فى حاجة إليها لمواجهة ظروف بلادهم الإقتصادية الصعبة . ومن الناحية الدينية ، فلقد وضح أمر الإسلام وحقيقته لكل العرب وعرفوا صدق دعوة الرسول وتأكدوا من ذلك واستمرار الدعوة الإسلامية بعد وفاة الرسول .

وقد برزت عبقرية الصديق فى أمر الردة ، فهو بعد أن قضى على المرتدين لم يشأ أن يترك القوات العائدة من حرب المرتدين منتصرة بلا شغل فى المدينة فتقتتل مع بعضها ، فوجه هذا القوات المنتشية بخمر النصر إلى الجهاد والفتح ونشر رسالة الإسلام خارج جزيرة العرب ، وذلك تنفيذاً لخطة الرسول فى إبلاغ دعوى الإسلام إلى كل بقاع الأرض . فلم تكد القوات الإسلامية العائدة من حرب المرتدين والمتنبئين تلتقط أنفاسها إلا وسمعت النفير العام يستنفرهم للجهاد والفتح . وجّهز أبو بكر جيوشه لفتح العراق والشام وجعل القيادة لجيشى الفتح للمثنى بن حارثة وخالد بن الوليد . وبذلك أعلن الخليفة الراشد أبو بكر بدء مرحلة جديدة فى حياة الدولة الإسلامية وهى مرحلة الفتح والتوسع وتكوين الدولة العربية الكبرى .

ثالثاً: الفتوح الإسلامية :

أمر الله تعالى رسوله بأن يبلغ دعوة الإسلام للناس كافة وعامة ، لأنها آخر رسالات السماء إلى الأرض ، وآخر نداء إلهى لبنى البشر للعودة إلى عبادة الله الواحد الأحد خالق هذا الكون ونبذ الشرك به وما هو دون الوحدانية من عبادات زائفة واعتقادات فاسدة . من أجل ذلك أرسل الرسول ، فى السنة السادسة من الهجرة ، كتبه إلى ملوك وحكام العالم وقتذاك يدعوهم إلى الإسلام ، ويطلب منهم أن يخلوا بين شعوبهم وهذا الدين حتى يقفوا على حقيقته وألا يكونوا حاجزاً بينهم وبينه وبذلك يمنعوا الخير عنهم كما منعوه عن أنفسهم .

ولما لم تؤت هذه الكتب النتائج المطلوبة من إرسالها أيقن الرسول من أن حكام الدول التى أرسل كتبه اليهم قد تصدوا لدعوته وقد حجبوا عن شعوبهم دعوة الدين الجديد . لذا إستتبع ذلك من الرسول ، ومن يتولى أمر دعوة الإسلام

من بعده ، أن يزيل هذا الحاجز ويكسره بمحاربة هؤلاء الحكام واسقاط حكوماتهم لتوصيل الإسلام إلى شعوبهم . وقد بدأ الرسول ذلك بارسال جيشه لمحاربة الروم عند تخوم الشام ووقوع غزوة مؤته بينهما فى العام الثامن للهجرة . ثم كانت غزوة تبوك فى العام التاسع للهجرة ، والتى قادها النبى بنفسه ونجحت فى إظهار قوة الدولة الجديدة لدولة الروم التى كانت تعانى آنذاك من الضعف والتدهور . ثم جاء إعداد حملة أسامة بن زيد ، قبل وفاة الرسول وانفاذ أبى بكر لها فى بداية خلافته ونجاحها فى هزيمة القوات القبلية التى التقت بها فى منطقة البلقاء (الأردن) وتحقيق الهدف الذى خرجت من أجله . ولما أنهى أبو بكر حربه للمرتدين ومدعى النبوة ، وجه قواته التى عادت منتصرة إلى فتح بلاد الشام والعراق ، وهى تخضع آنذاك لدولتىْ الفرس والروم ، أكبر دول العالم آنذاك .

ولقد دارت المعارك الطاحنة بين الجيوش الإسلامية وجيوش الفرس والروم ، وقد تألفت قوات الجيوش الإسلامية من أولئك الجنود الثابتين على إسلامهم والسابقين فى الإسلام والذين لم يشاركوا المرتدين فى حركة إرتدادهم . لكن الخليفة عمر بن الخطاب ، حين تولى الخلافة ، سمح لمن ارتد من رجال القبائل وتاب وصلحت توبته بالمشاركة فى قتال الفتح ، وذلك لحاجة الجيوش الإسلامية إلى مقاتلين بعد أن تشعبت ميادين فتوحاتهم . وقد أبلى رجال هذه القبائل فى الفتح بلاءً حسنا ليثبتوا حسن توبتهم ويكفروا عما سلف منهم ، فضلاً عن رغبتهم فى المشاركة فى حصيلة الغنائم التى خلفتها الإنتصارات على دولتىْ الفرس والروم .

وتوالت الانتصارات العربية على قوات الفرس والروم ، وسقطت فى يد العرب فى فترة وجيزة ، لم تتجاوز العشر سنوات ،كل الامبراطورية الفارسية ، كما سقطت فى أيديهم بلاد الشام ومصر وافريقية التى انتزعوها من يد الروم .

وهنالك عوامل عدة أدت إلى هذه الانتصارات العربية الهائلة وهذه الهزائم الساحقة التى حلت بالفرس والروم ، من أهمها : ففضلاً عن العامل العقائدى والدينى الذى يأتى أول هذه العوامل ، وهو يتمثل فى إيمان العرب بالإسلام ، واستقرار هذا الإيمان فى قلوبهم ورغبتهم فى رفع كلمة الإسلام وإعلائها إما بالنصرأو الاستشهاد وإزكاء روح الجهاد بينهم ، فإن أسلوب القتال الذى اتبعه العرب فى حربهم مع الفرس والروم إختلف عن أساليبهم فيه . فهو إعتمد ، عند العرب ، على طريقة الحرب القبلية التى تعودوا عليها فى بيئتهم الصحراوية ، وهى تعتمد على الكر والفر وسرعة الحركة وأعمال الفروسية التى تتجلى فيها الشجاعة الشخصية . فكانت حربهم حرب فدائية لم يتعود العدو على مجابهة أمثالها . كذلك كانت الحالة المتردية التى كانت عليها الدولتان الفارسية والبيزنطية وحالة الإنهاك التى كانا عليها كان لها أكبر الأثر فى إحلال النصر عليهم وإيقاع الهزيمة بقواتهم التى كانت تقاتل بلا روح ولا حماس ولا إيمان . ولقد أتعبت الحرب الطويلة التى خاضتها الدولتان كلا الدولتين الكبيرتين واستنفدت قواهما وعطلت مواردهما وأربكت إقتصادهما . كذلك كان للاضطهاد الدينى الذى وقع على شعوب هاتين الدولتين للبلاد الواقعة تحت حكمهما من أهم الأسباب التى أدت إلى إنجاح غزوات المسلمين ضدهما ، بسبب المساعدات والتسهيلات التى كانوا يقدمونها للجيوش الإسلامية الفاتحة لبلادهم . وقد كانت هذه الشعوب تطمع فى التحرر من احتلال الفرس والروم لبلادهم وترحب بالمسلمين الذين جاءوا ليطبقوا شرع الله الذى ساوى بين عباده جميعاً رغم اختلاف أجناسهم وألوانهم .

أما عن أحداث الفتوح الإسلامية ، فقد دلت سياسة أبى بكر فيها على بعد نظره وقوة عزيمته وجرأته حين وجه جيوشه لغزو دولتىْ الفرس والروم فى وقت

واحد ، وقد حال بذلك دون إتحاد القوتين الكبيرتين فى جبهة واحدة لضرب المسلمين . وقد إتخذ القتال ، فى بادئ الأمر ، طابع الإشتباكات المتفرقة التى يخوضها الفرسان وطليعة الجيش جساً لنبض قوة العدو ، ثم ما لبثت أن تحولت هذه الإشتباكات إلى معارك طاحنة انتهت بتغلب المسلمين على قوات الفرس والروم ، ثم مطاردة قواتهم المندحرة والإستيلاء على الاسلاب والغنائم والبلاد والمفتوحة . ولم يكن أمام أهل هذه البلاد سوى الرضوخ لشروط الفاتحين ، وهى إما إعتناق الإسلام والدخول فى حمايته والتمتع بما للمسلمين من حقوق وآداء ما عليهم من واجبات ، وإما البقاء على دياناتهم مع دفع الجزية . أما عن تفاصيل الفتح فإنها جرت كالتالى :

أ - فتح *العراق* وفارس :

عهد الخيفة أبو بكر الصديق إلى المثنى بن حارثة الشيبانى بغزو العراق ، بعد فراغه من حرب المرتدين فى منطقة البحـــرين ، ثم أسند قيادته الى خالد بن الوليد ، بعد أن فرغ من قتال المرتدين من بنى حنيفة فى اليمامة سنة ١٢هـ/٦٣٣ م فسار خالد بقواته من اليمامة التى انضمت لقوات المثنى بالبحرين وتوجهت القوتان من البحرين إلى العراق . وكان الفرس يحكمون العراق ، وكان قائدهم الكبير « هرمز » يحكمها نيابة عن ملك الفرس . ووصلت قوات المسلمين قوات إضافية جديدة لتعزيز القوات الغازية بقيادة القعقاع بن عمرو التميمى . ولمَّا اكتمل جيش خالد بن الوليد انطلق به إلى داخل العراق بتشكيل مكون من ثلاثة فرق ، قاد المثنى بن حارثة فرقة ، وقاد القائد اليمنى عدى بن حاتم الطائى فرقة وقاد خالد الفرقة الثالثة بنفسه ، وخرجوا متتالين ، وتواعدوا باللقاء عند منطقة الحفير ، وهى منطقة مياه قرب

البصرة . وهنالك التقت القوات الإسلامية مع قوات هرمز الفارسية وكانت نتيجة اللقاء هزيمة الفرس ومقتل هرمز وفرار من بقى من رجاله على قيد الحياة .وقد عرفت هذه المعركة أيضاً بموقعة ذات السلاسل لأن قائد الفرس قيد جنوده بالسلاسل حتى لا يفروا من لقاء العدو . وواصلت الجيوش الإسلامية سيرها حتى بلغت موضع البصرة الحالى والتقت هنالك بقوات للفرس أوقعت بهم الهزيمة . ثم سارت القوات الغازية وعبرت الفرات وأخضعت قبائل بنى تغلب العربية هناك ، ثم استولت على مدينتى الحيرة والأنبار . ومن الحيرة توجه خالد ، على رأس قواته ، إلى عين التمر ففتح حصنها عنوة . ثم سار بعد ذلك شمالاً حتى وصل الغراض ، على حدود الشام والعراق والجزيرة ، وهنالك إشتبك مع قوات الفرس فى معركة كبيرة كان النصرفيها حليفه ، ثم عاد خالد بقواته إلى الحيرة ، وهنالك وجد فى انتظاره أمر الخليفة بالانتقال من العراق إلى الشام لمساعدة جيوش المسلمين التى توجهت لفتح الشام وكانت آنذاك فى وضع حرج .كما أن حرب الروم كانت تستلزم شخصية قيادية كبيرة سبق لها محاربة الروم مثل شخصية خالد بن الوليد . وقد أمر الخليفة خالد بترك إمرة جيش العراق للمثنى بن حارثة ، وأن يسير بنصف القوات إلى الشام . وقد قام خالد بتنفيذ أمر الخليفة ، الذى ما لبث أن وافاه الأجل ، وتولى الخلافة من بعده عمر بن الخطاب . وكان أبو بكر قد أوصى عمراً وهو على فراش الموت ،بأن يرسل إلى المثنى بن حارثة مدداً يساعده على حربه فى العراق بدلاً من القوات التى اصطحبها خالد معه حين توجه للقتال فى الشام .

ولما ولى عمر الخلافة ، لم يعمل على إعادة خالد الى العراق وأستبقاه فى الشام ، وأرسل نجدة إلى المثنى بن حارثة بقيادة أبى عبيد بن مسعود الثقفى ، وكتب للمثنى بجعل قيادة الجيش العامة فى العراق لأبى عبيد والعمل

تحت إمرته . وقد ولى عرش الفرس آنذاك من الأسرة الحاكمة الفارسية إمرأة تدعى بوران ،وقد وجهت هذه السيدة سياستها إلى طرد العرب من ريف العراق ، وأسندت قيادة الجيش الذى يقاتل العرب لأمهر قوادها رستم . وتوالت المعارك بين المسلمين والفرس ، حتى وقعت بينهما معركة الجسر الشهيرة التى هزم فيهاالمسلمون وقتل فيها قائدهم أبو عبيد الثقفى تحت أرجل الفيلة التى كان الفرس يستخدمونها فى حروبهم ،واستشهد معه أربعة آلاف بين قتيل وغريق فى نهر الفرات . واستطاع المثنى بن حارثة أن ينسحب بجزء من الجيش سالماً . وكان وقع هزيمة معركة الجسر على المسلمين وعلى الخليفة عمر شديداً ، وقيل أن عمراً بقى سنة لايذكر أمر العراق لمصاب أبى عبيد والمسلمين فيها . ثم أرسل عمر مدداً للمثنى من رجال القبائل الذين سبق ارتدادهم من أهل اليمن من قبيلتى بجيلة وكندة اليمنيتين . وقد التقت القوات الإسلامية وعددها ١٢ ألف جندى مع قوات الفرس فى أكثر من مائة ألف جندى عند البويب ، على نهر الفرات ، وانتهت المعركة بنصر لمسلمين على الفرس ، وقد فتح لهم هذا النصر الطريق إلى عموم العراق فاستولوا على كل المنطقة الممتدة بين دجلة والفرات من ار ض السواد . كذلك أوقع الرعب والفزع فى قلوب الفرس الذين يئسوا من إمكانية إحراز النصر على المسلمين ، ففت ذلك فى عضدهم ومن ناحية أخرى شجع المسلمين على مواصلة الفتح فى أرض فارس نفسها . وقد توفى المثنى بن حارثة الشيبانى بعد هذه المعركة متأثرا بجراحه بعد أن أبلى فى فتح العراق بلاءً عظيماً جعل التاريخ يحفر إسمه خلاله بأحرف من نور .

وأرسل الخليفة عمر الصحابى الجليل سعداً بن أبى وقاص ليتولى قيادة جيوش المسلمين المحاربة للفرس بعد وفاة المثنى ، وضم إلى هذا الجيش بعض القواد والأدباء والشعراء ، أمثال : طليحة بن خويلد ، وعمر بن معديكرب ، والأشعث بن قيس الكندى .

وتولى آنذاك عرش مملكة الفرس يزدجرد بن شهريار ، آخر ملوك بنى ساسان بعد أن خلع بوران عن العرش ، وجهز جيشاً كبيراً لطرد العرب من العراق وجعل قيـادة هذا الجيش لقائده العظيم رستم . وسار سعد بقواته إلى قرية القادسية ، التى كانتَ تقع جنوب غربى بغداد الحالية وغرب الكوفة ،بثمانية آلاف مقاتل حيث التقى هنالك بجيش الفرس الذى زاد عدده عن الثلاثين ألف مقاتل تتقدمهم إعداد من الفيلة . واستطاع سعد أن يستثير القيادة الفارسية وأن يجرها إلى البـدء بالقتال ، وبالفعل دار القتال بين الطرفين ، الذى إستمرأربعة أيام ، وسدد المسلمون سهامهم ، بصورة مكثفة ، وبخاصة إلى عيون الفيلة ليشلوا حركتها ويربكوا حركة جيش الفرس . وقد نجحت الخطة ، وانتهت معركة القادسية بهزيمة ساحقة للفرس وقتل رستم نفسه فى المعركة وقتل عدد كبير من قواده وهرب باقى جند الفرس من ميدان المعركة بعد أن تركوا وراءهم الكثير من الزاد والسلاح والأسلاب ، وذلك سنة ١٦هـ / ٦٣٧م .وقد فتحت هذه المعركة الباب أمام الفاتحين المسلمين لغزو فارس نفسها واسقاط امبراطوريتها الساسانية .

عند ذلك كتب سعد إلى الخليفة عمر يبشره بالنصر والفتح ، فكتب إليه أن يتوقف عن متابعتهم حيث وصلت قواته ، وأن يبنى عاصمة جديدة للمسلمين فى تلك البلاد ، فبنى مدينة الكوفة سنة ١٦هـ ، وأسس بها مسجدها الجامع واختط الناس بها منازلهم ،وجعلها حاضرة للمسلمين فى هذه البلاد .

بعد ذلك أذن الخليفة عمر لابن أبى وقاص أن يواصل زحفه على بلاد فارس ، فواصلت القوات الإسلامية زحفها داخل اراضى الدولة الفارسية حتى وصلت إلى طيسفون (المدائن) عاصمة بلاد الفرس . ودارت معركة رهيبة بين

الفرس والعرب على أبواب العاصمة بعد حصار لها دام مدة شهرين ، وأخيراً نجحت القوات الإسلامية فى اقتحامها ، وقبل سقوطها هرب منها الملك يزدجرد إلى نواحى أصبهان . ولمّا دخل المسلمون المدائن إغتنموا منها الكثير من الأموال والزخائر والتحف التى كان يقتنيها ملوك آل ساسان . وقد شجع سقوط المدائن فى يد المسلمين ، والى البحرين العلاء بن المغيث الحضرمى ، أن يقوم بغزو السواحل الفارسية بناءً على توجيه من الخليفة . فاستولت قواته على منطقة الأهواز واقليم خوزستان . وفى سنة ٢٠ هـ ، جمع الملك الفارسى يزدجرد جيشاً كبيراً قوامه مائة ألف مقاتل عند أصبهان لمحاربة المسلمين فى معركة نهائية تكون فاصلة بينه وبين المسلمين ، إما يستعيد بها مُلك ساسان أو يُقض على دولته وإسمها إلى الأبد . وتحرك يزدجرد بهذا الجيش الفـــارسى الكبير من عند أصبهان وتوقف عند نهاوند ليلتقى بالجيش الإسلامى الذى أمر الخليفة عمر باعداده ليدخل المعركة الفاصلة مـع الفرس بقيادة قائـده الكبير النعمان بن مقرن . وفى سنة ٢١هـ/٦٤١م ، وعند نهاوند ، وقعت معركة نهاوند ، التى انتصر فيها المسلمون على الفرس إنتصاراً ساحقاً خسر الجيش الفارسى فيها نصف عدده على وجه التقريب وفر الباقون بين جريح وطريد . وقد أطلق كتاب المسلمين على هذه المعركة بفتح الفتوح ، لأن المسلمين نتيجة لها استولوا على ثلاثة أرباع امبراطورية فارس ، وعمت الدعوة الإسلامية معظم بلاد الفرس واندحرت فيها المجوسية الوثنية .

واتجهت جيوش المسلمين ، بعد فتح نهاوند ، إلى الأراضى الشرقية لدولة فارس لفتحها ، فسار النعمان بن مقرن إلى همدان وفتحها . وكذلك توجه القائد عبد الله بن بديل إلى أصبهان ، وعقد صلحاً مع أميرها على أن يؤد أهلها الخراج والجزية مقابل تأمينهم على أموالهم وأنفسهم وأراضيهم . وقام القائد عروة

إبن زيد الطائى سنة ٢٢ هـ بفتح إقليم الرى . وفى نفس العام قام القائد حذيفة إبن النعمان بفتح إقليم أذربيجان وفرض الخراج والجزية على أهله . وتوجه القائد الأحنف بن قيس التميمى إلى اقليم خراسان ، ففتح مدن هرات ونيسابور وسرخس . وأخذ هذا القائد يتعقب الملك الفارسى يزدجرد الذى أخذ فى التنقل من بلد إلى آخر داخل بلاد ما وراء النهر حتى بلغ أرض الصين . ولقد استمر حال يزدجرد فى التدهور وظل يعيش متخفياً فى البلاد حتى قُتل فى خراسان سنة ٣١ هـ فى خلافة عثمان . وبموت يزدجرد إنتهت شجرة العائلة الساسانية الفارسية الحاكمة وتمزقت دولة الساسانيين ، وبذلك تحققت دعوة الرسول ﷺ عليهم حيث قام مليكهم كسرى أنوشروان بتمزيق كتاب الرسول إليه حين أرسل يدعوه إلى الإسلام ، فدعى الرسول ربه بتمزيق مُلك الأكاسرة .

ب - فتح الشام :

كان المسلمون قد شرعوا فى غزو أطراف الشام الجنوبية فى حياة الرسول ﷺ ، حيث كانت معركة مؤته فى جمادى الأولى من سنة ثمان للهجرة ، ثم تلتها سرية أسامة بن زيد التى توفى الرسول ، وهى متأهبة للخروج فأكمل الخليفة أبو بكر سيرها ، وكانت تتكون من سبعمائة مقاتل كان الرسول قد ندبهم للمسير إلى تخوم البلقاء (شرق الأردن) حيث دارت معركة مؤته ، وقد حققت هذه السرية انتصاراً على العرب المتنصرة المقيمة على أطراف الشام . وبعد أن فرغ أبو بكر من حرب الردة أرسل قواته إلى الشام فى نفس الوقت الذى أرسل فيه قواته إلى العراق لنشر الإسلام وتوسعة الدولة الإسلامية التى وضع الرسول لبنتها . وقد كتب أبو بكر إلى أهل الحجاز واليمن يدعوهم للجهاد ويرغبهم فى غنائم الروم ، فسارع الناس ، ومنهم الطامع والمحتسب ، تلبية دعوته

وتوافدوا على المدينة من كل مكان للخروج للفتح ، ولقد تيسر لأبى بكر ، فى أواخر سنة ١٢هـ/٦٣٣م أن يجهز عدة جيوش لغزو الشام ، وقد أسند قيادة كل جيش منها لقائد شجاع . فجعل يزيد بن أبى سفيان على رأس جيش دمشق ، وجعل القائد اليمنى شرحبيل بن حسنة الكندى على جيش وجهته الأردن ، وعمرو بن العاص على جيش وجهته فلسطين ، وأبو عبيدة بن الجراح على جيش وجهته حمص ، وتوجه كل جيش من هذه الجيوش إلى وجهته التى وجه إليها . وبدأت الاصطدامات الأولى مع قوات الروم ، فى وادى عربة بفلسطين ، مع جيش عمرو بن العاص . واستطاع جيش عمرو أن ينتصر على قوات الروم التى كانت تعسكر هناك ، وأن يجبرها على الإرتداد إلى غزة . وتقابل جيش عمرو مع جيش يزيد وإتجه الجيشان إلى الشمال ، إلا أن القائدين العربيين فوجئا بمواجهة جيش كبير حشده هرقل قيصر الروم شمال فلسطين لوقف زحف القوات العربية فى بلاد الشام . كذلك تحرج موقف القوات الإسلامية بعد ارتداد حاكم دومة الجندل عن محالفة المسلمين وإعلان ولائه للروم ، عندئذ كتب عمرو إلى الخليفة يطلب النجدة . وقد رأى أبو بكر إذ ذاك أن فتح الشام ونجدة القوات الإسلامية المقاتلة هناك تكون لها الأهمية الأولى عن فتح العراق ، ومن ثم كتب إلى خالد بن الوليد ، الذى كان يقاتل فى العراق مع جيش المثنى بن حارثة الشيبانى ، بأن ينتقل من العراق إلى الشام لقيادة الجيش الإسلامى هناك ، وتوصيل النجدة للقوات الإسلامية بالشام . ولقد نفذ خالد أمر الخليفة ، وخرج من الحيرة بنصف جيش العراق متجهاً إلى الشام . ونجح خالد ، وهو فى طريقه إلى الشام ، أن يستولى على دومة الجندل ، وعلى بصرى ، مفتاح قلب سوريا . ثم سار سنة ١٣ هـ بالجند إلى أجنادين ، وهنالك إشتبك خالد بقواته مع جيش الروم ، الذى كان يقوده تيودور ، أخو هرقل فى معركة أجنادين الشهيرة ، التى

انتهت بانتصار المسلمين ، وهروب تيودور من المعركة إلى حمص ، وبانتصار المسلمين فى أجنادين صارت كل فلسطين فى أيديهم .

توفى الخليفة أبوبكر فى تلك الأثناء وتولى الخلافة عمر بن الخطاب ، وفى السنة الأولى من خلافة عمر ، تركز القتال فى الشام عند منطقة الأردن ، حيث إنتصر المسلمون على الروم عند نيسان ومرج الصفر ، وانفتح بذلك طريق دمشق أمامهم ، فساروا إليها وحاصروها من جميع الجهات ، وقد إشترك فى حصارها جميع قادة جيوش المسلمين بالشام ، وكانت معركة دمشق بالشام تشبه معركة المدائن بالعراق . ولم تقاوم حامية دمشق كثيراً ، واستسلمت بعد حصار لها دام ستة شهور وطلب حاكمها الصلح والأمان ، فدخلتها القوات الإسلامية بعد أن اعطت أهلها الأمان . وبعد سقوط دمشق ورد أمر الخليفة عمر للقوات المقاتلة بعزل خالد بن الوليد عن إمرة الجيش وجعل الإمرة مكانه للقائد أبى عبيدة بن الجراح . وقد امتثل خالد لأمر الخليفة وسلم القيادة لأبى عبيدة ، وخدم تحت إمرته جندياً عادياً مخلصاً كأى جندى عادى .

وغضب هرقل لسقوط دمشق فى يد المسلمين ، وصمم على تكوين جيش كبير يوقف به زحف المسلمين على الشام وينتزع به من أيديهم ما استولوا عليه من بلدان . وقد شكل هرقل هذا الجيش من جند الروم وعرب الشام واقليم الجزيرة وجند أرمينية ، وأراد أن يكون اللقاء مع المسلمين ، هذه المرة ، حاسماً ونهائياً . ورأى المسلمون ، بعد ما علموا من أمر جيش هرقل الكبير ، الانسحاب من دمشق وتجميع القوات الإسلامية حيث تجمع جيش الروم عند حوض نهر اليرموك . وفى سنة ١٥ هـ/٦٣٦م ، وعند اليرموك دارت معركة كبيرة بين الجانبين ، انتهت بهزيمة ساحقة لجيش الروم وبنصر كبير للمسلمين .

وتشتتت ، على أثر الهزيمة ، قوات الروم ولاذ من نجا مَن الموت بالفرار أو الإستسلام . وكان هرقل مقيماً آنذاك بأنطاكية ، فلمّ بلغه خبر هزيمة جنده قرر الانسحاب من الشام إلى عاصمته القسطنطينية ، وقال عبارته المشهورة التى سجل بها التاريخ تلك الهزيمة الساحقة التى حلت بالروم : « عليك يا سوريا السلام ونعم البلد هذا للعدو » .

واتجهت القوات الإسلامية لاتمام فتح مدن الشام ، فتوجه أبو عبيدة ومعه خالد بن الوليد ففتحوا اللاذقية وحلب وأنطاكية . واتجه عمرو بن العاص بجيشه إلى فلسطين لاقرار الأمور فيها ، كذلك فعل شرحبيل بن حسنة مع الأردن ، وبقى يزيد بن أبى سفيان فى دمشق . وقد وقع على جيش عمرو بن العاص مسئولية فتح بيت المقدس ، فسار اليها وقام بمحاصرتها ، ولَمّا إشتد حصاره لها ، قرر بطريرقها سفرنيوس التسليم على أن يأتى الخليفة عمر بنفسه ليتسلم المدينة ويقرر شروط تسليمها . فأرسل عمرو بذلك إلى الخليفة ، فوافق عمر على الحضور لاستلام المدينة المقدسة بنفسه . وخرج عمر من المدينة ، واجتمع بقواده فى الجابية ، ثم توجه إلى بيت المقدس وتسلمها سنة ١٥ هـ/٦٣٦م ، وأعطى لأهلها عهداً أمنهم فيه على أموالهم وعقيدتهم وأماكن عبادتهم ، وسلمّ لهم كتاب الصلح . وبسقوط بيت المقدس فى يد المسلمين تكون فلسطين والشام كلها قد صارت للمسلمين ودخلت كجزء هام من أجزاء الدولة العربية الإسلامية الكبرى .

جـ - فتح مصر :

كانت الضرورة الحربية تقتضى على العرب ، بعد أن تم لهم فتح بلاد الشام ، أن يفتحوا مصر ، حتى لا يعاود الروم مهاجمتهم من هذه الناحية التى

تقع فى نطاق دولتهم . ولم تخف عن عمرو بن العاص ، أحد القواد الأربعة الذين ندبهم أبو بكر لفتح الشام ، تلك الحقيقة وغيرها من المزايا الاقتصادية التى تعود على الدولة الإسلامية من وراء ضم مصر إلى حوزتها . وقد كان عمرو بن العاص أكثر الناس معرفة بأهمية مصر وغنى مواردها فقد زارها فى تجارته قبل الإسلام عدة مرات ، وكان عمرو يتاجر فى الجلود والعطور . واقترح عمرو بن العاص على الخليفة حين إلتقى به فى الجابية سنة ١٨ هـ / ٦٣٨ م ، أن يسير لفتح مصر . فلم يجبه الخليفة آنذاك على طلبه لانشغال المسلمين فى فتح الشام ، ولم تكن من سياسة الخليفة عمر أن يفتح على المسلمين جبهتين للحرب فى وقت واحد . ولما أبدى الخليفة تخوفه على المسلمين من هذا الفتح ، قام عمرو بتهوينه عليه والإقلال من شأن قوة الروم فعهد إليه بالفتح . وعقد عمر لعمرو لهذا الفتح القيادة على جيش قوامه أربعة آلاف مقاتل كلهم من القحطانية اليمنية ، ثلثهم من قبيلتى عك وغافق والثلثان من جهينه وحضرموت . فسار عمرو بجيشه من قيسارية بفلسطين فى المحرم سنة ١٩هـ/٦٣٩م قاصداً مصر ، ولما وصل العريش إنضم إلى جيشه رجال من قبائل لخم وراشده اليمنيتين ، وكانت هاتان القبيلتان قد توطنتا فى حوف العريش قبل الإسلام ، مما سهل عملية فتح المدينة التى لم تكن بها حامية رومانية ، وبعد سقوط العريش تابع الجيش الاسلامى سيره إلى الفرما (بورسعيد الحالية) مخترقاً الطريق الذى يسلكه المهاجرون والفاتحون والتجار والحجاج منذ أقدم العصور . وقد كانت الفرما حصينة ، وهى أول حصن من سلسلة حصون الروم على الساحل المصرى ، وهى مفتاح مصر ومدخلها من ناحية الشرق ، فحاصرها عمرو لمدة شهر ثم سقطت فى يده ، ومضى الجيش الإسلامى فى أرض مصر حتى وصل بلبيس (بمحافظة الشرقية) ، عاصمة إقليم الحوف . وقد التقى الجيش الإسلامى عند بلبيس بحامية عسكرية للروم ودار قتال بينهما إنتصر فيه المسلمون

ودخلوا المدينة بعد أن إستولوا عليها . وبعد ذلك سار عمرو بجيشه من بلبيس إلى قرية أم دنين على النيل شمالى حصن بابليون (منطقة الأزبكية بالقاهرة الحالية) وطليعة الدفاع عن الحصن . وقد كانت أم دنين حصينة بجوارها مرفأ سفن كبير ، وقد واجه عمرو بها مقاومة شديدة فأرسل للخليفة عمر يطلب المدد . فأرسل له أربعة آلاف مقاتل فيهم عدد من الصحابة ، منهم : الزبير بن العوام ، وعبادة بن الصامت ، والمقداد بن الأسود ، ومسلمة بن مخلد الأنصارى . والتقى بعد وصول هذا المدد ، الجيش الإسلامى مع قوات الروم التى خرجت لقتال المسلمين عند عين شمس بقيادة القائد الرومانى تيودور ، وانتصرت القوات الإسلامية على الروم فى هذه المعركة ، واستولت بعدها على أم دنين وعين شمس . ثم تقدمت ، بعد ذلك ، القوات الإسلامية لفتح حصن بابليون ، آخر قلاع الروم الحصينة بأرض مصر ، ومقر إقامة المقوقس ، نائب امبراطور الروم فى حكم مصر . وكان الحصن منيعاً ، وقد أحاطه الروم بخندق مملوء بالماء ، فحاصره المسلمون من جميع نواحيه مدة سبعة أشهر . ولمّا إشتد حصار المسلمين على الروم والقبط فى الحصن رأى المقوقس أن يطلب الصلح من عمرو بن العاص ، فوافق عمرو على ذلك . وأرسل عمرو قائده الصحابى الجليل عبادة بن الصامت يعلن للمقوقس شروط الفاتحين المسلمين ، وهى لم تختلف عن شروطهم فى أى فتح ، وهى : إما الإسلام أو الجزية أو القتال . ولمّا عرض المقوقس على ملك الروم هرقل هذه الشروط رفضها وطلب من المقوقس الاستمرار فى القتال ففشلت بذلك تدابير الصلح . وواصل المسلمون حصارهم للحصن ، ولمّا ضاقوا من طول حصاره ، قام بعض الفدائيين المسلمين وعلى رأسهم الصحابى الجليل الزبير بن العوام بتسلق أسوار الحصن وفتحه وهم يكبرون ، فدخل الرعب فى قلوب جند الحصن وصاروا يقاتلون

المسلمين وهم خائفون . ولما رأى المقوقس أنه لا قبل له بمقاومة هؤلاء المحاربين المستبسلين ، أرسل إلى عمرو ، ثانيةً ، يطلب الصلح . فوافقه عمرو على الصلح مقابل دفع الجزية . وانتهى الصلح بين الطرفين بتسليم حصن بابليون للمسلمين مقابل انسحاب جيش الروم منه خلال أيام ، لا يحملون معهم إلا أقواتهم ، مع التعهد بدفع الجزية للمسلمين . وبالفعل تم تسلم المسلمين للحصن مستهل المحرم سنة ٢٠هـ/ أبريل ٦٤٠م . وبعد ذلك أرسل عمرو بن العاص حملة من جيشه لفتح الفيوم جعل قيادتها لربيعة بن عرفطة الصدفى ، وحملة لفتح الصعيد الأوسط بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى السرح . وحملة ثالثة لفتح جنوب مصر بقيادة عقبة بن عامر الجهنى . وكان على المسلمين ، بعد ذلك ، أن يتجهوا لفتح الاسكندرية ، عاصمة مصر الرومانية ، والاستيلاء عليها بعد أن إنسحبت القوات الرومية إليها . وقد أخذ الروم يحصنون المدينة براً وبحراً حتى لا تسقط فى يد المسلمين ، وهم يعلمون أن معنى سقوط العاصمة فى أيدى المسلمين زوال سيادتهم نهائياً من على مصر . ولقد بعث عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر يستأذنه فى فتح الأسكندرية ، فأذن له ، فسار إليها فى ربيع الأول سنة ٢٠هـ/٦٤٠م . ومـا أن وصلت قوات المسلمين إلى الاسكندرية ، بعد التغلب على الجيوب الصغيرة التى قابلتها فى طريقها إليها ، قامت بحصارها لمدة أربعة شهور ، توفى هرقل امبراطور الروم أثناءها ، فعمل خلفاؤه على إنهاء الحرب فى مصر للتفرغ لحل مشاكلهم الداخلية داخل الإمبراطورية . وتحقيقاً لذلك ، فقد أمرت الإمبراطورة مارتينة ، التى تولت الوصاية على العرش بعد موت هرقل ، المقوقس بالعودة إلى مصر وطلب الصلح النهائى مع عمرو بن العاص والإنسحاب من مصر نهائياً . فجاء المقوقس لعمرو ، الذى رحب به ، وعقدت بين الطرفين معاهدة ، عُرفت بمعاهدة الاسكندرية ، تم

بمقتضاها جلاء الروم عن الاسكندرية . ولم تنته سنة ٢١هـ/٦٤١م حتى أصبحت مصر كلها فى قبضة العرب ، وولاية من ولايات الدولة العربية الإسلامية الكبرى . ولقد اختط عمرو بن العاص عاصمة جديدة لمصر هى الفسطاط ، بدلاً من الاسكندرية ، قرب حصن بابليون (بمصر القديمة) ، كذلك إبتنى أول جامع له فيها ، وهو الشهير بجامع عمرو ، أو الجامع العتيق . وبذلك دخلت مصر طوراً جديداً من أطوار تاريخها ، هو الطور العربى الإسلامى .

د - فتح المغرب :

لمّا استقر للعرب فتح مصر ، فكروا فى تأمينها من ناحية الغرب بعد أن أمنوها من ناحية الشرق ، حتى لا يهاجمها الروم من هذه الناحية التى كانت تمثل جزءً من مستعمراتهم . وفى سنة ٢٢ هـ / ٦٤٢ م توجه عمرو بن العاص إلى إقليم برقة (الجزء الشرقى من ليبيا) ، واستولى عليه بعد أن هزم الحامية الرومية الصغيرة التى كانت هناك . وفرض عمرو الجزية على أهل برقة ، ثم تابع سيره بجيشه غرباً حتى وصل إلى مدينة طرابلس الغرب التى إفتتحها عنوة بعد أن تغلب على قوات الروم بها . ثم كتب عمرو إلى الخليفة عمر يطلب منه الإذن له بافتتاح باقى الساحل الأفريقى الشمالى ، إلا أن عمراً نهاه عن ذلك وطلب منه العودة إلى مصر بجنوده فعاد إليها . توفى عمر سنة ٢٣ هـ ، وتولى الخلافة بعده عثمان بن عفان ، وفى خلافة عثمان عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر ، وتولى ولايتها من بعده عبد الله بن سعد بن أبى السرح . وفى سنة ٢٦ هـ قام الوالى إبن أبى السرح ، على رأس حملة لفتح شمال إفريقية ، فتوجه من الفسطاط حتى إفريقية (تونس) ، ونجحت هذه الحملة فى أن توقع الهزيمة بالروم عند سبيطلة ، ولكن المسلمين إرتدوا عن مواصلة الفتح رغم هذا

النصر ، وكان سبب هذا الارتداد بداية الفتنة الكبرى التى وقعت فى عهد خلافة عثمان وانشغال دولة الإسلام بمشاكلها الداخلية .

رابعاً: الفتنة الكبري

وقعت أحداث هذه الفتنة فى أواخر عهد خلافة عثمان بن عفان ، الخليفة الراشد الثالث ، وتطورت أحداثها حتى إنتهت بمصرع أول خليفة من خلفاء المسلمين قتيلاً بسبب الحكم . حقيقةً أن الإغتيال والقتل قد وقعا على الخليفة عمر بن الخطاب ، قبل عثمان ، لكن إغتيال وقتل عمر تم على يد شخص واحد ولدافع شخصى لم يكن له علاقة بالسلطة أو الحكم ، أما إغتيال وقتل عثمان فقد جاء فى أعقاب فتنة كبيرة أصابت المجتمع الإسلامى أيام حكمه وقتل الخليفة بسببها مظلوماً وانفتح باب الشر فى عالم الإسلام ولم ينغلق حتى الآن .

ولقد كانت جذور هذه الفتنة كامنة فى باطن نفسية العرب من قبل الإسلام ، وقد ظلت كامنة ولم تظهر على السطح إلا فى خلافة عثمان بن عفان ، أو بمعنى أصح ، غداة إختيار عثمان خليفة للمسلمين سنة ثلاث وعشرين للهجرة . ولقد جاء هذا الإختيار بين إثنين بارزين من الستة رجال من الصحابة ، الذين رشحهم عمر للخلافة ، وهو على فراش الموت ، ليكون الخليفة على المسلمين واحداً منهم . هذان الرجلان هما على بن أبى طالب وعثمان بن عفان ، على الهاشمى وعثمان الأموى . وقد بدى أن إختيار عثمان للخلافة ، دون على فيه تجاوز لحق الهاشميين فى الحكم ، لذا أوجدت هذه النتيجة معارضة من بنى هاشم من أول الأمر ، وقد كانوا يعتقدون أن علياً أحق بالخلافة من عثمان . ولقد أذكى هذا الأمر روح التنافس القديم الذى كان بين

بنى هاشم وبنى أمية على السيادة والزعامة فى مكة ، وإمتدتْ جذوره إلى ما قبل الإسلام . ولقـد وقع هذا التسابق على الرئاسة والزعامة بين البيتين ، قبل الإسلام ، بين هاشم بن عبد مناف بن قصى وبين إبن أخيه أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . وكان هاشم قد عُنى باطعام الحجيج إلى بيت الله الحرام وحمل الماء إليهم ، وقد ساعدته ثروته على ذلك ، فحسده إبن أخيه أمية بن عبد شمس على المكانة التى أحرزها والسيادة التى حققها على قريش . وحاول أمية تقليد عمه هاشم فى خدماته التى يؤديها للجميع ولكنه عجز فى ذلك مما أدى إلى شماتة بعض القرشيين فيه مما أدى إلى زيادة حقده وحسده على عمه . ولمّا إشتد التنافس على الرئاسة فى قريش بين الرجلين إحتكما إلى كاهن من خزاعة ليحكم أيهما أعز نفراً وأكثر مكانة وفضلا . وقد اشترط الكاهن عليهما بأن من يُغلب يخرج خمسين ناقة سود الحدق لتنحر بمكة وأن يرحل عن مكة ويظل بعيداً عنها مدة عشر سنوات . وجاء القداح لصالح هاشم فحكم الخزاعى لصالحه ، وحكم على أمية أن ينحر الإبل الخمسين ويطعم لحومها للقرشيين وأن يغادر مكة مدة عشر سنين . فأمتثل أمية لهذا الحكم وذبح الإبل وخرج من مكة إلى الشام ليظل ويقيم بها مدة العشر سنين التى حكم القداح بها . وقد أدى ذلك إلى قيام أول عداوة بين بنى أمية وبنى هاشم .

ولمّا صارت النبوة فى بنى هاشم وبُعث محمد نبياً من بينهم ، أعلت الرسالة المحمدية من مكانة بنى هاشم فرجحت بذلك كفتهم على كفة أبناء عمومتهم من بنى أمية . وتجلى العداء واضحاً بين الفريقين ، قبل الهجرة ، أثناء المقاطعة التى قامت بها قريش ضد بنى هاشم وبنى المطلب حرباً على الرسول وضغطاً على آله للتخلى عن نصرته ، وبعد الهجرة فى وقوف معظمهم يوم بدر ضد الرسول ، وقيام عتبة بن ربيعة الأموى بقيادة جيش المشركين فى هذه المعركة ثم إشتدت العداوة بين الجانبين حين خرجت قريش بحلفائها إلى المدينة فى شهر

شوال من العام الثالث للهجرة ، بقيادة أبى سفيان بن حرب بن أمية ، لتثأر لنفسها من هزيمة بدر فى معركة أحد . على أن بنى أمية سرعان ما أخلصوا للرسول ، بعد فتح مكة ، فقد أسلموا جميعاً وعلى رأسهم زعيمهم أبو سفيان . وقد أعلى الرسول من شأن أبى سفيان يوم فتح مكة وعامله معاملة تنطوى على كثير من التسامح وأبقى له ما كان يتمتع به من نفوذ بين قومه وعشيرته ، فجعل داره أماناً لمن دخلها كما جعل البيت الحرام أماناً لمن دخل فيه . وفى أعقاب غزوة حنين أعطى الرسول من غنائم هوازن لأبى سفيان مائة من الإبل لدوره الكبير فى القتال فى هذه المعركة واستبساله فيها . كذلك صار معاوية بن أبى سفيان من صحابة الرسول ومن كتابه للوحى . وأسند الرسول إدارة بعض الولايات العربية إلى كبراء بنى أمية ، وجعل عتاباً بن أسيد بن أمية والياً على مكة ، وظل والياً عليها حتى خلافة أبى بكر . كذلك ولىّ الرسول سعيداً بن العاص بن أمية على صنعاء اليمن ، وأبان بن سعيد بن العاص على البحرين ، وعمرو بن سعيد بن العاص على تيماء وخيبر وتبوك وفدك ، وأبا سفيان بر حرب على نجران . وقد ظل كثير من بنى أمية عمالاً على البلاد فى عهد الخليفتين أبى بكر وعمر ، كما أسندت إلى بعضهم قيادة الجيوش فى حركة الفتوح الأولى ، فولى أبو بكر يزيداً بن أبى سفيان ، أخا معاوية ، قيادة أحد الجيوش الأربعة التى أنفذها لفتح الشام . كذلك عينه عمر بن الخطاب أميراً على دمشق أثناء خلافته . كما ولىّ الخليفة عمر معاوية بن أبى سفيان والياً على الأردن ، ولما مات أخوه يزيد أسند عمر إلى معاوية ما كان تحت يد أخيه من ولاية . بذلك أصبح لكبار الأمويين النفوذ فى الدولة العربية الإسلامية فى عهد عمر ، وأتيحت لهم الفرصة للتطلع للسيادة . فازداد حرصهم أول الأمر ، على الإحتفاظ بامارة البلاد التى فى أيديهم واستمرارهم عند حسن ظن الخلفاء بهم ، ثم أخذوا ، بعد ذلك ، فى العمل فى الخفاء للاستحواذ على السلطة والخلافة .

وفى الوقت الذى أحرز الأمويون فيه النفوذ والسلطة فى خلافة عمر نرى أن عمراً لم يعهد لأحد من بنى هاشم بامارة الجند خلال حملات الفتح ، كما أنه لم يول أحداً منهم ولاية فى جزيرة العرب ولا فى البلاد المفتوحة ، بل استبقاهم فى المدينة وإتخذ منهم مستشاريه . وقد علل البعض هذا التصرف من جانب عمر تجاه الهاشميين ، من أنه خشى خروجهم على سلطان المدينة إذا ما هم تفرقوا وصاروا عمالاً على ولايات الدولة . كذلك يرى البعض أنه حرص على إبقائهم خارج نطاق الحكم حتى لا يتعرضوا لانتقاد المحكومين الأمر الذى يقلل من مكانتهم ويسيء اليها .

ولقد جاءت الفرصة ، التى طالما إنتظرها الأمويون ، فى إحراز السيادة والزعامة على الهاشميين ، وذلك حين أُنتخب عثمان بن عفان الأموى خليفة للمسلمين . وقد كان عثمان فى حاجة لخبرة بعض رجال الأمويين فى الحكم والإدارة ليكونوا عوناً له فى حكم الدولة ، وقد أنس منهم الاخلاص والمعونة ولذلك قيل عن حكومته أنها صُبغت بالصبغة الأموية . وكان عثمان قد قام بعزل بعض ولاة البلدان الذين كانوا ولاة فيها على عهد عمر بسبب وقوع بعد الأحداث فيها ، فعزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وعين مكانه سعداً بن أبى وقاص ، ثم الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، ولمّا تذمر الناس من حكم الوليد عين مكانه سعيداً بن العاص . أما البصرة ، فقد كان أبو موسى الأشعرى والياً عليها من قبل عمر بن الخطاب ، وقد ظل والياً عليها مدة ست سنوات بعد وفاة عمر وفى خلافة عثمان ، ثم قام عثمان بعزله عنها وولى مكانه إبن خاله عبد الله بن عامر . وكانت ولاية الأردن ودمشق قد اجتمعت لمعاوية بن أبى سفيان فى عهد عمر ، فلما ولى عثمان الخلافة أمّره عليها ثم ضم إليه فلسطين وحمص وقنسرين ، وبذلك أصبح معاوية والياً على كل الشام بعد سنتين من تولى عثمان

أمر الخلافة . وكان يلى مصر عمرو بن العاص ، فأبقاه عثمان أثناء خلافته عاماً واحداً والياً عليها ، ثظم قام بعزله وولى عليها مكانه أخاه من الرضاعة ، عبد الله إبن سعد بن أبى السرح .

وهكذا نرى بنى أمية يسأثرون بالنفوذ والسلطة فى عهد عثمان ، وبرغم إثباتهم جدارتهم فى الحكم لتمرسهم وطول خبرتهم فيه إلا أن وقوع بعض الأحداث فى الأمصار أدى إلى المعارضه لهم وإتهام الخليفة باصطناع أقربائه والاستناد عليهم واستبدادهم فى البلاد التى تولوا أمرها وظلمهم لأهلها ، فوقعت فى هذه الأمصار الفتنة التى أدت بالثورة على الخليفة وإنتهت بقتله .

ولقد واجه الأمراء والولاة ، من بنى أمية وغيرهم ، فى الأمصار مشاكل عديدة ، مثـال ذلك ما تم فى الكوفة . فقد كتب سعيد بن العاص ، والى الكوفة ، إلى الخليفة عثمان يخبره بما صار فيها من تواجد عدد قليل من الصحابة بها ممن أسهموا فى الفتح ، وتزايد عدد الوافدين عليها من الأعراب والأعاجم حتى أنهم كادوا يستأثرون بالأمر فيها دون صحابة رسول الله . فبعث عثمان إلى سعيد يطلب منه أن يُجنب نفسه والناس الفتنة ، وأن يُقدِّم الصحابة على غيرهم من سكان الكوفة . وقد حذر الخليفة عثمان الناس فى المدينة من الفتنة بما ظهر فى الكوفة ، واقترح على الصحابة فى المدينة أن ينقلوا فيأهم من الحجاز إلى الأمصار ويستبدلوا أملاكهم فى الحجاز بغيرها فى البلاد المفتوحة . فرحب أهل المدينة بهذا الاقتراح ، وكان هنالك فريق من كبار الصحابة يملك المال الكثير فى الحجاز ولكنه لم يكن له من ترك الحجاز من بد واستثمار هذا المال خارجه ، بسبب السياسة التى وضعها عمر بن الخطاب فى منع خروج الصحابه إلى الأمصار حتى لا يفتتن الناس هنالك بهم . ولمّا قام عثمان بفك أسر الصحابة من قيود عمر رحبوا بهذا الاقتراح وسارعوا بشراء أراضٍ فى الأمصار

المفتوحة بأموالهم لخصوبتها وسهولة إستغلالها ، من ذلك ما قام به الصحابى الجليل طلحة بن عبيد الله ، فقد باع ما يملكه من أسهم خيبر لأهل الحجاز الذين ساهموا فى فتح العراق ، واشترى بثمنها بعض ممتلكاتهم من الأرض هناك . كذلك حذى حذوه كل من الزبير بن العوام ومروان بن الحكم وغيرهما من كبار الصحابة ، الأمر الذى أدى إلى تملك هؤلاء الصحابة لضياع واسعة فى الأمصار ، ولانتقال أصحابها من كبار الصحابة للعيش هناك . وهذه السياسة ، وإن كانت قد وسعت على الصحابة فى المعاش إلا أنها ساعدت على إنتشار الفتنة فى الأمصار ، وذلك لإلتفاف أهل الأمصار حول الصحابة وإفتتانهم بهم وقيادة بعضهم الثورة ضد الخليفة . وقد حدث ما كان يخشى منه عمر حين منع الصحابة عن الخروج للأمصار ودفع عثمان ثمن تلك التوسعة على الصحابة .

ومن الأحداث التى وقعت فى الأمصار وأغضبت الخليفة عثمان ، قيام بعض رجال البادية بمحاولة الاستيلاء على اراضى أهل الذمة وأهل الأمصار المفتوحة طمعاً فيها ، ولتحويلها إلى مراع لقطعانهم واعتبارهم ذلك حقاً مكتسباً لهم . لكن الخليفة عمر رفض هذا الأمر ووقف ضده بكل حزم والتزم بنصوص كتب التعاهد التى أبرمت مع أهل هذه البلاد والتى تعطيهم حق السيادة على أراضيهم ودفع الخراج عنها لو كانت فُتحت عنوة ، ودفع الضريبة العشرية عنها لو كان أهلها قد أسلموا وهم عليها عند الفتح ولم تفتح عنوة . ولقد أثار هذا التصرف من عثمان كبار رجال البادية ، فكانوا لذلك من كبار الثائرين ضده ووقود نار هـــذه الفتنة التى ثارت ضده وانطلقت من مراكز ثلاثة من الأمصار هى : الكوفة والبصرة ومصر .

ولقد إنطلقت الثورة على عثمان من حركتين ، إحداهما مخلصة صالحة

صادرة عن أحد صحابة رسول الله وهو أبى ذر الغفارى ، والثانية سيئة خبيثة حركهـا أحد شياطين اليهود ولم يكن يرد بالإسلام خيراً ، وهو عبد الله بن سبأ ، الذى يُعرف أيضاً بإبن السوداء . ولم يكن لأبى ذر ، الصحابى الجليل ، أى مطمع دنيوى فى دعوته للاصلاح ، فقد ساءه ما وجده فى المجتمع الإسلامى من تفاوت كبير بين الناس فى الثروة وثراء بعض القرشيين ، نتيجة لقرارات عثمان ، كذلك ساءه وقوع كثيرين من المسلمين فى ضائقة الفقر والعوذ بعد توقف حركة الفتوحات فى عهد عثمان . فانتهى هذا الصحابى الجليل على أن ذلك يُعتبر خروجاً من عثمان على سياسة الشيخين أبى بكر وعمر ومخالفة لهما . وقد خرج أبو ذر إلى الشام ، وهنالك لم يتوقف عن دعوته بالمطالبة بتخفيف الفروق بين الأغنياء والفقراء والأخذ بيد الفقراء . وقد خاف معاوية بن أبى سفيان ، والى الشام آنذاك ، من خطر دعوة أبى ذر التى قد تكون محركاً للثورة ضد دولة الخلافة ، فكتب بذلك إلى الخليفة . فبعث عثمان إلى أبى ذر يطلب منه العودة إلى المدينة فاستجاب أبو ذر وعاد إلى المدينة ، وأقام ، بناءً على طلبه ، فى قرية الربذة ، وهى قرية صغيرة مجاورة للمدينة وتبعد عنها مسافة ثلاثة أميال فقط ، واعتزل الناس هناك . إلا أنه من الإنصاف القول بأن دعوة أبى ذر لم تتعد فى معارضتها تصرفات عثمان وسياسته إلا بالقول ، دون الخروج عن طاعته ، أو القيام بأى عمل خارج قد يثير الاضطراب أو القلاقل ضد الخليفة . إلا أن دعوة أبى ذر لاقت هوى كثيراً من فقراء الشام ، وانتشرت فى أقاليم أخرى وبخاصة فى الكوفة بالعراق . ولقد إستند على هذه الدعوة الذين خرجوا على عثمان وثاروا عليه فيما بعد .

أما عبدالله بن سبأ ، فقد كان يهودياً من أهل صنعاء اليمن ، ويُعرف بابن السوداء لأن أمه حبشية سوداء ، إدعى الإسلام فى عهد عثمان ، ولم يكن

يضمر للإسلام وللمسلمين خيراً شأنه فى ذلك شأن سائر اليهود ، وهو يعتبر المحرك الأول للخروج وثورة الناس على عثمان بصورة عنيفة . فقد إستغل حالة القلق التى كان عليها الناس آنذاك وحالة التغير التى أصابت المجتمع الإسلامى وتلك النقلة التى حدثت له من عصر عمر المتشدد إلى عصر عثمان المنفتح ، وبدأ يحرض للثورة ضد عثمان وضد دولة الخلافة وضد الإسلام عموماً ، متنقلا بشره ما بين الأمصار الإسلامية وبخاصة تلك الأمصار الغنية التى تجمعت فيها القبائل العربية واستقرت وتملكت الأرض فيها مثل مصر والشام والعراق . وقد بدأ إبن سبأ تآمره منذ سنة ثلاثين للهجرة ، فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الشام ثم مصر . وفى الشام تقابل إبن سبأ مع أبى ذر ، حين كان هناك ، وتظاهر بمشاركته لدعوته ، وأنه يعمل على نشر أفكاره بين الناس . ولما عاد أبو ذر من الشام إلى المدينة ، خرج ابن سبأ إلى مصر ، ونجح هنالك فى جمع الناس حوله وإثارتهم ضد الخليفة وعماله . وقد قال ابن سبأ بمبدأ الرجعة ، وأشاع برجعة محمد مثل رجعة عيسى مستنداً فى ذلك إلى قوله تعالى : ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ ، وكان مما يقول فى ذلك : نعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع . ولكى ينجح إبن سبأ حركته ويضمن التفاف الأتباع حوله قوله بحق على فى الخلافة واغتصابها عثمان منه ، فشكك فى خلافة عثمان وكسب إلى جانبه أصوات المتعاطفين مع علي وآل البيت وبخاصة الفرس . وقد قال ابن سبأ فى ذلك بالوصية وأن لكل نبى وصياً وأن علياً وصى رسول الله ، وأن محمداً خاتم الأنبياء وعليا خاتم الأوصياء . ثم قال بعد ذلك : « من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ووثب على وصى رسول الله » . ثم تدرج للقول بعد ذلك : « إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصى رسول الله فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه وابدأوا بالطعن على أمرائكم واظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس » .

ولما رأى عثمان سحب الشر تلوح فى الأفق ، بعث فى سنة ٣٤ هـ فى طلب عماله فى موسم الحج ليشاورهم فى الأمر وكيفية مواجهة هذه المكائد التى تحاك ضد خلافته ، واستعرض عثمان مع ولاته الموقف فوجدوا الذين يتصدرون الفتنة طوائف على مراتب ، فيهم : الذين غلب عليهم الغلو فى الدين فأكبروا الهنات وارتكبوا فى إنكارها الموبقات . وفيهم الذين ينزعون إلى عصبية يمنية على شيوخ الصحابة من قريش ولم تكن لهم فى الإسلام سابقة ، فحسدوا أهل السابقة من قريش على ما أصابوا من مغانم شرعية جزاء جهادهم وفتوحهم فأرادوا أن يكون لهم مثلها بلا سابقة ولا جهاد . وفيهم الموتورون من حدود شرعية أقيمت على بعض ذويهم فكبتوا فى قلوبهم الغل والضغينة لأجلها . وفيهم الحمقى والسذج الذين إستغل السبئيون ضعف عقولهم فدفعوهم إلى الفتنة والفساد والعقائد الضالة . وفيهم من أثقل كاهله خير عثمان ومعروفه نحوه فكفر معروف عثمان عندما طمع منه بما لايستحقه من الرئاسة والتقدم . وفيهم من أصابه من عثمان شيئاً من التعزير لبوادر منهم تخالف أدب الإسلام فأغضبهم التعزير الشرعى من عثمان ولو أن قد نالهم من عمر أشد منه لرضوا به طائعين . وفيهم المستعجلون بالرياسة قبل أن يتأهلوا لها إغتراراً بما لهم من ذكاء أو فصاحة لا تغذيها الحكمة ولا تصقلها التجربة فثاروا متعجلين بالأمر قبل أوانه . وبالإجمال ، فإن الرحمة التى جُبل عليها عثمان وامتلأ بها قلبه أطمعت الكثيرين فيه وأرادوا أن يتخذوا من رحمته طريقاً لأهوائهم .

فشاور عثمان ولاته فى طريقة المجابهة وكيفية التصرف ، فأشار عليه عبدالله إبن عامر باشغال الناس فى الجهاد مثلما فعل أبو بكر وعمر . كما أشار عليه سعيد بن العاص بضرورة الحزم والشدة والضرب على رؤوس الفتنة وقادتها قبل فوات الأوان . أما معاوية بن أبى سفيان فقد طلب من الخليفة رد العمال إلى

أمصارهم والاعتماد على مساعدة قواتهم فى القضاء على تلك الفتنة . أما عبدالله بن أبي السرح فقد أشار على الخليفة أن يترضى الناس بالمال . فرأى عثمان فى نهاية الاجتماع ، أن يعود الولاة إلى أمصارهم وأن يحسنوا إلى الرعية ويحسنوا السياسة فيهم ، وأن يتشددوا فى حقوق الله ، وأن يأخذوا الأمور بالحزم وأن يعدوا الناس للجهاد . وبعد أن إنفض هذا الاجتماع ، عقد عثمان إجتماعا آخر فى المدينة مع كبار الصحابة من أهل الشورى ، وكان من بينهم :

علي بن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص . وقد شهد معاوية بن أبى سفيان هذا الاجتماع ، وتدارس الخليفة معهم الموقف ، وانتهى الاجتماع بتراضى الجميع بعد أن أظهر عثمان أنه لن يتصرف فى شيء إلا بعد مشورتهم .

وبينما كان اجتماع مكة منعقداً (سنة ٣٤ هـ) ، إندلعت قامت الثورة فى الكوفة يقودها أحد كبار رجال اليمن وهو مالك بن الأشتر النخعى . وقد كان على الكوفة حين مات الخليفة عمر المغيرة بن شعبة الثقفى ، الذى أقره عثمان على ولايتها فى عام خلافته الأول ثم عزله وولى عليها سعداً بن أبى وقاص . ولم يبق سعد فى ولاية الكوفة إلا عاماً وعدة أشهر حتى عزله عثمان عنها وولى عليها الخليفة أخاه لأمه الوليد بن عقبة بن أبى معيط . وكانت نذر الفوضى قد تجمعت فى الكوفة وبدأت من عهد عمر ، حيث تجمعت القبائل الساخطة على حكم قريش وخاصة من أهل اليمن . ولقد استاء أهل الكوفة ، وبخاصة اليمنيين منهم ، من ولاية الوليد بن عقبة لتعاليه عليهم ، واتهموه بمعاقرة الخمر مع صديقه الشاعر أبى زبيد الطائى . وقد قامت لدى الخليفة التهمة على الوليد وصاحبه فقام بحدهما وعزل الوليد . وولى الخليفة الكوفة ،

بعد عزل الوليد عنها ، سعيداً بن العاص ، ورغم أنه كان رجلاً صالحا إلا أن أهل الكوفة حقدوا عليه لكونه أموياً قريباً لعثمان . وقد حاول الأشتر ورجاله إشعال نار الفتنة فـى الكوفة ، لكن سعيداً بن العاص نجح فـى إخراجهم إلى الشام ، التى كان يليْها آنذاك معاوية بن أبى سفيان ، بأمر من الخليفة . ولمّا وصل هؤلاء الثوار إلى الشام خاف معاوية من تواجدهم عنده وإفساد أمر ولايته فطلب من الخليفة أن يعفيهم من إقامتهم عنده . فكتب الخليفة له أن يردهم ثانية للكوفة ، فلما عادوا للكوفة كانوا أطلق لساناً على الخليفة والأمير مما كانوا . فكتب سعيد إلى الخليفة يضج منهم ، فأمر الخليفة بتسييرهم إلى عبد الرحمن إبن خالد بن الوليد ، أمير حمص بالشام وما أن وصلوا إلى حمص حتى تلقاهم عبد الرحمن بالعنف والشدة وأجبرهم على الطاعة ، وأرسل زعيمهم الأشتر النخعى إلـى الخليفة بطاعتهم ، فرضى عثمان عنه ، وأباح له الذهاب حيث يشاء ، فاختار الذهاب إلى إقليم الجزيرة من بلاد العراق .

وفى الوقت الذى كان فيه الأشتر يعرض على الخليفة توبتة وتوبة زملائه من الثوار ، كان أتباع ابن سبأ فى مصر يكاتبون أشياعهم فى الكوفة والبصرة بأن يثوروا على أمرائهم ، وتواعدوا على الالتقاء فى المدينة لمساءلة الخليفة فى بعض الأمور . فلم يستقم ذلك إلا لجماعة الكوفة الذين عاد إليهم الأشتر النخعى عاصيا بعد توبته والتحق بهم يقودهم فى ثورتهم ، وقد نزلوا فى موضع يقال له الجرعة ، قرب الكوفة . وهناك تلقوا أمير الكوفة سعيد بن العاص عائداً من اجتماع الخليفة فردوه عن الكوفة وطلبوا إقالته وتعيين أبا موسى الأشعرى مكانه . فأجابهم الخليفة إلى ما طلبوا . ولمّا فشل موعد سنة ٣٤ هـ ، واقتصرت الفتنة على منطقة الجرعة ، تواعد أتباع إبن سبأ التقابل فى السنة التالية ، ورتبوا أمرهم على التوجه إلى المدينة المنورة مع الحجاج كحجاج .

وخرج ثوار مصر والبصرة والكوفة سنة ٣٥ هـ ، والتقوا جميعاً فى المدينة المنورة وأظهروا أنهم جاءوا للحج حتى لايتعرض أحد لهم . وقد خرجت من مصر أربع فرق منهم مجموع رجالها ستمائة ، وعلى كل فرقة منها رئيس ، ورئيسهم العام هو الغافقى بن حرب العكى ، وهو من أبناء وجوه القبائل اليمنية التى نزلت مصر عند الفتح واختار الإقامة فى الفسطاط . وقد كان الغافقى من قنائص ابن سبأ ، إستماله إليه من ناحية تهافته على الرئاسة والجاه . وكان كنانة إبن بشر التجيبى أحد أمراء الفرق الأربعة التى سارت من مصر إلى المدينة ، كذلك كان سودان بن حمران السكونى ، أحد قواد هذه الفرق . وكان من قواد الثوار الآخرين كل من : عبدالله بن بديل بن ورقاء الخزاعي ، وحكيم بن جبله العبدى ، ومالك بن الحارث الأشتر النخعى ، وحرقوص بن زهير السعدى .

وفى المدينة تصدى لهؤلاء الثوار علي بن أبى طالب وطلحة والزبير ، وهم الذين أظهر الثوار التشيع لهم والثورة من أجلهم ، وبذلك فوتوا فرصة الإستناد على أى منهم فى الثورة ، بعد أن دافعوا عن عثمان دفاعاً قويا وأقنعوهم بالالتزام والعودة إلى بلادهم . فقرروا العودة إلى بلادهم ، لكن الأمر تطور بعد ذلك بعكس ما يُراد .

فلقد قام الخليفة عثمان بجمع هؤلاء الثوار فى مسجد المدينة ، بعد أن علم بمقدمهم ، على مشهد من الصحابة وأهل المدينة ، فعرضوا عليه مآخذهم عليه فاستمع لهم وقام بتفنيد هذه المآخذ واحدة بعد الأخرى . وقد تلخصت هذه المآخذ فى التالى : ضربه للصحابى عمار بن ياسر حتى فتق أمعاءه ، ومنعه ابن مسعود عطاءه وضربه حتى كسر أضلاعه . وابتداعه فى جمع القرآن وتأليفه وحرقه للمصاحف ، وحميه للحمى ، واجلائه أبا ذر إلى الربَذة ، وإخراجه أبا

الدرداء من الشام ، ورد الحكم بن العاص إلى المدينة بعد أن نفاه الرسول عنها ، وإبطال سُنة القصر فى الصلاة ، وإعطاء مروان بن الحكم خمس افريقية ، وتعليته على رسول الله فى المنبر ، وعدم حضوره بدراً وانهزامه يوم أحد وعدم مبايعته بيعة الرضوان ، وعدم قتله عبيدالله بن عمر بالهرمزان ، وتولية أقربائه الولايات من بني أمية . وقد أثبت الخليفة بطلان كل هذه التهم ورد عليهم بما أقنعهم ببراءته منها .

وكادت الفتنة أن تنطفىء نارها ، حيث شرع الثوار ، بعد لقاء الخليفة ، العودة إلى أمصارهم . وبعد إنصراف الثوار وهدوء الحال لعدة ساعات ، إلا وسمع أهل المدينة صيحات التكبير تتعالى ثانية فى نواحى المدينة وبعودة الثوار وهم يقولون : « من كف يده فهو آمن » . واجتمع كبار الصحابة ومن بينهم علي إبن أبى طالب وطلحة والزبير ومحمد بن مسلمة الأنصارى ، وسألوهم عن سبب عودتهم بعد أن أرضاهم الخليفة ، فقالوا أنهم وجدوا كتاباً فى ركاب مبعوث للخليفة كان يتبعهم لعامل الخليفة عثمان فى مصر . وقد شمل الكتاب على أمر بقتل عدد منهم بما فيهم واليهم الجديد محمد بن أبى بكر ، الذى عُين واليا بدلا من عبدالله بن السرح . ولمّا سأل على جماعة أهل الكوفة والبصرة عما ردهم : قالوا : « عدنا لنصرة إخوتنا المصريين » ، وبدى كأن الأمر قد دُبر بين ثوار الأمصار الثلاثة فى ليل ، وقد علق عليّ على قولهم هذا بقوله : « كيف علمتم يا أهل البصرة ويا أهل الكوفة بما لقى أهل مصر ؟ هذا والله أمر أُبرم بليل فى المدينة » .

وتتابعت الأحداث بعد ذلك ، فأنكر عثمان صلته بالكتاب أو كتابته له ، وشكك بعض المؤرخين فى وجود كتاب من أصله ، وذكروا أن السبئية عز عليها

أن تنتهى هذه الفتنة دون أن تحقق أغراضها وبالصورة التى لم يتقبلوها فاختلقوا قصة الكتاب ، وعرض الخليفة على الثوار أحد أمرين ليثبت براءته من هذا الكتاب المزعوم ، أن يقسم اليمين بالله أنه لم يكتب كتابا ، أو أن يقيموا عليه شاهدين من المسلمين بأنه لم يكتب أو يمل أو يعلم بأمر ذلك الكتاب ، فرفضوا منه ذلك ، وحاصروه . وبدأ النقاش حول مايريده الثوار الذين التفوا حول المسجد النبوى ومنزل عثمان القريب منه ، فطالبوا بتنازل عثمان عن الخلافة ، لكن عثمان رفض طلبهم ، وقال : « والله لن أخلع قميصاً كسانيه الله تعالى » ، وأرسل يطلب النجدة من الأمصار لمواجهة الثوار ، واشتد التوتر فى المدينة حين علم الثوار أن عمال الخليفة فى الأمصار أجابوا طلب الخليفة فى نصرته وإرسال قوات من عندهم لنجدته . وقد كتب معاوية إلى الخليفة بذلك ، وكذلك كتب عبدالله بن عامر عامل البصرة ، وشدد الثوار الحصار على المدينة ، وتدرج هذا الحصار على الخليفة نفسه حيث كان يخرج للصلاة بالناس فى المسجد ثلاثين يوماً من مقدم الثوار ، ثم منعوه بعد ذلك الخروج للصلاة وألزموه منزله ، وصار أميرهم الغافقى العكى يصلى بالناس فى مسجد الرسول ، فلزم أكثر الناس الصلاة فى بيوتهم . وشدد الثوار حصارهم على الخليفة حتى منعوا وصول الماء والزاد إليه إلا خفية ، واستمر هذا الحصار للخليفة مدة أربعين يوماً والخليفة يحذرهم من الفتنة من آن لآخر ويذكرهم بآيات الله وأحكامها دون جدوى . وقد خرج أكثر الصحابة من المدينة حتى لايشهدوا وضع الخليفة المتدهور بعد أن أرسلوا أبناءهم لحراسته والدفاع عنه ، فغادر الزبير وسعد وعمرو بن العاص . ولما أدرك الثوار قرب إنقضاء موسم الحج خافوا فوات الفرصة عليهم فوجدوا ألا مخرج لهم من هذا الموقف إلا بقتل الخليفة فينشغل الناس بأمره وتضيع الحقيقة . وناشد أحد الثوار ، واسمه ينار بن عياض الأسلمي ، الخليفة بأن يحقن الدماء ، ويخلع

نفسه عن الخلافة ، فرماه أحد المدافعين عن عثمان بسهم أصابه فقتله . وإزدادت ثورة الثوار بهذا الحدث ، وطالبوا بتسليم القاتل ، ولمّا لم يصلوا إلى تحقيق غرضهم إقتحموا دار عثمان على أهلها فى يوم الجمعة اليوم الثامن عشر من شهر ذى الحجة سنة ٣٥ هـ وقتلوا الخليفة وهو يقرأ القرآن ، وكان عثمان قد عكف علـى قراءة القرآن والصلاة ، وأشعل الثوار النار حـول الدار وأحرقوا بابه ، وعثمان يصلى وهو يقرأ صورة طه . ثم جلس وقرأ : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ . فدخل عليه الثوار : الغافقى والعكى وكنانة بن بشر التجيبى وسودان إبن حمران السكونى ، فضرب الغافقى الخليفة بحديدة كانت معه وضرب المصحف برجله فاستدار واستقر بين يديه وسال الدم عليه ، وضرب كنانة الخليفة بنصل طويل عريض كان بيده . ولما ألقت نائلة بنت الفرافصة ، زوج الخليفة بنفسها لتقى الخليفة فقطع النصل أصابعها . واتكأ كنانة بالنصل على صدر عثمان ، وهوى سودان ضربًا بالسيف على جسد الخليفة حتى قُتل ، ثم خرج سودان من الدار ينادى : « قد قتلنا عثمان بن عفان » . ولقد سُمى ما وقع فى هذا اليوم من حدث مفجع أليم بيوم الدار ، وهو يوم ، بدون شك ، نحس وشؤم على دولة المسلمين ، لأن فيه فُتحت أبواب الفننة ، هذه الفتنة التى حمل على بن أبى طالب على عاتقه أول نتائجها من فرقة وخلاف وصراع على الحكم . فقد آلت إليه الخلافة بعد مقتل عثمان فواجه أول موقف من تفرق كلمة المسلمين وتمرد قبائل العرب وانتهاك حرمة الخلافة . ولقد إتجه الناس ، بعد مقتل عثمان بخمسة أيام ، إلى علي يبايعونه بالخلافة ، وقد عاشت الدولة هذه الأيام الخمسة دون خليفة والثوار لازالوا فى المدينة ومأساة قتل الخليفة ماثلة أمام الجميع . وما كان لعلى إلا أن يقبل الخلافة ، وهو كاره لها ، لكن

هذا كان قدره ، بايعه المسلمون البيعة العامة فى مسجد الرسول يوم الثالث والعشرين من شهر ذى الحجة سنة ٣٥ هـ ، وكان عليه أن يأخذ بدفة الدولة الإسلامية قبل أن يبتلعها الطوفان ويرسو بها على بر الأمان ، وقد كانت تلك من أصعب المهام التى واجهت علياً بن أبى طالب ، رغم ما واجه من صعاب وشدائد طيلة حياته .

خامساً : خلافة علي بن أبى طالب ونهاية عصر دولة الراشدين :

تولى علي بن أبى طالب الخلافة فى ظروف صعبة كانت تمر بها الدولة الإسلامية . فلقد تولاها فى أعقاب فتنة أصابت الدولة وإنتهت بمقتل خليفة ، هو علم من أعلام الإسلام وصاحب فضل وسابقة فى الدين وصاحب أياد بيضاء على الدعوة الإسلامية ، مظلوماً . كذلك كان قتلته والذين أشعلوا نار الفتنة لايزالون يرابطون فى المدينة ولم يغادروا إلى أمصارهم حتى يحققوا ما جاءوا من أجله . وما زال المتربصون بالإسلام والمحرضون على الفساد ، وعلى رأسهم ابن سبأ يترصدون الإسلام والمسلمين . ولقد إنقسم الناس آنذاك بين : مطالب للخليفة الجديد الأخذ بالثأر لدم الخليفة المقتول ، ومتهم لعدد من الصحابة ، وعلى رأسهم علي ، بمسئولية قتل عثمان وعدم قيامهم بالدفاع عنه كما يجب ، وقتلة قتلوا الخليفة وهم على إستعداد لقتل كل من يقف أمام أطماعهم ، ومعتزلين للفتنة آثروا إغلاق أبواب بيوتهم عليهم أو ترك المدينة إلى غيرها من البلاد حتى لاتتلوث أيديهم بدماء ضحايا الفتنة ، وكلها دماء أناس مسلمين .

وكان على عليّ أن يعالج الموقف بما عُهد له من حكمة وما شُهد له به من حنكة ، وأن يطفىء نار الفتنة ، وأن يتخطى رواسبها ليصل بالدولة الجريحة إلى

الأمن والأمان . وإذا كان علي قد أُتهم فى دم عثمان ، فإننا نستطيع القول بأنه ليس علي وحده هو المتهم فى هذا ولكن كل صحابة رسول الله ، من منطلق هذا الاتهام ، متهمون . لأن ألف رجل من الثوار جاءوا من الأمصار لقتل الخليفة لايمكن لهم أن يغلبوا أربعين ألفاً من أهل المدينة إذا هم وضعوا فى إعتبارهم حماية الخليفة من القتل . وإذا افترضنا جدلاً أن علياً وطلحة والزبير ومعاوية قد تضافروا على قتل عثمان فماذا صنع الصحابة من المهاجرين والأنصار بالقعود عن نصرته ؟

وفى الحقيقة ، فإن المسئول الأول عن دم الخليفة هم دعاة الفتنة والمدبرين لها من أمثال إبن سبأ اليهودى الحاقد على الإسلام وأتباعه ، ومن بعض رجال القبائل الذين حقدوا على قريش أن تكون السيادة على القبائل لها وأرادوها أن تكون لكل العرب دون تمييز . والصحابة جميعهم براء من دم الخليفة فحاشى لله أن يتآمر صحابى على قتل إنسان ، وهو يعلم أن قاتل النفس بغير حق مخلد فى النار ، فما بالك لو كان هذا الإنسان خليفة المسلمين ! لقد كان جميع الصحابة وراء عثمان وكانوا يساندونه ومستشاريه وأداته فى الحكم وأهل مشورته والمدافعين عنه يوم الدار وقبله ، فكيف يجرؤ مجترؤ على إتهامهم بقتله ؟ لقد ثبت أن الحسن والحسين إبنىْ على وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر ومروان إبن الحكم والصحابى الجليل أبا هريرة ، كان كلهم يحملون السلاح دفاعاً عن الخليفة ويتناوبون حراسة منزله . ولم يدخل الثوار منزل الخليفة ويقتحموه لقتله إلا بعد صرف الخليفة لهم وإصراره على ألا يدافع أحد عنه وطلبه منهم وضع أسلحتهم والتزامهم بيوتهم . ولم يكن عثمان ، وهو الرجل المؤمن بقضاء الله ، يتصور أن تنتهى الأمور إلى ما انتهت إليه ، وأن يهون على الناس خليفتهم ، وينسون أياديه البيضاء عليهم وعلى الإسلام ، وأن يلق هذه النهاية على يد الثوار

وهو موقن من عدالة حكمه ونزاهة شخصه وطهارة عماله . ولقد ثبت أن عبدالله بن الزبير قال للخليفة قبل وقوع حادث يوم الدار : « يا أمير المؤمنين ، إنا معك فى الدار عصابة مستبصرة ينصر الله بأقل منهم فأأذن لنا » ، لكن عثمان صبر ولم يرد أن ينتهى الأمر إلى إقتتال المسلمين وحتى يتم الله أمراً كان مفعولا .

فلماً قضى الله من أمره ما قضى ومضى فى قدره ما مضى ، علم أن الحق لايترك الناس سدى ، وأن الخلق بعده مفترقون إلى خليفة مفروض عليهم النظر فيه ، ولم يكن بعد الثلاثة كالرابع قدراً وعلماً وتقى وديناً . فانعقدت له البيعة واتفق فى ذلك المهاجرون والأنصار ، ورأى ذلك فرضاً عليه فانقاد إليه ، وتم الأمر على وجهه ، وبايع الناس علياً على الحكم بالحق . وبدأ على خلافته بالعمل على إزالة أسباب شكوى الناس ، وقد تمثلت فى شكايتهم من ولاة عثمان ، فقام بعـزل ولاة عثمان جميعهم وتولية غيرهم وقد قصد بذلك أن يطوى صفحة سابقة ، بخيرها وشرها ، بصدد علاقة هولاء الولاة مع رعيتهم فى الأمصار ، وفتح صفحة جديدة بتولية ولاة جدد قد يرضى عنهم أهل الأمصار . فعزل أبا موسى الأشعرى عن الكوفة ، وعبدالله بن عامر عن البصرة ، وعبدالله إبن أبى السرح عن مصر ، ومعاوية بن أبى سفيان عن الشام ولم يكن لدى الخليفة ، فى عزله هؤلاء الولاة عن ولاياتهم ، أى شك فى ذممهم أو فى سلوكهم ، ولكنه أراد التغيير حتى يقطع الطريق على الثوار والمتمردين ويقيم عليهم الحجة . ولم يستبد برأيه فى هذا الأمر ، وإنما جاء بعد مشورة كبار الصحابة ومن بينهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام .

وبينما كان علي يتدبر الأمر فوجىء بتجمع فى مكة بقيادة طلحة والزبير يطالب الخليفة بالتحقيق فى مقتل عثمان وأخذ الثأر من قاتليه ، وقد إنضم هذا التجمع حول أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبى بكر ، وكان طلحة والزبير قد

استأذنا علياً فى الخروج إلى مكة ، كذلك إستأذنه فى الخروج عبدالله بن عمر إبن الخطاب ، وكانت السيدة عائشة قد ذهبت إلى مكة لأداء فريضة الحج وفراراً من الفتنة . وقد قيل أن بنى أمية هم الذين حرضوا على تدبير هذا التجمع لإحراج علي فى بداية خلافته بعد أن عزل ولاتهم عن الأمصار التى كانوا يلون حكمها . وقيل أن المجتمعين تحولوا بعد ذلك ، ومعهم السيدة عائشة ، من مكة إلى البصرة . وخروج هذا التجمع إلى البصرة صحيح ولاشك فيه ، لكن لأى شيء خرجوا وتجمعوا هذا هو السؤال ؟ ويُحتمل أنهم خرجوا ليتمكنوا من قتلة عثمان ، وهذا ما كانوا يذكرونه ، إلا أنهم يريدون أن يتفقوا مع علي على الطريقة التى يتوصلون بها إلى ذلك ، وهذا ما كان يسعى به الصحابى المجاهد القعقاع بن عمرو . ومن الممكن أن يكون خروجهم لجمع طوائف المسلمين وتوحيد كلمتهم حتى لايضطربوا فيقتتلوا وهذا هو الصحيح ولا شيء سواه . وقد علموا أن مدبرى الفتنة قد إتخذوا من البصرة قاعدة لهم ، لذلك إتجهوا إلى البصرة ، وقد قيل فى إقناع السيدة عائشة فى الخروج إلى البصرة إثباتا لقوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ وقد خرج الرسول عليه السلام فى الصلح وأرسل فيه ، فخرجت ترجو المثوبة من الله ، فكان خروجها ، رضوان الله عليها ، إجتهاداً منها لتحقيق غاية طلحة والزبير والتعاون مع عليّ من أجل إطفاء نار الفتنة والقضاء على المنافقين والمفسدين من قتلة عثمان الذين تجمعوا فى البصرة ، فالسيدة عائشة لم تقاتل ولم تخرج لقتال يوم الجمل بل خرجت بقصد الإصلاح بين المسلمين ، فهى إجتهدت ، وهى من أهل الاجتهاد ، ولكنها أخطأت فى الاجتهاد ولا إثم على المجتهد المخطئ بل له أجر على اجتهاده . وليس صحيحاً ما زعم بعض المفترين من أن خروج عائشة يوم الجمل كان انتقاماً من عليّ من أنه

حض رسول الله على تطليقها في حادثة (الإفك) لمأ رأي من حزنه من كلام بعض الناس . ولقد ظنت السيدة عائشة أن فى خروجها مصلحة للمسلمين ، ثم تبين لها بعد ذلك ، أن ترك الخروج كان أولى . فكانت ، كلما ذكرت الخروج ، تبكى حتى تبل دموعها خمارها، وهكذا عامة الصحابة السابقين ندموا على ما دخلوا فيه من القتال ، فندم طلحة ، وندم الزبير ، ولم يكن لهؤلاء قصد فى القتال وقد وقع بغير إختيارهم . ولقد تقاتل الناس عند مكان يُعرف بالخريبة ، على مقربة من البصرة . ووقع القتال بعد أن وصل طلحة والزبير والسيدة عائشة البصرة بأعلى المربد (سوق إبل خارج المدينة) والتقى الناس حول الجمل الذى كان عليه هودج السيدة عائشة : فكلم كل من طلحة والزبير وعائشة الناس ، وأعلنوا أنهم ما جاءوا إلا لتوحيد كلمة الناس وتسكين الفتنة ، فكثر اللغط . ولقد خرج عامل البصرة من قبل علي ، عثمان بن حنيف ، وكان علي قد ولاه عليها سنة ٣٦ هـ ، وحاول أن يمنع أصحاب الجمل من الاجتماع عند المربد حتى يقدم الخليفة إليهم ، ولمأ وصل أصحاب الجمل إلى منطقة الحفير ، على بعد أربعة أميال من البصرة ، أرسل إليهم عثمان بن حنيف والى البصرة عمران بن حصين الخزاعى ، صاحب راية النبى على خزاعة يوم الفتح ، لينقل إليه خبرهم ، فلما عاد إليه ذكر له عمران حديثه مع أصحاب الجمل وطلب منه عدم الخروج والتصدى لهم . وكذلك أشار عليه هشام بن عامر الأنصارى ، وهو أحد الصحابة المجاهدين الفاتحين ، بأن يسالم أهل الجمل حتى يأتى أمر عليٍّ فيهم . فأبى إبن حنيف ، ونادى فى الناس فلبسوا السلاح وخرج بهم لملاقاة أهل الجمل وخرج معه حكيم بن جبلة ، وهو من قتلة عثمان ، فى ثلثمائة من أعوانه ، فلقوا طلحة والزبير عند مكان يُعرف بالزابوقة ، وهو المكان الذى وقعت فيه موقعة الجمل الأولى ، وقد هُزم فى هذه المعركة أصحاب حنيف وقُتل

حكيم ومن معه ، ونجح أصحاب الجمل ، بعد المعركة ، فى الاستيلاء على البصرة . أمـا الوالى إبن حنيف فقد وقع فى أسر الجماهير الذين قاموا بنتف لحيته ، ثـم أنقذه أصحاب الجمل منهم ، فانسحب إلـى معسكر علـى عند ذى قار .

وقدم عليّ إلى البصرة ، فنزل مكانًا منها يسمى الزاوية ، وكان أصحاب الجمل نازلين مكانًا يسمى الفرضة ، وتدانوا ليتراءوا عند موضع قصر عبيد الله إبن زياد ، وكان ذلك يوم الخميس منتصف جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ . وكان الصحابى الجليل القعقاع بن عمرو التميمى قد قام بين الفريقين بالوساطة الحكيمة المعقولة وقد تحدث القعقاع مع أم المؤمنين وطلحة والزبير بحرج موقف علي ، فلقد كان قتلة عثمان فى معسكره وعلى رأسهم الأشتر النخعى ، وهو من رؤوس البغاة على عثمان وأكبر مسعر للحرب بين أصحاب رسول الله الذين فى معسكر علي ومعسكر معاوية . ولمّا ذهب قتلة عثمان مع علي إلى العراق صاروا فى معقل قوتهم وعنجهية قبائلهم اليمنية المتكاثرة والمتمكنة هناك . فكان علي ، فى نظر القعقاع ، يرى بينه وبين نفسه أن قتلهم فى بداية حكمه أمر صعب بل مستحيل لأنه سيفتح عليهم بابًا سوف لايستطيع إغلاقه بعد ذلك ومطالبة السيدة عائشة وطلحة والزبير لعلى فى ذلك الوقت بإقامة الحد على قتلة عثمان أو تسليمهم إليهم فيقيموا الحد عليهم ، كانت مطالبة متعجلة فى نظر القعقاع ونظر عقلاء المسلمين آنذاك .

فلمّا أوضح القعقاع هذا الأمر لطلحة والزبير وعائشة أذعنوا له وعذروا عليًا ووافقوا على التفاهم معه على مايوصلهم إلى الخروج من هذه الفتنة ، فأطمأنت النفوس وسكنت ، فالمطالبون بإقامة حد الله على قتلة عثمان معذورون لأنهم

يطالبون بحق ، سواء أكانوا من أصحاب الجمل أو من أهل الشام . وتقصير عليّ في إقامة حد الله كان عن ضرورة قائمة ومعلومة .

وإجتمع كل فريق بأصحابه من الجيشين ، فلما أمسوا بعث عليّ إليهم عبدالله بن العباس وبعثوا إليه محمد بن طلحة السجاد ، وعولوا جميعاً على الصلح وباتوا بخير ليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية ، وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشر ليلة باتوها قط ، وقد أشرفوا على الهلاك ، وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها حتى اجتمعوا فى السر على إشعال نار الحرب . فغدوا من الغلس ، وما يشعر بهم جيرانهم ، وإنسلوا إلى ذلك الأمر إنسلالا ، وهكذا أنشبوا الحرب بين عليّ وأخويه طلحة والزبير . فظن أصحاب الجمل أن علياً غدر بهم وظن عليٌ أن إخوانه غدروا به وكل منهم أتقى لله من أن يفعل ذلك فى الجاهلية فكيف بعد أن بلغوا أعلى المنازل من أخلاق القرآن ؟ وبذلك لم يترك أهل الأهواء والنوايا السيئة فرصة للصلح وبادروا بإراقة الدماء . ولمّا وقع القتال بين الطرفين أرادت السيدة عائشة أن توقف نزيف الدم ، فدعت المتقاتلين إلى كتاب الله ، وطلبت من قائد جملها كعب بن سور الأزدى ، أول قضاة المسلمين الذين عينهم عمر على البصرة ، أن يترك البعير وأن يتقدم بكتاب الله فيدعو إليه المتقاتلين ، ودفعت إليه مصحفاً . وأقبل القـوم وأمامهم السبئية يخافون أن يتوقف القتال وأن يجرى الصلح ، فلما استقبلهم كعب بالمصحف رشقوه بالحجارة حتى قتلوه وتقدموا لبعير أم المؤمنين فعقروه . فنادت السيدة عائشة : « أيها الناس إلعنوا قتلة عثمان وأتباعهم » ، وضج الناس بالدعاء ، وسمع عليٌ الدعاء ، فقال : « ما هذه الضجـة ؟ » فقالوا : « عائشة تدعو ويدعو الناس معها على قتلة عثمان وأشياعهم » ، فأقبل علـــى يدعـو ، ويقول : « اللهم إلعن قتلة عثمان وأشياعهم » ، وهكذا إشترك صالحو الفريقين فى لعن قتلة الخليفة الشهيد

المظلوم ، فى نفس الوقت الذى كان فيه قتلة عثمان ينشبون القتال بين صالحى المسلمين . وقد قُتل الزبير فى المعركة ، كذلك قُتل طلحة ، وقد رآه على ملقياً فى بعض الأودية ، فنزل عن فرسه ومسح التراب عن وجهه ثم قال : « عزيز عليَّ أبا محمد أن أراك مجندلاً فى الأودية وتحت نجوم السماء إلى الله أشكو سرائرى وأحزانى عليك » . وقد هُزم فى معركة الجمل الثانية أصحاب الجمل واستخلص على البصرة من أيديهم . وبعد إنتهاء المعركة جاء علي إلى أم المؤمنين وقـــال لها : « غفر الله لك » ، فقال : « ولك ، ما أردت إلا الإصلاح » . ثم أنزلها دار عبدالله بن خلف ، وهى أعظم دار فى البصرة ، وزارها بعد ذلك ورحبت به وجلس عندها وبايعته بالخلافة . ولمَّا أرادت الخروج من البصرة بعث إليها بكل ما ينبغى من ركوب وزاد ومتاع ، وأرسل معها أربعين إمرأة ، وسيَّر معها إلى المدينة أخاها محمد بن أبى بكر . ولَّما كان اليوم الذى إرتحلت فيه جاء عليّ فوقف على باب الدار ، وخرجت من الدار فى الهودج ، فودعت الناس ودعت لهم وقالت : « يا بنى لايغتب بعضكم بعضاً ، إنه والله ما كان بينى وبين على بن أبى طالب فى القديم إلا مايكون بين المرأة وأحمائها ، وإنـــه لمن الأخيار » ، فقال علي : « والله ما كان بينى وبينها إلا ذلك وإنها زوجة نبيكم ﷺ فى الدنيا والآخرة » ، وسار معها مودعاً عدة أميال .

ولما انتصر علي فى موقعة الجمل دخل البصرة وصالح أهلها ، فبايع له العراق وفارس جميعاً ، فانتقل إلى الكوفة ودخلها فى ١٢ رجب ، واتخذها عاصمة لخلافته . ورغم انتصار على فإن خلافته كانت تواجه الكثير من الصعوبات بسبب بداية القتال بين المسلمين بعضهم مع بعض يوم الجمل ، مما زاد الحقد فى النفوس والرغبة فى الثأر كذلك لوجود قتلة عثمان فى جيش على ووجود أنصار عبدالله بن سبأ الميالين للفتن واستمرار الشر . كذلك شارك فى جيش

على كثيرون من أهل القبائل المتأخرة فى دخول الإسلام فلم يكن يهمهم الوقوف إلى جانب الحق بقدر اهتمامهم بما يحقق مصالحهم ويزيد من مكاسبهم . وكانت الخطوة الثانية ، أمام الخليفة بعد معركة الجمل ، المواجهة مع أهل الشام الذين خرجوا بقيادة معاوية بن أبى سفيان يرفعون قميص عثمان ويطالبون بالثأر له من قتلته . هذا ولم يذكر معاوية وفريقة علياً فى أمر البغى على عثمان إلا لمناسبة إنضواء قتلة عثمان إليه واستعانته بهم ووقوفهم معه ، فهم لم يتهموه بقتل عثمان إتهاماً مباشراً لأنهم يعلمون أن قتلة عثمان هم الذين أساءوا إلى علي كما أساءوا إلى عثمان والإسلام .

ولقد سار على بقواته ، أواخر ذى القعدة سنة ٣٦ هـ ، إلى حدود الشام والتقى بجيشه مع جيش معاوية بقرب الرقة على شاطئ الفرات ، آخر تخوم العراق وأول أرض الشام فى سهل يُعرف بصفين . ووقعت هنالك معركة كبيرة أوشك جيش العراق أن يحقق النصر فيها على جيش الشام ، فأدرك معاوية ومن معه قرب هزيمتهم فلجأوا إلى التحكيم ، وهى فكرة عمرو بن العاص ، وذلك برفع المصاحف على الرماح وطلب وقف القتال وإراقة دماء المسلمين وتحكيم كتاب الله بين المتحاربين . فتوقف القتال ، وكُتب كتاب التحكيم يوم ١٣ صفر سنة ٣٧ هـ ، على أن يختار كل فريق من الفريقين المتقاتلين حكماً له ، وأن يجتمع هذا الحكمان سوياً ثم يعلنان رأيهما فى أمر النزاع بين الطرفين ، فى شهر رمضان فى منطقة أذرح بدومة الجندل ، فاختار حزب على الصحابى الجليل أبا موسى الأشعرى ، وإختار حزب معاوية الصحابى الجليل عمرو بن العاص . وكان أبو موسى الأشعرى رجلا تقياً فقيهاً عالماً كان الرسول قد أرسله مع معاذ إبن جبل ليفقها الناس فى الإسلام ، وكان مقدماً عند الخليفة عمر وكان يثنى عليه بالفهم ورجاحة العقل . وكان عمرو بن العاص من الصحابة الذين ضمن

لهم الرسول الجنة ، مصداقا لقوله تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملو الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ ، وقد قال الرسول فـــى الثناء عليه يوم أسلم : « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص » . ولايجوز الطعن فيه رضى الله عنه ، كما يفعل بعض الكتاب المعاصرين بسبب ما وقع من الخلاف بل القتال مع علي ، فإن ما وقع منه وقع بنوع من الإجتهاد وليس إتباعًا للهوى .

ولقد انتظر المتقاتلون نتيجة التحكيم بعد معركة صفين ، تلك المعركة التى كان المسلمون فى غنى عن وقوعها لو هم مالوا إلى العقل والحكمة ولم ينساقوا أمام المتهورين الذين لاتعنيهم مصلحة المسلمين فى أى شيء . وإذا كانت حرب البصرة ناشئة عن إشعال قتلة عثمان لنارها فقد كان من مصلحة الإسلام ألا تقع حرب صفين . وقد كان الحسن بن علي كارها خروج أبيه من المدينة إلى العراق لما يخشاه من نشوب الحرب مع أهل الشام . ولو أن علياً لم يتحرك من الكوفة إلى الشام لما حرك معاوية فيها ساكنا لأن معاوية لم يكن يختار الحرب ابتداءً . وأهل السنة المحمدية يدينون لله أن علياً ومعاوية ومن معهما من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا جميعًا على الحق وكانوا مخلصين فى ذلك ، والذى إختلفوا فيه إنما إختلفوا فيه عن اجتهاد كما يختلف المجتهدون فى كل مايختلفون فيه . وهم لإخلاصهم فى إجتهادهم يثابون عليه فى حالة الإصابة والخطأ ، وثواب المصيب أضعاف ثواب المخطئ . وليس بعد رسول الله بشر معصوم عن أن يخطئ ، وقد يخطئ بعضهم فى أمور ويصيب فى أمور أخرى . ومن مرق على الحق فى إثارة الفتنة الأولى على عثمان لا يُعد من إحدى الطائفتين اللتين على الحق وإن قاتل معها والتحق بها ، لأن الذين تلوثت أيديهم ونياتهم وقلوبهم بالبغى الظالم على أمير المؤمنين عثمان – كائنا من كانوا – استحقوا إقامة الحد الشرعى عليهم سواء إستطاع ولى الأمر أن يقيم عليهم هذا

الحد أو لم يستطع . وفى حالة عدم إستطاعته فإن مواصلتهم تسعير القتال بين صالحى المسلمين كلما أحسوا منهم بالعزم على الإصلاح والتآخى ، كما فعلوا فى واقعة الجمل وبعدها ، يُعد إصراراً منهم على الاستمرار فى الإجرام ما داموا على ذلك فإن قلنا إن الطائفتين كانتا من أهل الحق فإنما نريد أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا من الطائفتين ومن سار معهم على سنة نبيه من التابعين . ونرى أن علياً ، المبشر بالجنة ، أعلى مقاماً عند الله من معاوية صاحب رسول الله ، وكلاهما من أهل الخير ، وإذا اندست فيهم طوائف من أهل الشر فجزاؤهم وحسابهم عند رب العالمين .

ولقد تم التحكيم فى الموعد والمكان المحددين لذلك بين أبى موسى الأشعرى ، ممثل على ، وعمرو بن العاص ، ممثل معاوية . ولقد روى المغالطون عن حادثة التحكيم أن أبا موسى وعمرواً اتفقا على خلع الرجلين فخلعهما أبو موسى واكتفى عمرو بخلع عليٍّ دون معاوية ، وهذه مغالطة لم تحدث ، وأصل المغالطة هنا تجاهل المغالطين أن معاوية لم يكن يومئذ خليفة ولا هو إدعى الخلافة وأنه لم يكن هنالك خليفتين أو أميرين للمؤمنين ، وأن الاتفاق بين الحكمين كان على خلعهما معاً ، وأن أبا موسى خلع الخليفتين تنفيذاً للاتفاق ، وأن عمراً خلع أحدهما وأبقى الآخر خليفة خلافا للاتفاق ، وهذا كله كذب . والذى فعله عمرو هو الذى فعله أبو موسى لايفترق عنه فى شيء . وقد بقى أمر الإمامه أو الخلافة معلقاً على نظر أعيان الصحابة ليروا فيه رأيهم متى شاءوا وكيف شاءوا . وقد إتفق أبو موسى وعمرو على أن يعهدا بأمر الخلافة على المسلمين إلى الموجودين على قيد الحياة من أعيان صحابة رسول الله آنذاك ، والذين توفى رسول الله وهو راض عنهم . واتفاق الحكمين على ذلك لايتناول معاوية لأنه لم يكن خليفة ولم يقاتل على الخلافة ، وإنما كان يطالب بإقامة

الحد الشرعى على الذين شاركوا فى قتل عثمان . فلماً وقع التحكيم على إمامة المسلمين إتفق الحكمان على ترك النظر فيها إلى كبار الصحابة واعيانهم . أما التصرف العملى فى إدارة البلاد فلم يتناوله الحكمان إنما تركا كُلاً من علي ومعاوية يتصرف فى البلاد التى تحت يده . وبذلك فإن التحكيم لم يقع فيه خداع ولا مكر ولم تتخلله بلاهة ولا غفلة ، كما يدعى المغرضون . وكان التحكيم يكون محل المكر والغفلة لو أن عمرواً أعلن فى نتيجة التحكيم أنه ولىّ معاوية إمارة المؤمنين وخلافة المسلمين ، وهذا مالم يعلنه عمرو ولا إدعاه معاوية . وخلافة معاوية لم تبدأ إلا بعد الصلح مع الحسن بن علي سنة ٤١ هـ بمبايعة الحسن لمعاوية وتنازله عن الخلافة ، ومن ذلك اليوم فقط تسمى معاوية بأمير المؤمنين . فعمرو بن العاص لم يغالط أبا موسى الأشعرى ولم يخدعه لأنه لم يعط معاوية شيئًا جديداً ، ولم يقر فـى التحكيم غير ما قرره الصحابى الجليل أبو موسى ، ولم يخرج عما إتفقا عليه معاً . فبقيت العراق والحجاز وما يتبعهما تحت يد من كانت تحت يده من قبل ، وبقيت الشام وما يتبعها تحت يد من كانت تحت يده من قبل . وتعلق أمر الإمامة والخلافة بما سيكون من إتفاق أعيان الصحابة متى شاءوا وكيف شاءوا ، ولهم أن يُبقوا علياً فى الخلافة أو أن يخلعوه عنها ويولوا عليها من يرونه خيراً منه . وإذا كانت هذه الخطوة الثانية لم تتم فما ذلك – تقصير من أبى موسى ولا نشاطاً من عمرو ، فهما قد قاما بمهمتهما بحسب اقتناعهما وبحسب ما أدى إليه إجتهادهما . وواقع الأمر أن التحكيم بالذات قد رفع منزلة معاوية إلى مقام علي ، أو حط من مقام علي إلى مستوى منزلة معاوية ، إذ أن قرار الحكمين شكك فى منصب علي الفعلى فى حين أنه أقصى معاوية عن ادعاء وهمى لم يكن قد تجاسر على المجاهرة به ، والحق أن معاوية لم يجاهر بطلب الخلافة إلا بعد مضى سنين من التحكيم ، وكان علي آنذاك قد لقى الرفيق الأعلى .

ولقد رفضت طائفة القراء من قبائل بكر وتميم وطئ، التى كانت مع جيش على ، فكرة التحكيم برغم أنهم هم الذين دفعوا علياً إلى قبولها ، وإتخذوا من صيحة أحد زعمائهم « لا حكم إلا لله » شعاراً لهم ، أى أن حكم الله فى الأمر واضح لايحتاج إلى هذا التحكيم . وخرج هؤلاء عن جيش على ، ورفضوا العودة إلى الكوفة . ونزلوا قرية بظاهر الكوفة تدعي « حروراء » ، واختاروا من بينهم قائداً وإماماً ، هو عبدالله بن وهب الراسبي من قبيلة راسب من الأزد . وقد أطلق المسلمون على هؤلاء الخارجين عن جماعة علي وجيشه إسم الخوارج ، بينما أطلقوا هم على أنفسهم إسم الحرورية ، والشراة ، لقولهم أنهم إشتروا أنفسهم بأن باعوها فى سبيل الله . وقد أخذ علي فى نقاش هؤلاء الخوارج ومحاولة التفاهم معهم على الرجوع إلى صفه وصف المقاتلين فى جيشه ، إلا أنهم رفضوا وأصروا على دعواهم وطالبوا علياً بإقرار الخطأ على نفسه لقبوله التحكيم والتوبة إلى الله . وقد حاول على ، أكثر من مرة ، التفاهم مع الخوارج ، خاصة بعد انتهاء التحكيم ، فرجع إليه جماعة منهم ، وبقى نحو أربعة آلاف منهم خارجين . فلم يكن أمام على إلا مقاتلة هذه الفئة الخارجة عن صف المسلمين وجيشهم وقت الحرب وفى ظرف يتحدد فيه مصير الأمة الإسلامية . فقاتلهم عند قرية النهروان خارج الكوفة ، وهزمهم ، فانضاف إلى جيش علي عدد منهم بعد الهزيمة ، وفر من أمام وجهه بعض من نجى منهم ، هاربين بأفكارهم ومبادئهم ينشرونها فى البلاد البعيدة عن قبضة الدولة . وبالفعل نجح هؤلاء الخوارج فى الانتشار فى بلاد فارس واليمن والمغرب ، وظهرت جماعتهم كفرقة دينية وسياسية لعبت دوراً هاماً على مسرح أحداث الدولة الإسلامية منذ ذلك الوقت .

وبعد هزيمة علي للخوارج فى النهروان ، استنفر رجاله للقتال والخروج

لمقاتلة جند الشام الملتفين حول معاوية . لكن جند العراق كانوا قد ملوا القتال وطول أمده وتشوقوا للعودة إلى بلادهم ، فتسللت أعداد كبيرة منهم عائدة إلى الكوفة ولم يتبق معه إلا عدد قليل منهم . وفى نفس الوقت تزايدت أعداد الملتفين حول معاوية فى الشام وخاصة بعد أن رأوا تخاذل أهل العراق وانفضاضهم من حول علي وعدم رغبتهم فى مواصلة القتال .

وبينما كان على يستحث جنده على القتال ويمنيهم بالنصر إذا هم واصلوا معه ، حدثت مؤامراة الخوارج التى دبروها للتخلص من علي ومعاوية وعمرو بن العاص بالقتل والاغتيال فى ليلة واحدة . وقد نجحت هذه المؤامرة التى دُبرت صباح يوم السابع عشرة من رمضان سنة ٤٠ هـ ، فى قتل علي بن أبى طالب على يد الخارجى عبد الرحمن بن ملجم الذى سدد إليه طعنة صائبة بخنجر مسموم وقعت فى جبهته وهو فى طريقه إلى مسجد الكوفة لأداء صلاة الفجر .

بينما نجا منها كل من معاوية وعمرو بن العاص . وكان الذى ذهب لقتل معاوية قد أصابه فى فخذه وهرب دون أن يكمل عليه فنجا معاوية بذلك من الموت وأما الذى ذهب ليغتال عمرو ، فذهب إليه وضرب بالسيف من كان يؤم الناس فى الصلاة ظناً منه أنه عمرو بن العاص ، ولكن عمرو ، فى هذه الليلة ، تغيب عن الصلاة فى المسجد لمرضه فناب عنه فى الصلاة بالناس مقدم الشرطة خارجة بن حذافة السهمى ، فضربه الخارجى عمرو بن بكر التميمى بسيفه فقتله ، وهو يظن أنه قتل عمراً . ولما سمع عمرو بالخبر ، حمد الله على نجاته وقال عبارته التى صارت من بعد ذلك مثلا : « أرادنى وأراد الله خارجة » .

ولما قُتل على ، ذهب إليه جماعة من المسلمين ، كانوا قريبين منه ، وقالوا له : « إستخلف علينا » ، فقال : « لا ، ما استخلف رسول الله فاستخلف ولكن إن يرد الله خيراً فسيجمعهم بعدى على خيرهم كما جمعهم بعد نبيهم على

خيرهم » ومات عليّ متأثرا بجرح السيف المسمم الذى ضرب به ، فلما مات عقد الناس بالبيعة من بعده لإبنه الحسن بن علي ، وهم يرون أنه أحق بالخلافة من معاوية ومن كثير غيره . وكان الحسن قد خرج لمثل ما خرج إليه أبوه من دعاء الفئة الباغية إلى الانقياد للحق والدخول فى الطاعة . لكن الحسن رأى ضرورة حقن دماء المسلمين ووقف نزيف هذه الفتنة بتنازله عن الإمامة ، فأدت الوساطة التى حدثت فى هذا الخصوص إلى أن يتنازل عنها ، وتصديقاً لقول الرسول ﷺ حيث قال على المنبر ، فى إحدى خطبه مشيراً إلى الحسن : « إينى هذا سيد ولعل الله يصلح به فئتين عظيمتين من المسلمين » ، وكان معاوية قد أرسل للحسن من يتوسط لإنهاء الحرب وإنهاء اقتتال المسلمين ، فأرسل رجلين من قريش من بنى عبد شمس ، هما عبد الرحمن بن سمرة وعبدالله بن عامر بن كريز ، فأتياه ، ودخلا عليه فتكلما ، وانتهت الوساطة بالمصالحة وتنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة . وقد تم عقد البيعة من الحسن لمعاوية فى موضع يُقال له « مسكن » على نهر دُجيل ، فى ربيع الأول سنة إحدى واربعين للهجرة ، فُسمى ذلك العام عام الجماعة ، لإجتماع المسلمين فيه بعد الفرقة . ولقد دخل معاوية ، بعد ذلك ، وأعوانه الكوفة فبايعه أهلها وبقية المسلمين فى كافة الأمصار بالخلافة . وبتولى معاوية بن أبى سفيان الخلافة ينتهى عهد خلافة الخلفاء الراشدين ويبدأ عهد جديد هو عهد الخلافة الأموية ، الذى استمر من سنة ٤١ هـ حتى سقوطها على يد العباسيين سنة ١٣٢ هـ .

الفصل الثالث

عصر الخلافة الأموية
(٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م)

عصر الخلافة الأموية
(٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م)

إنتقلت الخلافة الإسلامية من حكم الراشدين إلى الأموين ، الذين ينتسون إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قسي بن كلاب ، بعد مقتل الخليفة الراشد الرابع والأخير علي بن أبى طالب سنة ٤٠ هـ ، وتنازل إبنه الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان ، مؤسس الدولة الأموية . ولقد بايع الناس معاوية بالخلافة عام الجماعة ٤١ هـ ، واختلفت بيعتهم له ، فمنهم من بايعه طواعية وإختياراً كأهل الشام ، ومنهم من بايعه إضطراراً وكرهاً كأهل العراق والحجاز . ومنهم من قبل ما انتهت إليه الأمور فى مسألة الصراع على الحكم بين علي ومعاوية مثل أهل مصر واليمن وبقية الأطراف . ولما أصبح معاوية الخليفة الشرعى على الدولة الإسلامية ، صارت المهمة الملقاة على عاتقه مهمة غاية فى الصعوبة ، إذ كان عليه أن يلم شعث المسلمين وأن يوحد كلمتهم وأن يتخطى الأحداث الجسام التى وقعت وسبقت توليه الخلافة ، وأن يعيد الأمن والنظام للدولة وأن يصلح الإدارة والاقتصاد ، كذلك أن يستعيد مسيرة الفتوح الإسلامية التى بدأها الصديق أبو بكر .

ولقد إستطاع معاوية بالفعل أن يحقق كل ذلك خلال العشرين عاماً التى حكم فيها الدولة الإسلامية ، وأن يؤسس دولة قوية البنيان مزدهرة الحكم والسياسة والإدارة منتعشة الاقتصاد متينة الجيش والأسطول . وبذلك جعل معاوية الأمويين حكام الدولة من بعده ، يكملون ما بدأه الراشدون من فتوح ويواصلون ما قاموا به من جهاد ، وأن يتوسعوا بالدولة الإسلامية لتصل من حدود الصين

شرقًا إلى حدود المحيط الأطلسى غربًا ، ومن غانة جنوبًا إلى فرغانة شمالاً وتضم بين جنباتها مزيجًا متجانسًا من شعوب القارات المختلفة .

ولقد تميز العصر الأموى بسمات خاصة غلبت عليه هى :

أولاً : إنتقال مركز الخلافة وعاصمتها إلى دمشق وبلاد الشام .

ثانيًا : تحويل الأمـويين الخلافة من نظام الشورى الانتخابى إلى نظام الملكية الوراثى .

ثالثًا : مواصلة الأمويين لحركة الفتوح الإسلامية التى كانت قد بدأت فى عهد الراشدين .

رابـعًا : إستكمال النظم الإدارية والمالية للدولة .

خامسًا : تعريب العملة والدواوين .

سادسًا : سيادة العنصر العربى فى الدولة بإعتبار أنه العنصر الحاكم .

سابعًا : قيام الجماعات السياسية والفرق الدينية كفرقة الخوارج والشيعة .

وقد حكم الأمويون دولة الخلافة تسعين عامًا ، وكان عدد خلفائهم أربع عشرة خليفة ، منهم من حكم مدة طويلة جاوزت العشرين عامًا ، ومنهم من حكم فقط لعدة أيام ، وقد كان معظم حكامها من أبناء وحفدة الخليفة مروان إبن الحكم . وقد جاء ترتيبهم وسنوات حكمهم كالتالى :

١ – معاوية بن أبى سفيان ، ٤١ – ٦٠ هـ / ٦٦١ – ٦٨٠ م .

٢ – يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، ٦٠ – ٦٤ هـ / ٦٨٠ – ٦٨٣ م .

٣ – معاوية ، الثاني ، بن يزيد بن معاوية ، ٦٤ هـ / ٦٨٣ م .

٤ – مروان بن الحكم بن العاص بن أمية ، ٦٤ – ٦٥ هـ / ٦٨٣ – ٦٨٥ م .

٥ – عبد الملك بن مروان بن الحكم ، ٦٥ – ٨٦ هـ / ٦٨٥ – ٧٠٥ م .

٦ – الوليد بن عبد الملك بن مروان ، ٨٦ – ٩٦ هـ / ٧٠٥ – ٧١٥ م .

٧ – سليمان بن عبد الملك بن مروان ، ٩٦ – ٩٩ هـ / ٧١٥ – ٧١٧ م .

٨ – عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، ٩٩ – ١٠١ هـ / ٧١٧ – ٧٢٠ م .

٩ – يزيد ، الثانى ، بن عبد الملك بن مروان ١٠١ – ١٠٥ هـ / ٧٢٠ – ٧٢٤ م .

١٠ – هشام بن عبد الملك بن مروان ، ١٠٥ – ١٢٥ هـ / ٧٢٤ – ٧٤٣ م .

١١ – الوليد ، الثاني ، بن يزيد بن عبد الملك ، ١٢٥–١٢٦ هـ / ٧٤٣– ٧٤٤ م .

١٢ – يزيد ، الثالث ، بن الوليد بن عبد الملك ، ١٢٦ هـ / ٧٤٤ م .

١٣ – إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ، ١٢٦ هـ / ٧٤٤ م .

١٤ – مروان ، الثانى ، بن محمد بن مروان بن الحكم ، ١٢٦ – ١٣٢ هـ / ٧٤٤ – ٧٥٠ م .

وتعد حقبة تاريخ الدولة الأموية من أزهى حقب التاريخ الإسلامى ، ويعد عصرها من أزهى عصورها ، لكن تاريخ هذه الدولة لم يأخذ حقه من الدراسة ولم ينصفه المؤرخون لأنه لم يبدأ تدوين التاريخ الإسلامى عموماً إلا بعد زوال دولتهم وقيام دول لايسر رجالها التحدث بمفاخر تاريخ الأمويين ومحاسن أهله . وقد تولى تدوين التاريخ الإسلامى ثلاثة طوائف : طائفة كانت تنشد المكانة والصدارة من التقرب لبنى **العباس** ، مبغضى بن أمية ، بما تكتبه وتؤلفه . وطائفة ظنت أن التدين لايتم ولايكون التقرب إلى الله إلا بتشويه سمعة أبى بكر وعمر وعثمان وبنى عبد شمس جميعاً ، وطائفة ثالثة من أهل الإنصاف والدين ،

كالطبرى وابن عساكر وابن الأثير وابن كثير رأت من الإنصاف أن تجمع أخبار الأخباريين من كل المذاهب والمشارب ، ولعل بعضهم أضطر إلى ذلك إرضاءً لجهات كان يشعر بقوتها ومكانتها .

وعجباً لاستكبار الناس ولاية بنى أمية حكم المسلمين ، وقد كان رسول الله ﷺ أول من عقد الولاية لهم ، فقد ولىَّ يوم فتح مكة ، عتاباً بن أسيد بن أبى العاص بن أمية مكة ، حرم الله وخير بلاده ، وهو فتى فى سن الشباب . واستكتب الرسول معاوية وجعله أميناً على الوحى . وولى يزيد بن أبى سفيان ، أخو معاوية الأكبر ، الشام فى خلافة أبى بكر ، وتولى معاوية فلسطين والشام كله فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان .

١ - معاوية بن أبى سفيان (٤١ - ٦٠ هـ) :

هو معاوية بن أبى سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب ، وُلـد قبل البعثة فى قريش بمكة بخمس سنين ، وكان أبوه أبو سفيان أحد شيوخ مكة قبل الإسلام وبعده ، أسلم معاوية يوم فتح مكة ، وله من العمر ثلاث وعشرون سنة ، وكتب الوحى فى جملة من كتبه بين يدىْ رسول الله ﷺ ، وكانت أمه هند بنت عتبة بن ربيعة ، شريفة فى قريش ، أسلمـت عام الفتح . وقد شهد معاوية مع الرسول وشارك فى غزوة حنين ، ورُوى له عن رسول الله مائة وثلاثة وستون حديثاً ، وروى عنه الصحابة والتابعون من أمثال ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبى الدرداء وابن المسيب ، وغيرهم . ولى الشام فى خلافة أبى بكر وعمر وعثمان ، وصارت إليه خلافة المسلمين بعد مقتل علىّ وتنازل إبنه الحسن عـن الخلافة فـى عام الجماعة سنة ٤١ هـ . وهناك من تساءل قائلاً : « ألم يكن فى الصحابة أقعد بالأمر من

معاوية بعد علي ؟ » ، نقول كان هنالك الكثير ، مثل : سعد بن أبى وقاص وعبدالله بن عمر بن الخطاب وغيرهما من كبار الصحابة ، لكن معاوية إجتمعت فيه عدة خصال ، منها « أن عمراً جمع له الشامات وأفرده بها لما رأى وأفرده بها لما رأى من حسن سيرته وقيامه بحماية الدين وسد الثغور ، وإصلاح الجند والظهور للعدو ، وسياسة الخلق والتوسع فى الفقه . وكان معاوية يعرف للناس أقدارهم ، وقد خطب فيهم مرة قائلا : « أيها الناس ، ما أنا بخيركم وإن منكم من هو خير منى : عبدالله بن عمر وعبدالله بن عمرو وغيرهما من الأفاضل ولكــن عسى أن أكون أنفعكم ولاية وأنكاكم فى عدوكم وأدركم حلبًا » ، ولقد كان معاوية محبوبًا من رعيته ، وكان يُلقب بخال المؤمنين ، لأنه أخو أم المؤمنين رملة بنت أبى سفيان ، المشهورة بكنيتها أم حبيبة . قال قبيصة بن جابر الأسدى يمتدح طيب سجيته بقوله : « ألا أخبركم من صحبت ؟ صحبت عمر بن الخطاب فما رأيت رجلاً أفقه فقهاً ولا أحسن مدارسة منه . ثم صحبت طلحة بن عبيد الله فما رأيت رجلاً أعطى للجزيل من غير مسألة منه . ثم صحبت معاوية فما رأيت رجلاً أحب رفيقًا ولا أشبه سريرة بعلانية منه » . وقد بلغ من همة وعظيم عنايته فى حماية الثغور بأن أرسل يهدد ملك الروم ، وهو فى معمعة القتال مع علي فى صفين ، وقد بلغه أن ملك الروم انتهز الفرصة واقترب من الحدود الإسلامية فى جنود عظيمة ، فكتب إليه يقول : « والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك لأصطلحن أنا وابن عمى عليك ولأخرجنك من جميع بلادك ولأضيقن الأرض عليك بما رحبت » ، فخاف ملك الروم وكف يده . ولقد تحققت دعوة رسول الله حين دعى له قائلا : « اللهم أجعله هاديًا مهديًا وأهد به » . ولقد كان معاوية عظيماً من عظماء أمة الإسلام وصاحب من خيرة صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقد كان مصباحاً

من مصابيح الدولة الإسلامية ، لكن هذا المصباح سطع إلى جانب أربع شموس ملأت الدنيا بأنوارهـا فغلبت أنوارها على نـوره . لقد وصف معاوية بأنه كان عاقلا ، لبيبا ، ملكاً قوياً ، جيد السياسة ، حسن التدبير لأمور الدنيا ، حكيماً فصيحاً بليغاً ، حليماً ، يحلم فى موضع الحلم ويشتد فى موضع الشدة إلا أن الحلم كان أغلب عليه ، وقد ضرب بحلمه المثل . ومن حلم معاوية تلك اللباقة والسياسة التى مكنته من أن يقوم دائماً بالعمل المناسب فى الوقت المناسب ، وقد عُرف هو هذه السياسة بقوله : « لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضع سوطـى حيث يكفينى لسانى ، ولو كان بينـى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، إذا مدوها خليتها وإذا خلوها مددتها » ، وكان كريما باذلاً للمال ، محباً للرياسة مشغوفاً بها ، كان يُكرم ويُغدق على من كان يفد إليه إلى دمشق من أشراف قريش ويُكرم مثواهم ويقضى حوائجهم . وكانوا أحياناً يحدثونه أغلظ حديث ويجابهونه بأقبح مجابهة ، فكان يصبر عليهم وهو يداعبهم تارة ويتغافل عنهـم تارة أخرى ولايعيدهـم إلا بالجوائز السنية والصلات الجمة ، رغـم أن بعضهـم كان يُعرض فى حضوره بعظم رد فيه ويكايده باسمه الذى يعنى «كلبة عاوية » وبلقب أسرته أمية ، وهى تصغير للأمة وهى الجارية . وكان معاوية شديد الـدهاء ، وقـد رُوى أن عمراً بـن الخطاب قال لجلسائه مرة : « تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية ! » . وبمثل هذه السيرة صار معاوية خليفة المسلمين ، بعد علي ، وخضع له من أبناء المهاجرين والأنصار كل من كان يعتقد أنه أولى بالخلافة منه . وقد قال عبد الملك بن مروان فى وصف معاوية : « كان والله فيما علمته ينطق عن علم ويسكت عن حلم ، وكان إذا أعطى أغنى وإذا حارب أفنى » .

ولقد امتدح صاحب الفخرى معاوية بقوله عنه : « إن معاوية كان مربى

دول وسـائس أمم وراعى ممالك . إبتكر فى الدولة أشياء لم يسبقه أحد إليها ، منها : أنه أول من وضع الحشم للملوك ورفع الحراب بين أيديهم ووضع المقصورة التى يصلى الملك أو الخليفة بها فى الجامع منفرداً بين الناس ، وذلك لخوفه مما جرى لأمير المؤمنين علي عليه السلام ، فصار يصلى منفرداً فى المقصورة فإذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف . وهو أول من وضع البريد لوصول الأخبار بسـرعة » . كذلك أورد أن معاوية هو أول من إخترع من أمور المُلك ديوان الخاتم ، ويقول فى ذلك : « وهذا ديوان معتبر من أكابر الدواوين لم تزل السنّة جارية به إلى أواسط دولة بنى العباس فأُسقط . ومعناه أن يكون ديوان وبه نواب ، فإذا صدر توقيع من الخليفة بأمر من الأمور أُحضر التوقيع إلى ذلك الديوان وأثبتت نسخة فيه وخُزم بخيط وخُتم بشمع .. وكان الذى حمل معاوية على اختراع هذا الديوان أنه أحال رجلاً على زياد بن أبيه ، أمير العراق ، بمائه ألف درهم ، فمضـى ذلك الرجل وقرأ الكتاب وكانت تواقيعهم غير مختومة فجعل المائة مائتين . فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر معاوية ذلك ، وقال : ما أحلته إلا بمائة ألف ، ثم إستعادها منه ، ووضع ديوان الخاتم ، فصارت التواقيع تصدر منه مختومة لا يدري أحد مافيها ولايتمكن أحد من تغييرها » .

ولقد كانت أول المشاكل التى كان على معاوية مواجهتها ، حين صارت له الخلافة وحتى يستتب أمرها له ، هى مشاكل أهل بيته من الأمويين ، والفرع المروانى منهم بصفة خاصة . فقد رأى ، منذ بداية توليه الخلافة ، ضرورة تحديد صلته بأفراد أسرته ، وتتمثل هذه الصلة فى الإستعانة بهم فى حكم الدولة دون أن يمكنهم مـن السلطة بتعيينهم فى الولايات المستقرة لحكم الأمويين مثل الحجاز ، وعدم إطالة مدد ولايتهم على ولاياتهم حتى لايتقووا بأهل هذه الولايات ، كذلك بوضعهم ، على الدوام ، تحت عينيه مع إغداق المال عليهم .

ولقد كانت خشية معاوية من أفراد عائلته على حكمه تفوق خشيته من أعدائه المنتمين للفرق السياسية المعارضة لحكمه كالخوارج والشيعة .

ولقد عمل معاوية على تركيز كل أمور الدولة فى يده وإحتفاظه لنفسه فيها بكل السلطات ، وقد رأى أن تلك السياسة هى السياسة السليمة الحكيمة الوحيدة لتحقيق أمانيه وتحقيق المصلحة العامة للمسلمين . وعمل معاوية على تدعيم نفوذه وتثبيت مكانة الدولة فى الأمصار ، وبخاصة فى العراق وفارس ، فاختار ولاته من كبار المخلصين لبنى أمية والشخصيات القيادية الكبيرة من أمثال ، عمرو بن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة . فقد جعل معاوية لعمرو بن العاص ولاية مصر حتى وفاته بها سنة ٤٣ للهجرة . وجعل المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة وزياداً والياً على البصرة ، ولما توفى المغيرة سنة ٥٠٠ هـ ضم ولاية الكوفة لولاية البصرة فى ولاية واحدة وجعلها لزياد ، فكان زياد بذلك أول من جُمع له العراق . ولقد كان المغيرة وزياد دعامتين كبيرتين من دعائم الدولة الأموية استطاعا ، بفضل دهائهما وقوة شخصيتهما واستخدامهما العنف والشدة مع اللين ، فى القضاء على القلاقل فى بلاد العراق وفى إخماد الثورات التى كان الخوارج والعلويون يشعلونها بين الحين والحين الآخر . ولكى يرفع معاوية مكانة زياد ويضمن تفانيه فى الولاء والاخلاص له ولدولته ، قام باستلحاقه بنسبه فجعله زياد بن أبى سفيان ، بعد أن كان يُعرف بزياد بن عبيد ، وزياد بن سمية ، وزياب بن أبيه . فصار زياد بذلك أموياً ، وأضاف معاوية إلى ولايته على البصرة والكوفة الولاية على خراسان وسجستان والهند والبحرين وعُمان . فغدا بذلك حاكماً على النصف الشرقى من دولة بنى أمية . ولقد استطاع زياد ، بعينه الساهرة على الأحداث فى ولايته وسمعه المرهف وبسيفه الماضى ، أن يحمل القطر الثائر على البقاء فى الفلك السفيانى ، أما ما أثاره البدو وسائر العرب

من مشاكل فى البصرة والكوفة فقد عالجها بنقل خمسين ألفٍ منهم إلى شرق فارس .

ولقد أولى معاوية إهتمامه بحركة الفتوح الإسلامية وصرف القبائل العربية إلى الجهاد ونشر الإسلام ، فقامت جيوشه سنة ٤٣هـ بفتح بلاد سجستان فى الشرق من بلاد ما وراء النهر ، شرقى نهر سيحون : مرو ، وبلخ ، وهراة ، وغيرها ، ونجحت فى الاستيلاء على بخارى ، أهم مدن هذا الإقليم وأكبرها . كذلك إتجهت قواته إلى الغرب ، فأرسل القائد العربى الكبير عقبة بن نافع الفهرى ، وهو إبن خالة عمرو بن العاص ، فاتح مصر وحاكمها ، سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م ، إلى افريقية للتوسع فى بلاد المغرب . فنجح فى ذلك بعد التغلب على القبائل البربرية ، وأسس هنالك فى هذا العام مدينة القيروان ، التى صارت قاعدة للقوات العربية هناك ومركز إنطلاق للفتح العربى لبقية بلاد المغرب ولبلاد الأندلس ، وبذلك صارت القيروان الوريثة لقرطاجة القديمة . ومنها إنطلقت القوات الإسلامية ، فيما بعد ، وواصلت زحفها على شمال افريقية ، واستطاعت ، بمساعدة البربر أهل البلاد الذين دخلوا فى الإسلام ، أن تُخرج الروم من مناطق كثيرة من ساحل إفريقية الشمالى . وقد أستشهد عقبة فى أحد هذه المعارك ضد ثوار البربر سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م ، ولايزال المكان الذى أُستشهد فيه عقبة ودُفن يُعرف بسيدى عقبة ، وهو يبعد بضعة أميال إلى الجنوب الشرقى من بسكرة بالجزائر ، وقد غدا مدفنه مزاراً دينياً وقومياً حتى الآن .

كذلك أعلن معاوية الجهاد ضد دولة الروم ، وأعد من أجل ذلك الأسطول الإسلامى لكى يغزو به عاصمة الروم القسطنطينية من البحر ، كما أعد جيشه البرى لمهاجمتها فى نفس الوقت من البر . وبالفعل قامت قواته البرية والبحرية سنة ٤٨ هـ / ٦٦٨ م بمهاجمة القسطنطينية ومحاصرتها ومحاولة إسقاطها ، وقد

جعل معاوية ابنه يزيد أميراً على هذا الجيش المهاجم الذى شارك فيه عدد كبير من الصحابة والتابعين . ولكن حصانة عاصمة الروم آنذاك واستبسال قواتها فى الدفاع عنها حالت دون سقوطها فى أيدى المسلمين . وقد نجح الأسطول الإسلامى ، الذى جهزه معاوية ، فى الاستيلاء على جزر قبرص ورودس فى البحر المتوسط وضمها إلى الدولة الإسلامية ، واتخاذهما قاعدتين فى هذا البحر لمنازلة سفن الروم .

وفى سنة ٦٠ هـ / ٦٧٩ م ، وقبل وفاته بستة أشهر ، دعا معاوية أهل الشام إلى البيعة بولاية العهد بعده لإبنه يزيد فبايعوه ، ثم إنه كتب لواليه على المدينة ، مروان بن الحكم ، أن يأخذ البيعة له هناك . ثم حج معاوية سنة إحدى وخمسين وأخذ البيعة لإبنه بمكة . ويُعد معاوية أول من عهد بالخلافة لإبنه ، وأول من عهد بها وهو فى كامل صحته . ولقد إتبع معاوية ، فى أخذ البيعة لإبنه يزيد من بعده ، كل الطرق من وعد ووعيد وإغراء وتهديد ، واستطاع أن يحصل عليها ، وأن يتأكد ، وهو تارك للدنيا ، أن الخلافة صائرة لإبنه يزيد من بعده .

ومن أسباب اختيار معاوية ليزيد بولاية الأمر من بعده : أن معاوية رأى شباب قريش المعاصرين ليزيد ، ممن يحدثون أنفسهم بولاية الأمر لبعض الاعتبارات التى يعرفونها لأنفسهم ، كثيرون جداً مثل : الحسين بن علي وعبدالله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وسعيد بن عثمان بن عفان وعبدالله بن الزبير وغيرهم كانوا يطمعون فى ولاية الأمر بعد معاوية . ومبدأ الشورى فى انتخاب الخليفة أفضل بكثير من مبدأ ولاية العهد ، لكن معاوية كان يعلم ، بينه وبين نفسه ، أن فتح باب الشورى فى انتخاب من يخلفه سيحدث فى الأمة الإسلامية مجزرة لا تنتهى إلا بنهاية كل صالح فى قريش لولاية شيء من أمور هذه الأمة

.ومعاوية أحصف من أن يخفى عليه أن المزايا موزعة بين هؤلاءً الشباب القرشيين . فإذا إمتاز أحدهم بشيء على أضرابه ولذاته فإن فيهم من يمتاز عليه بشيء آخر منها . غير أن يزيد ، مع مشاركته لبعضهم فى بعض مايمتازون به ، يمتاز عليهم بأعظم ما تحتاج إليه الدولة آنذاك ، وهى القوة العسكرية التى تؤيده فى تولى الخلافة وهى مالم تتوافر فى غيره . وإذا كان مقياس الأهلية لذلك أن يبلغ يزيد مبلغ أبى بكر وعمر فى مجموع سجاياهما فهذا مالم يبلغه أحد فى تاريخ الإسلام ولاحتى عمر بن عبد العزيز . وإن طمعنا فى المستحيل وقدرنا إمكان ظهور أبى بكر وعمر آخر فلن تُتاح له بيئة كالبيئة التى أتاحها الله لأبى بكر وعمر . وإن كان مقياس الأهلية الاستقامة فى السيرة والقيام بحرمة الشريعة والعمل بأحكامها والعدل فى الناس والنظر فى مصالحهم والجهاد فى عدوهم وتوسيع الآفاق لدعوتهم والرفق بأفرادهم وجماعاتهم ، فإن يزيداً يوم تمحص أخباره ويقف الناس على حقيقة حاله كما كان فى حياته يتبين من ذلك أنه لم يكن دون كثيرين ممن تغنى التاريخ بمحامدهم وأجزل الثناء على سيرتهم وتاريخهم .

ولقد شهد كثيرون بعدالة يزيد ، فقال عنه محمد بن علي بن أبى طاب : « مارأيت منه إلا خيراً ، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظباً على الصلاة متحرياً للخير يسأل عن الفقه ، ملازما للسُنة » . أما عن العلم فقد كان فيه موضع الرضا وفوق الرضا ، ولقد أقر له بالعلم عبدالله بن عمر حين جاء لمبايعته . وإن معاوية ، مع شديد حبه ليزيد ، لألمعيته وإكتمال مواهبه ، آثر أن ينشأ بعيداً عنه فى أحضان الفطرة وخشونة البداوة وشهامتها ليستكمل الصفات اللائقة بالمهمة التى تنتظر أمثاله ، فبعث به إلى أخبية البادية ، عند أخواله من قضاعة ، ليكون على مذب أمه ميسون بنت بجدل . وفى ذلك الوسط العربى

النقى أمضى يزيد صباه وصدر شبابه فنشأ على حسن الخلق وقويم السلوك . لقد قال عنه الإمام الليث حين مات : « توفى أمير المؤمنين » ولولا عنده كذلك ما قال إلا : توفى يزيد .

لقد قالوا عن يزيد أنه كان معاقراً للخمر ، ولم يشهد عليه شاهدان بذلك ، وقالوا عليه أنه كان مستهتراً يميل للهو واللعب والصيد . لكن هذه كلها إتهامات باطلة لصقها بها كتاب العباسيين وكتاب الشيعة ، لأن معاوية ، وهو الحريص على أمر الأمة الإسلامية ، وهو الذى أمضى من عمره أربعين عاماً فى الحكم بين الإمارة والخلافة ، لو كان يعلم مثل هذه الصفات فى إبنه والتى لا تؤهله لقيادة الدولة لما تردد لحظة واحدة فى إبعاده وإفساح المجال لغيره ممن كانت تتوافر فيهم صفات القيادة آنذاك ، ويؤيد الرأى فى حسن استعداد يزيد للحكم والقيادة إختيار أبيه له لتولى قيادة جيش فتح القسطنطينية ، التى أظهر فيها ضروب الشجاعة والبسالة ما أكسبه بحق لقب : فتى العرب

تُوفى معاوية فى شهر رجب سنة ستين للهجرة ، بعد عمر تجاوز السبعة وسبعين عاماً ، ودُفن بدمشق بين باب الجابية والباب الصغير . ولقد كان معاوية من عظماء الرجال ومؤسسى الدول ، وقد نجح فى إقامة واستقرار الدولة الأموية التى عاشت من بعده ثنتان وسبعين عاماً . وإذا كانت بعض المصادر التاريخية قد أفاضت فى ذكر سيرة معاوية قبل توليه الخلافة وبعدها ، إلا أن هنالك من الكُتاب الذين وجهوا الاتهامات إليه وأدانوه بها فى كتاباتهم . وفى الحقيقة لقد ثبت عدم صحة هذه الاتهامات ، وقد تصدى من المؤرخين المنصفين من قام بالرد عليها ودحضها .

ومن هذه الاتهامات التى وُجهت لمعاوية : أنه قتل حجر بن عدى ، وهو من الصحابة المشهورين بالخير ، قتله صبراً « عطشاً » أسيراً . وقيل أنه قام بسم

الحسن بن علي بن أبى طالب . ومن اتهاماتهم أيضاً أنه عهَّد ليزيد بالخلافة وهو ليس أهلها لها . أما بخصوص قتل حجر بن عدى ، فقد قيل أن سببه تمرد حجر على زياد بن أبى سفيان ، والى الخليفة على الكوفة ، وقيامه بحصبه وخلعه لأمور رآها منكرة ، وأراد أن يقيم الخلق للفتنة فاعتبره معاوية ممن يسعون فى الأرض فساداً . وقد كان زياد فى خلافة علي والياً من ولاته ، وكان حجر من أولياء زياد وأنصاره ، ولم يكن ينكر عليه شيئاً ، فلما صار زياد من ولاة معاوية صار ينكر عليه مدفوعاً بعاطفة التحزب والتشيع . وكان حجر يفعل ذلك ومثله مع من تولى الكوفة لمعاوية قبل زياد ، فلمعاوية العذر إذا رأى أن حجراً ممن سعى فى الأرض فساداً ، فكان جزاءه القتل . أما عن سم معاوية للحسن ، فلم تثبت صحة هذه الرواية ، لأن علاقة معاوية بالحسن كانت طيبة ، ولم يكن معاوية يخشى الحسن فى شيء بعد أن تنازل له ، عن طيب خاطر ، عن الخلافة ، وبعد أن قدر له معاوية ذلك . كذلك فإن الحسن مات بالمدينة ، وكان معاوية بالشام وقت وفاته . ولذلك الخبر احتمالات ، على فرض صحته ، منها أن الحسن كان مطلاقاً لايدوم مع إمرأة ، وقد قيل أنه تزوج مائة أمرأة ، وقد يكون قد مات مسموماً بفعل مكيدة نسائية . أما عهده بالخلافة ليزيد ، فإنه اجتهد فى إختياره والخير أراد لكن تطورات الأحداث أثبتت عكس ذلك .

وكان يزيد غائبا عن الشام حينما مات أبوه ، فلما وصل دمشق جُددت له البيعة ، ثم جمع الناس فى جامع دمشق وخطب فيهم خطبة دلت على تقواه وورعه . وقد قال فيها ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أيها الناس إن معاوية كان عبداً من عبيد الله ، أنعم الله عليه ، ثم قبضه إليه ، وهو خير من بعده ودون من قبله ولا أزكيه على الله عز وجل فإنه أعلم به ، وإن عفا عنه فبرحمته وإن عاقبه فبذنبه . وقد وليت الأمر من بعده ولست آسى على طلب ولا أعتذر من تفريط وإذا أراد الله شيئاً كان » .

-يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٣ هـ):

هو أبو خالد ، يزيد بن معاوية ، وُلد سنة ست وعشرين للهجرة ، وأمه ميسون بنت بجدل الكلبية ، كان فصيحاً كريماً وشاعراً بليغاً ، كانت خلافته ثلاث سنين وستة أشهر . لمّا مات أبوه بايعه أهل الشام بالخلافة ، ثم بعث إلى أهل المدينة من يأخذ البيعة له هناك ، فكتب إلى عامله على المدينة ، الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ، أن يأخذ له البيعة من الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبدالله بن العباس . فبايعه إبن عمر وإبن العباس ، أما إبن الزبير فأبى المبايعة ، وذهب إلى مكة واستعاذ بالبيت ، وأخذ يعمل على بث الدعوة لنفسه ، ولكنه وجد الحسين بن على أولى بالأمر منه فعمل على تحريضه بها مظهراً مناصرته له فيها . أما الحسين بن علي ، فحين حضر إلى الوليد بن عتبة ، عرّفه الوليد بخبر موت معاوية ، ودعاه إلى البيعة لإبنه يزيد ، فتمهل الحسين فى ذلك ، وقال له « مثلى لا يبايع سرّ ولكن إذا إجتمع الناس نظرنا ونظرت » ، ثم خرج الحسين من عنده وجمع أصحابه وخرج من المدينة قاصداً مكة رافضاً بيعة يزيد فلماً استقر بمكة وصل إلى أهل الكوفة رفضه لبيعة يزيد وكانوا يكرهون عموم بنى أمية ، فكتبوا إليه الكتب يدعونه إلى القدوم إليهم ويبذلون له النصرة على بنى أمية . واجتمعوا وتآلفوا على ذلك ، وتابعوا إرسال الكتب إليه فى هذا المعنى . فأرسل إليهم إبن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب ليأخذ عليهم البيعة ، فوصل الكوفة ، وبايع للحسين هنالك إثنى عشر ألفاً. وجاءت للحسين رسائل ابن عقيل بأن اثنى عشر ألفا بايعوه على الموت فخرج عقب موسم الحج يريد الكوفة . وكان ابن عباس قد نهاه عن الخروج إلى الكوفة وأعلمه أن أهل العراق خاذلوه كما خذلوا أباه وأخاه من قبل ، لكن الحسين لم يستمع له وشرع فى الذهاب إلى الكوفة فى العاشر من ذى الحجة

سنة ٦١ هـ ، ومعه طائفة من أهل بيته رجالاً ونساءً وصبياناً . فكتب يزيد إلى عبيد الله بن زياد بالتصدى للحسين ورجاله ، وكان يزيد قد جعل ولاية الكوفة مع البصرة لإبن زياد ، فأقبل إبن زياد إلى الكوفة ، واتصل بروسائها وقبض على زمام الأمور فيها ، فما لبث ابن عقيل أن إنفض عنه أتباعه ووجد نفسه وحيداً ، ثم قبض عليه وقتل . ورغم ذلك تمادى الحسين واستمر ، غضباً للدين وقياما بالحق ، ولكنه رضى الله عنه ، لم يقبل نصيحة أعلم أهل زمانه عبدالله بن العباس وعدل عن رأى شيخ الصحابة عبدالله بن عمر . ولما تيقن الحسين من قتل ابن عقيل وتيقن من خذلان أهل العراق له قال لمن معه من غير أسرته ولمن إنضم إليه فى طريقه : « لقد خذلتنا شيعتنا فمن أحب منكم الإنصراف فلينصرف » فتفرق أكثر الناس ولم يبق معه غير أبناؤه وأقرباؤه وبعض المخلصين من اتباعه ، ولم يكن يزيد مجموعهم بأى حال من الأحوال ، عن المائة . وقفوا ليواجهوا جيش ابن زياد المؤلف من أربعة آلاف رجل بقيادة عمر بن سعد بن أبى وقاص وشمر بن ذى الجوشن . ولقد وقعت المعركة غير المتكافئة بين الطرفين عند كربلاء ٢٥ ميلاً شمال غربى الكوفة ، يوم العاشر من المحرم ، وأستشهد فيها الحسين ومعظم من كانوا معه بعد أن قاتلوا قتال الأبطال .

وليس هنالك ما يبرر نسبة قتل الحسين إلى يزيد فهو لم يأمر بقتاله ، فضلاً عن قتله ، وكل ما أمر به أن يحاط به ولا يقاتل إلا إذا قاتل . ولقد ظل أمراء القوات ، التى أحاطت بالحسين وجماعته ، ملتزمين بما أمروا به ، وبذلوا جهدهم فى إقناعه بالنزول على حكم ابن زياد ومبايعة يزيد ، لكن الحسين أبى إلا أن يقاتل ولم يتفاوض فى غير القتال ، فإذا كان الحسين أبى أن يستسلم ليدخل فيما دخل فيه المسلمون وقاوم بالقوة فمقابلته وقتاله وإن كان ضاراً من الوجهة الشرعية فإنه كان سائغاً من الوجهة السياسية . ومع ذلك فإننا نرى أن

بعض الحانقين على آل البيت ضمن جيش معاوية قد تعجلوا بقتل الحسين ، وكان يكفى عدم قتله ومحاصرته وجماعته مع تقديم صنوف العناية والرعاية لهم ، وترك أمر الصلح للأيام ريثما تهدأ ثائرة الحسين . وكل ذلك كان ممكناً ماداموا قلة لايزيدون على المئة فلا يقاتلونهم حتى ولو قاتلوا إلى أن يملوا القتال وتُنزع منهم أسلحتهم بأى طريقة من الطرق ويُحفظ دم الحسين ودم آل بيت رسول الله ، لكن قدّر الله فكان وكان أمره قدراً مقدوراً . وتكذب بعض المصادر حين تذكر أن الحسين قد عرض على محاربيه الاستسلام والرجوع والمضى إلى يزيد فيضع يده فى يده حين اشتد القتال على أهل بيته . وتزعم أن ابن زياد وابن الجوشن أبوا إلا قتله . ولنسأل هؤلاء الذين زيفوا التاريخ ، ما هى الفائدة التى عادت على يزيد من قتل الحسين ؟ وأى شرف حققه بقتله ؟ على العكس من ذلك لقد كان قتل الحسين نقطة سوداء فى تاريخ يزيد ، سواء أكان قتل بإرادته أو غير إرادته . إن يزيداً كان حريصاً على حفظ الحسين وحفظ دمه ودم أهل بيته ، والدليل على ذلك حالة الحزن الشديد والبكاء التى أصابت يزيد حين حُمل له رأس الحسين ، وقوله لحاملى الرأس إليه : « لقد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعن الله قاتليه ، أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه ، فرحم الله الحسين ، أما والله ياحسين لو أنا صاحبك ما قتلتك » ، وتذكر المصادر أن يزيداً دعا بعلي الصغير بن الحسين ونسائه فأدخلوهم عليه وعنده أشراف الشام ، فقال لعلي : « أبوك الذى قطع رحمى وجهل حقى ونازعنى سلطانى فصنع الله به ما قد رأيت » . ثم أمر بإنزالهم فى داره وأمر لهم بما يصلحهم ، وكان لايتغذى ولايتعشى إلا على معه ، ثم أمر النعمان بن بشير أن يجهزهم بما يصلحهم ويسيرهم إلى المدينة مع أناس صالحين . ولما أرادوا الخروج دعا علياً فودعه وقال له « لعن الله إبن مرجانة ، أما والله لو أنى صاحبه ما سألنى

خصلة إلا أعطيتها إياه ولدفعت عنه الحتف بكل ما استطعت ولو بذلت بعض ولدى دونه ولكن الله قضى ما رأيت ، فكاتبنى ولك علىّ أن تكون كل حاجة لك » . قالت السيدة زينب أخت الحسين ، تصف حالة الحزن والألم التى كان عليها يزيد لما حدث للحسين ولآل البيت ، بقولها : « لما أُجلسنا بين يدى يزيد بن معاوية رق لنا وأمر بإكرامنا ، ثم أمر بتجهيزنا بما يصلح لنا وأن يبعث معنا رجلاً من أهل الشام أميناً صالحاً ، وبعث معنا خيلاً وأعواناً ساروا بنا إلى المدينة . قالت : ولقد أفرد لنا يزيد داراً ، ولماّ دخلنا دار يزيد لم تبق من آل معاوية إمرأة إلا استقبلتنا تبكى وتنوح على الحسين ، وأقاموا المناحة عليه ثلاثاً ، وكان يزيد لايتغذى ولايتعشى إلا دعا إليه علي بن الحسين » .

ولقد قُتل فى كربلاء من آل البيت وقرابة رسول الله ، إلى جانب الحسين ، ثمان عشرة رجلاً ، من إخوته أربعة ، هم : العباس ، وجعفر ، ومحمد ، وأبو بكر . ومن أبنائه إثنان ، هما : علي ، وأمه ليلى إبنة أبى مرة بن عروة بن مسعود الثقفى ، وعبدالله ، وأمه الرباب إبنة إمرئ القيس بن عدى ، ومن أبناء أخيه الحسن ثلاثة ، هم : أبو بكر ، وعبدالله ، والقاسم . ومن آل أبى طالب ، ثمانية هم : عون بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب ، وأخوه محمد بن عبدالله ، وجعفر بن عقيل بن أبى طالب ، وأخوه عبد الرحمن بن عقيل ، وأخوه عبدالله بن عقيل ، وأخوه مسلم بن عقيل ، وعبدالله بن مسلم بن عقيل ، ومحمد بن سعيد بن عقيل . ومن موالى آل البيت : سليمان ، مولى الحسين بن علي ، ومنجح مولى الحسين بن علي ، وعبدالله بن بقطر ، رضيع الحسين بن علي .

وفى سنة ٦٣ هـ ، بلغ يزيد بن معاوية أن أهل المدينة خرجوا عليه وخلعوه عن الخلافة بسبب ما جرى بينه وبين الحسين وآل البيت فى كربلاء ، فأرسل

إليهم جيشاً لقتالهم وإخضاع تمردهم ، والتوجه إلى مكه لمقاتلة عبدالله بن الزبير الذى أعلن ثورته هناك على يزيد . فوصل جيش يزيد المدينة ووقعت معركة هنالك بين قواته وقوات الثائرين فى موضع غربى المدينة يُعرف بالحرَّه . وقد أحرز قائد يـزيد ، مُسلم بنْ عقبة المرىُ النصر على الثوار وأخمد تمردهم . وسار المُرى ، بعد ذلك ، إلى مكة لمحاربة ابن الزبير ، إلا أن المُرى مات فى الطريق فخلفه فى قيادة الجيش القائد الحصين بن نمير السكونى ، الذى وصل مكة وحاصرها سنة ٦٤ هـ ، وكان إبن الزبير قد لاذ بالحرم ، وأثناء الحصار جاءت الأخبار بوفاة يزيد فى منتصف ربيع الأول ، فدعا ابن الزبير لنفسه خليفة . أما أهل الشام فلـم يعترفوا به ، وبايعوا بعد يزيد بالخلافة إبنه معاوية ، وهو معاوية الثانى .

٣ - معاوية . الثانى بن يزيد (٦٤ هـ) :

هو معاوية بن يزيد بن معاوية ، أبو عبد الرحمن ، أُستخلف بعهد من أبيه فى ربيع الأول سنة أربع وستين ، وكان شاباً صالحاً ، ولمَّا تولى الخلافة كان مريضاً ، واستمر فى مرضه حتى وفاته ، ولم يخرج من سرير مرضه ولاقام بشىء من الأمور ، ولم يُصل بالناس . وكانت مدة خلافته أربعين يوماً ، وقيل شهرين ، وقيل ثلاثة أشهر . ومات وله إحدى وعشرون سنة . ولما احتضر قيل له : « ألا تستخلف ؟ » فقال لمن سألوه : « إنى ضعفت على أمركم فالتمست لكم مثل عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، فلم أجد ، فالتمست ستة مثل أهل الشورى فلم أجد ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم ، فما كنت لأتزودها ميتاً وما استمتعت بها حياً ، وما أصبت من حلاوتها فلم أتحمل مرارتها ؟ » ، ثم دخل داره وتغيب أياماً ومات ، وقيل مات مسموماً .

٤ - مروان بن الحكم (٦٤ - ٦٥ هـ):

هــو مروان بن الحكم بن أبــى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . ولمّا مات معاوية بن يزيد وقع الخلاف بين الناس فيمن يلى أمر خلافة المسلمين ، فأراد أهل الشام أن تستمر الخلافة فى بنى أمية لكن اختلفوا فيما يولونه منهم ، وأرادوا غير أهل الشام عبدالله بن الزبير ، الذى كان قد أعلن نفسه خليفة آنذاك فى الحجاز . ومال بعض المؤيدين لبقاء الخلافة فى بنى أمية إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، وكان عالمًا فصيحًا بليغًا فتيًا نبغ فى علم الكيمياء . ومال البعض الآخر إلى مروان بن الحكم لسنه وشيخوخته وخبرته . واتفقوا ، آخر الأمر ، على الاجتماع فى مدنية الجابية ، قرب دمشق سنة ٦٤ هـ ، للاجماع على الاتفاق علــى رجل من بنى أمية ، فاتفقت كلمتهم على مروان بن الحكم ، وبذلك انتقلت الخلافة من الفرع السفيانى إلى الفرع المروانى . ورفضــت قبيلة قيس التى كانت موالية للفرع السفيانى ، الموافقة على البيعة لمروان ، ونادى زعيمها الضحاك بن قيس بمبايعة عبدالله بن الزبير ، بالخلافة نكاية فى المروانيين . وقام عبدالله بن زياد بجهد كبير نحو جمع والتفاف الناس بالشام وبنى أمية حول مروان ، وساعده فى السيطرة على الشام ليتخذها منطلقًا لباقى أراضى الدولة الإسلامية . فقاد عبيدالله بن زياد ميسرته وخيله فى معركة مرج راهط ، بفلسطين ، هذه المعركة التى استعاد بها مروان سيطرته على فلسطين ، ومهدت له السيطرة على كل الشام . وفى نفس الوقت ، تمكن القائد الثقفى عبد الرحمن بن أم الحكم من الاستيلاء على دمشق وضمها إلى خلافة مروان ، وأخذ بيعة الناس له . واستطاعت هذه الانتصارات أن تعيد الروح إلى الخلافة الأموية ، ومكنت مروان بن الحكم من التصدى لأنصار ابن الزبير بالشام والقضاء عليهم . وبعد ذلك ، أخذ مروان يعمل على إعادة سلطان

الخلافة الأموية على الأمصار التى خرجت عن طاعتها ويحصل على مبايعة أهلها سنة ٦٥ هـ . وقام جيش مروان باسترداد مصر ، ثم الجزيرة والعراق من التبعية لابن الزبير . ولم يبق إلا الحجاز فى يد دولة ابن الزبير . وفى ذلك الوقت تُوفى مروان ، وقد كان شيخاً طاعناً فى السن ، وقد عهد بالخلافة من بعده لإبنيه عبد الملك بن مروان ثم عبد العزيز بن مروان ، وكانت خلافة مروان تسعة أشهر ونصف الشهر .

٥ - عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) :

وُلد عبد الملك بن مروان بن الحكم بالمدينة سنة ٢٦ للهجرة ، فى خلافة عثمان بن عفان ، وهو أول من سُمى فى الإسلام عبد الملك ، وقد نشأ نشأة طيبة وعُرف بالشجاعة والنجدة والفصاحة والبلاغة والصراحة فى الحق ، وكان عالماً بالقرآن حافظاً له ، دارساً لعلوم الدين على مشيخة أهل الحجاز بالمدينة كما كان أديباً عالماً بنقد الشعر وتمييز جيده من رديئه . تولى الخلافة بعد وفاة والده بعهد منه ، وكانت الدولة فى حالة من الفوضى وفى حاجة إلى حاكم قوى يستطيع إنقاذ دولة الخلافة وتوحيد مسيرتها . فلقد كانت البلاد تمزقها آنذاك العصبيـــة القبلية المقيتـة ، المتمثـلة فـى الصراع بين العـــرب اليمانية (القحطانية) والعرب القيسية (المُضرية) ، تلك العصبية التى كانت قائمة بين العرب قبل الإسلام وجاء الإسلام ليقض عليها . وكانت الأمصار الإسلامية تسودها القلاقل ويسعى ولاتها للاستقلال بها عن الدولة أو إعلان الولاء للخارجين عليها . وكان الحجاز ، بالذات ، خارجاً عن طاعة الأمويين أعلن ابن الزبير خلافته به وسعى إلى ضم مصر إليه ، كما أدخل العراق فى طاعته وولىّ على حكمه أخاه مصعب بن الزبير نيابةً عنه .

وكان عبد الملك بن مروان رجل الساعة ، الذى استطاع بفضل شجاعته وحسن تدبيره وقيادته وبفضل مساعدة قواده الأكفاء ، أن يوحد الدولة وأن يقض على اعدائها وأن يقود سفينة البلاد إلى بر الأمان ، وأن يترك الدولة ممهدةً لأبنائه من بعده بعد حكم طويل لها استمر قرابة العشرين عاماً .

لقد أبدى عبد الملك بن مروان مهارة كبرى لمواجهة الموقف الصعب عند توليه الخلافة ، فرسم لنفسه خطةً للعمل بدأها بالقضاء على أنصار ابن الزبير فى مصر ، مستعيناً فى ذلك بكفاءة أخيه عبد العزيز بن مروان الذى وكل إليه أمر إمارتها . ولقد نجح عبد العزيز ، بحسن سياسته وقويم إدارته ، من إصلاح الأمور فيها وجعلها دعامة لعبد الملك فى صراعه ضد اعدائه فى الأمصار الأخرى .

ولمّا خلصت مصر لعبد الملك ، توجه ، بعد ذلك ، نحو العراق ليقضِ على تمرد مصعب بن الزبير هناك ، واستطاع عبد الملك أن يستميل كثيراً من أتباع مصعب إليه بعد أن مناهم بالوعود ، حتى أنه لم يبق مع مصعب إلا القليل من الأتباع . ولمّا تأكد عبد الملك من ضعف موقف مصعب فى العراق ، سار على رأس جيشه لمقاتلته ، وكان ذلك سنة ٧١ هـ . والتقى الجيشان عند دير الجثاليق قرب نهر دُجيل ، وانتهى القتال بينهما بهزيمة جيش ابن الزبير وقتل مصعب ودخول عبد الملك الكوفة ومبايعة أهل العراق له .

وبعد معركة دير الجثاليق التى انتهت بسيطرة الأمويين على بلاد العراق لم يبق أمامهم سوى الحجاز واليمامة . ولقد اختار عبد الملك للقضاء على ثورة عبدالله بن الزبير بالحجاز قائداً من أعظم قواده ، بل يُعد من أعظم قواد الدولة الأموية عموماً ومن أعظم رجالات قبيلة ثقيف الموالية للأمويين ، وهو الحجاج بن يوسف الثقفى الذى كان القائد المطلوب ، وصاحب الفضل الأكبر فى بقاء

الدولة الأموية وإنقاذها من التفتت والضياع على يد خصومها . ولقد تصدى الحجاج لحرب ابن الزبير ، وذلك حين أرسله سنة ٧٢ هـ ، على رأس جيش من ألفيْ جندى لقتال ابن الزبير فى مكة ، وذلك لكى تكتمل للخليفة الأموى وحدة الدولة .

ولقد أعطى عبد الملك للحجاج أماناً إلى إبن الزبير إذا هو ترك الخروج وامتثل للطاعة ، كما أمره ألا يبدأ بالهجوم على مكة إلا بعد أن يعطيه الإذن بذلك . فسار الحجاج إلى الحجاز بالجيش فى جمادى الأولى ، ولم يتعرض لمدينة الرسول ونزل الطائف ، بلدته ومقر قبيلة ثقيف ، واتخذها معسكراً له يدير منه أمر الهجوم على ابن الزبير الذى اتخذ مكة عاصمة ومركزاً له ولقواته . واستطاع الحجاج ، وهو فى الطائف ، وبمساعدة قومه أن يضعف من قوة ابن الزبير وأن يحصره فى مكة وأن يمنع عن مكة المدد الذى كان يأتيها من خيرات الطائف . وراسل الحجاج أهل مكة واستطاع أن يستميل إلى صفه الكثير من اتباع الزبير ، الذين انفضوا من حوله وانضموا إلى معسكر الحجاج ، وكان ممن خرج إلى الحجاج بالأمان ولدا عبدالله بن الزبير : حمزة وخبيب . وقد أضعف ذلك موقف ابن الزبير كثيراً وعجل بهزيمته .

وحينما أدرك الحجاج أن الانتصار أصبح مهيئا ، وأحس بضعف قوة ابن الزبير وتفرق أتباعه ، أرسل إلى الخليفة يستأذنه فى إقتحام مكة . فأذن الخليفة له بعد أن أرسل له مدداً من خمسة آلاف رجل بقيادة طارق بن عمرو . فقدم ذلك الجيش إلى الحجاج فى ذى الحجة سنة ٧٢ هـ وانضم إلى قيادة الحجاج فى محاصرة ابن الزبير فى مكة ثم اقتحامها . وقد تم اقتحام مكة دون قتال شديد للفارق الكبير بين وضع القوتين العسكريين . وانتهى القتال السريع بقتل عبدالله

إبن الزبير وأعوانه ، واحتزاز رأسه وإرسالها إلى عبد الملك ، ومبايعة أهل مكة للخلافة الأموية .

ولقد ضرب عبد الله بن الزبير ومن ثبت معه ، مثلاً رائعاً فى الشجاعة والصبر ، شهد له بها مناصروه وأعداؤه ، وكيف لايتصف هذا البطل بالشجاعة وهو ابن الزبير بن العوام أحد قواد الرسول وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأمه ذات النطاقين ، أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهم أجمعين . ولقد أوردت مصادر التاريخ الحوار الذى دار بين عبدالله وأمه أسماء قبل مقتله ، وظهر فيه شجاعة الابن وشجاعة الأم ، وعدم الخوف من الموت والاقبال على الشهادة فى سبيل الدفاع عن الحق .

قال ابن الزبير لأمه : « يا أماه قد خذلنى الناس حتى ولدىْ وأهلى ولم يبق معى إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟ » فقال : « أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له فقد قُتل عليه أصحابك ولا تُمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قُتل معك . وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين .. كم خلودك فى الدنيا ؟ .. القتل أحسن » . فقال : « يا أماه أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبوننى » قالت : « يا بنى إن الشاة لايضيرها سلخها بعد ذبحها فهى لا تتألم بالسلخ بعد الذبح فامض على بصيرتك واستعن بالله » . فقبل رأسها وقال : « هذا رأيى والذى خرجت به دائباً إلى يومى هذا ، ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة ، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله وأن تستحل حرماته ولكنى أحببت أن أعلم رأيك فقد زدتنى بصيرة ، فانظرى يا أماه فإنى مقتول فى يومى هذا فلا يشتد

حزنك وسلمى الأمر إلى الله فإن إبنك لم يتعهد إيثار منكر ولا عملاً بفاحشة ولم يجر في حكم الله ولم يغدر في أمان ولم يتعمد ظلم مسلم أو معاهد ولم يبلغني ظلم عن عمالى فرضيت به بل أنكرته ، ولم يكن شيء آثر عند من رضا ربى ... اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسى ولكنى أقوله تعزية لأمى حتى لاتسلو عنى » . فقالت أمه : « لأرجو أن يكون عزائى فيك جميلاً إن تقدمتنى احتسبتك وإن ظفرت سررت بظفرك ، أخرج حتى انظر إلى ما يصير أمرك » ، فقال : « جزاك الله خيراً فلا تدعى الدعاء لى » ، فقال : « لا أدعه لك أبدا » ، ثم قالت : « اللهم أرحم طول ذاك القيام فى الليل الطويل وذلك النحيب والظمأ فى هواجر مكة والمدينة وبره بأبيه وبى ، اللهم قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت فأثبنى فيه ثواب الصابرين الشاكرين » ... فخرج من عندها ، وهو أشد عزيمة وإصراراً على الاستشهاد ، فحمل على أهل الشام حملة منكرة وظل يقاتل مستأسداً حتى قُتل ، يوم الثلاثاء ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ ، بعد حصار الحجاج له ثمانية أشهر وسبع عشرة ليلة . ولقد شهد الحجاج وطارق بن عمرو ، قواد جيش عبد الملك ، بشجاعة ابن الزبير فى قتاله ، فعندما وقفا على رأس ابن الزبير ، بعد مقتله ، قال طارق : « ما ولدت النساء أذكر من هذا » ولكن الحجاج ، وإن وافق طارق على رأيه ، إستدرك قائلا له : « أتمدح من يخالف طاعة أمير المؤمنين ؟ » .. فقال طارق : « نعم ، هو أعذر لنا ولولا هذا ما كان لنا عذر . إنا محاصروه فى غير خندق ولاحصن ولا منعة منذ سبعة أشهر ينتصف منا بل يفضل علينا كلما إلتقينا نحن وهو » . وبلغ هذا الحديث عبد الملك فصوّب طارقاً ، ولكنه كافأ الحجاج لنصره على هذا الثائر الشجاع ، فولاه سنة ٧٣ هـ . مكة واليمن واليمامة ، ثم أضاف إليه فى السنة التالية ولاية المدينة بعد أن عزل عنها طارق بن عمرو . وبالقضاء على ثورة

إبن الزبير استقر الحكم لعبد الملك بـن مروان فـي كل أرجاء الدولـة بعد تسـع سنوات من الحرب الطاحنة المدمرة ، وفي سنة ٧٥ هـ ، ولىّ عبد الملك قائـده الحجاج العراق وكل البلاد التي تليها شرقاً مـن بلاد فارس وبلاد مـا وراء النهر . وقـد قـام الحجاج بضبط هـذه البلاد بشدته المعهودة وقيادتـه الحازمة .

وفـي هذه السنة دخل الحجاج الكوفة ، فبدأ بالمسجد فدخله ، ثم صعد المنبر ، وهو متلثم بعمامة من حرير حمراء ، فقال : « عليّ بالناس » فحسبوه وأصحابه جماعة الخوارج فسارعوا إليه ، حتى إذا إجتمعوا إليه قام فكشف عن وجهه وقال :

أنا ابن جـلا وطلاعُ الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

أما والله إني لأحمل الشر محمله وأحذوه بنعله ، وأجزيه بمثله ، وإني لأرى رؤوساً قـد أينعت وحان قطافها ، وإني لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى . وإني والله يا أهل العراق ما أغمز كتغماز التين ولا يقعقع لي بالشنان ، ولقد فُررت عن ذكاء وجريت إلى الغاية القصوى . إن أمير المؤمنين عبد الملك نشر كنانته ثم عجم عيدانها فوجدني أمرّها عوداً وأصلبها مكسراً فوجهني إليكم فإنكم طالما أوضعتم في الفتن وسننتم سنن الغي أما والله لألحونكم لحو العود ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل . إني والله لا أعد إلا وفيت ، ولا أخلُق إلا فرْيت ، فإياي وهذه الجماعات وقيلا وقالا ، ومايقول وفيم أنتم وذاك ؟ والله لتستقيمن على سُبل الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شُغلا في جسده . من وجدتُ بعد ثالثة من بعثِ المهلب سفكت دمه وأنهبت ماله » ، ثم دخل منزله ولم يزد على ذلك .

فلما كان اليوم الثالث سمع تكبيراً فى السوق ، فخرج حتى جلس على المنبر ، فقال : « يا أهل العراق ، وأهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق ، إنى سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذى يراد الله به فى الترغيب ، ولكنه التكبيرُ الذى يُراد به الترهيب ، وقد عَرفتُ أنها عجاجةٌ تحتها قصف . يا بنى اللكيعة وعبيد العصا وأبناء الأيامى ، ألا يربع رجلٌ منكم على ظلعه ويُحسن حقن دمه ويبصر موضع قدمه ! فأقســم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالاً لما قبلها وأدباً لما بعدها » .

وتصدى الحجاج للثورات التى قام بها جماعة الخوارج الأزارقة فى العراق بقوة وحزم وقضى عليها مستعيناً فى ذلك بقائده الكبير الشجاع « المهلب بن أبى صُفرة » وأبنائه ، وبخاصة فى القضاء على أخطر هذه الثورات التى قاموا بها فى العراق وقادها عبد الرحمن بن الأشعث ، وقد وقعت بين الحجاج والخوارج أكثر من ثمانين معركة ، كانت أكبرها معركة « دير الجماجم » ، التى انتصر فيها الحجاج على ابن الأشعث ، وهرب بعدها إلى بلاد الهند ، فاحتال الحجاج فى القبض عليه وقتله والتخلص من شره واحتزاز رأسه وإرسالها إلى الخليفة عبد الملك .

ولقد أسنــد الحجاج ولاية خراسان من بلاد فارس إلى المهلب بن أبى صفرة ، نيابةً عنه ، فقام بكثير من الفتوح فى هذه البلاد . كذلك قام إبنه يزيد إبن المهلب بفتوحات كثيرة فى الشرق ، ثم تولاها ، بعد ذلك ، القائد العربى العظيم قتيبة بن مسلم الباهلى ، أعظم الفاتحين فى التاريخ الإسلامى ، والذى ستزداد الفتوح على يديه فى عهد خلافة الوليد بن عبد الملك . أما أرمينيا التى كان العــرب قد اجتاحوها سنة ٢٤ – ٢٥ هـ ، فى عهد ولاية معاوية على سوريا ، فكانت قد انتفضت أثناء ثورة ابن الزبير ، فعمــد عبد الملك إلى

إخضاعهـا ثانية . وفـــى سنة ٨٣ هـ بنـــى الحجاج مدينة واسط . وفى عام ٨٥ هـ ، أراد عبد الملك بن مروان أن يخلع أخاه عبد العزيز بن مروان عن ولاية العهد وجعلها لإبنه الوليد ، إلا أن عبد العزيز توفى بمصر فى جمادى الأولى من نفس العام . وفى هذه السنة بايع عبد الملك بالخلافة من بعده لإبنه الوليد ثم من بعده لسليمان وجعلهما وليى عهد المسلمين وكتب ببيعته لهما إلى البلدان فبايع الناس .

وتوفى عبد الملك بن مروان فى شهر شوال سنة ٨٦ هـ ، وله من العمر ستون عاماً بعد أن حكم عشرين سنة وعدة شهور ، تُعتبر من أهم فترات تاريخ الدولة العربية الإسلامية ، لأنها سنوات ثبتت الدولة فيها أقدامها وقضت على الأخطار القاتلة التى تعرضت لها ، ومهدت الطريق للعصر الذهبى للدولة الأموية وعصر الامبراطورية الإسلامية الكبرى أيام حكم أبناء عبد الملك : الوليد ومن بعده سليمان . هذا ولقد توفى عبد الملك بعد أن أنجب سبعة عشر ولداً .

هذا ويُنسب لعبد الملك بن مروان تعريب الدواوين ، فصار يُكتب فيها بالعربية بعد أن كان كل مصر من الأمصار يكتب باللغة التى كان يكتب بها قبل الإسلام ، وقد أدى ذلك إلى سرعة تعريب الأمصار الإسلامية وانتشار العروبة فيها .

كذلك يُنسب لعبد الملك تعريب العملة الإسلامية ، ففى سنة ٧٥ هـ ، أمر بسك أول دينار عربى كتب على وجه من وجوهه (قل هو الله أحد) ، وكتب على الوجه الآخر عبارة (لا إله إلا الله) وطوّقه بطـوق فضة ، وكتب فيه : « ضُرب بمدينة كذا » ، وكتب خارج الطوق عبارة : (محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق) .

ويرجع السبب فى سك عبد الملك للعملة الإسلامية ، أن المسلمين كانوا يتعاملون بعملة الروم ، وهى الدنانير الذهبية وعملة الفرس ، وهى الدراهم الفضية ، ولم تكن لهم عملة خاصة بهم . وحدث أن عبد الملك استحدث أن يُكتب فى صدور صحفه المرسلة عبارة « قل هو الله أحد » مع ذكر النبى ﷺ مع التاريخ . ووصلت صحف من هذه الصحف إلى ملك الروم فغضب لذلك وأرسل إلى عبد الملك يقول له معاتباً : « إنكم قد أحدثتم فى طواميركم شيئا من ذكر نبيكم فاتركوه ، وإلا كتبنا فى دنانيرنا من ذكره ما تكرهون » فعظم ذلك فى صدر عبد الملك ، فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية يسأله فى هذا الأمر ، فقال له : « يا أبا هشام حرِّم دنانيرهم واضرب للناس سككاً فيها ذكر الله تعالى وذكر رسول الله ﷺ ولا تعفهم مما يكرهون » فضرب الدنانير سنة خمس وسبعين . وضرب الحجاج الدراهم ونقش فيها « الله أحد الله الصمد » .

كذلك كسى عبد الملك الكعبة بالحرير الديباج ، وكان بذلك أول من يكسوها بالحرير وكانت الكعبة فى الجاهلية تكسى بالأنطاع (الجلود) ، كساها بذلك أسعد الحميرى وهو تبع . ثم كساها النبى الثياب اليمانية ، ثم كساها عمر وعثمان القباطى (ثياب بيض كانت تصنع فى مصر) ، ثم كساها عبد الملك الحرير الديباج .

وكان عبد الملك بن مروان قد أخذ البيعة للحكم بعده ، قبل وفاته ، سنة ٨٥ هـ لإبنيه الوليد ثم سليمان ، وجعلهما وليىْ عهد المسلمين وكتب ببيعته لهما إلى البلدان فبايع الناس ، وكان عبد العزيز بن مروان ، أخو الخليفة ، قد تُوفى فى مصر فى شهر جمادى سنة ٨٤ هـ .

٦ - الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) :

ولى الوليد بن عبد الملك الخلافــة بعهد من أبيه فى شوال سنة ست وثمانين ، وبويع له بالخلافة بالمسجد الجامع بدمشق ، بعد دفن أبيه خارج باب الجابية ، وقد ظل فى الخلافة عشر سنين . وكان الوليد أفضل خلفاء بنى أمية سيرة عند أهل الشام . وسّع فى بناء الجوامع : جامع دمشق وجامع المدينة والمسجد الأقصى ، وأعطى المجذومين ومنعهم من سؤال الناس . وأعطى كل مُقعد معوق خادماً ، وكل ضرير أعمى قائداً .

« وكان شديد الحب بالعمارات والأبنية واتخاذ المصانع والضياع ، وكان الناس يلتقون فى زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن الأبنية والعمارات » ، وكان لايحسن النحو ولايعرف قواعد اللغة ، وقد بذل جهده لتعلمه دون جدوى .

وكان عهد الوليد عهد يسر ورخاء وعهد فتوحات كبيرة ، فاتسعت فى عهده رقعة الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً وبلغت أماكن لم يصلها المسلمون من قبل . وكان عبد الملك قد أحسن إعداد الوليد لولاية أمر المسلمين ودربه معه على الحكم . ولمّا كان الحجاج بن يوسف الثقفى قد أقر الأمن والنظام فى شرق الدولة الإسلامية ، فقد اتسع المجال لمواصلة الفتوحات الإسلامية فى المشرق والمغـــرب . ولقد فتحت أيام الوليد بلاد ما وراء النهر ، وبلاد السند وشمال الهند ، وبلاد المغرب والأندلس .

وكان الحجاج قد ولى قتيبة بن مسلم خراسان سنة ٨٦ هـ ، وأمره أن يقوم بفتح ما وراءها من بلاد ، فخرج قتيبة وفتح البلاد ما وراء نهر سيحون ، ففتح مدن : بخارى وسمرقند وخوارزم وفرغانة (شرقى أفغانستان الحالية) والشاش ، ووصل بقواته إلى حدود الصين . وقد دخل الإسلام ، على يد قتيبة ، أعداد

كبيرة من الترك ، سكان بلاد ما وراء النهر . وكانت لدى الترك هناك أصنام يعبدونها ويقدسونها ويعتقدون أن من يتعرض لها يموت فى ساعته ، فقام قتيبة بجمعها فى مكان واحد وأحرقها بيده مبيناً له هوان أمرها وقلة حيلتها ، فدخل الإسلام ، فى تلك الساعة ، مائتى ألف رجل من رجال الترك .

وفى سنة ٩٦ هـ تقدم قتيبة بن مسلم بقواته مخترقاً أرض الصين عابراً حدودها وسار بقواته حتى وصل مدينة كاشغر ، أول مدنهم من ناحية الغرب ، وقام بمحاصرتها ، واضطر ملك الصين إلى دفع الجزية للمسلمين مقابل رفع الحصار عن كاشغر . ولم يوقف قتيبة عن فتح كل الصين إلا وفاة الخليفة الوليد فى هذا العام ، ومجئ الأمر له من خليفته فى الحكم الخليفة سليمان بن عبد الملك بوقف زحفه عليها ، بل وقف حروبه جميعاً فى تلك البلاد ، والأمر بالعودة إلى دمشق بعد وقفه نهائيا عن قيادة الجيش وعزله عن الولاية بسبب السياسة الجديدة التى وضعها الخليفة الجديد .

وفى سنة ٨٩ هـ ، ولى الحجاج بن يوسف الثقفى إبن أخته محمد بن القاسم الثقفى ، وكان شاباً فى الرابعة عشرة من العمر ، بلاد السند بشمال الهند استطاع ابن القاسم سنة ٩٢ هـ ، أن يخضع مكران ويواصل الزحف على مايعرف اليوم ببلوخستان ، واستطاع أن يجتاح ما بين سنة ٩٣ و ٩٤ هـ السند ويحتل مرفأ الدبيل حيث كان يوجد هنالك صنم لبوذا ارتفاعه أربعون ذراعاً ، وسار بعد ذلك إلى النيرون (حيدر أباد الحالية) واحتلها كذلك . وفى السنة التالية امتدت الفتوحات شمالا حتى الملتان فى جنوبى البنجاب وعند سفح جبال همالايا . وكانت الملتان مركزاً لمعبد بوذى قومى وقع بيد الفاتحين المسلمين ، وكان يُعرف ببيت الذهب لكثرة ما به من ذهب ، وقد ظفر المسلمون من هذا

المعبد نفائس كثيرة ، وكانت كلها من الذهب ، وغدت مدينة الملتان لسنين طويلة قاعدة الهند العربية وحصن الإسلام الأمامى فى تلك الأنحاء . وقد نجح ابن القاسم فى حكم هذه البلاد وفى نشر الإسلام فيها والتوسع بالفتح فى بلاد كثيرة فى تلك المنطقة ونشر الإسلام فى بلاد السند وأرض البنجاب .

وفى عهد الوليد تم فتح باقى بلاد المغرب حتى المحيط الأطلسى على يد القائد العربى الكبير موسى بن نصير . وقد كان القائد العربى الشهير عقبة بن نافع الفهرى قد فتح بلاد المغرب فى الفترة ما بين سنوات ٦١ و٦٣ هـ . وفى السنوات ما بين ٨٥ و ٩٥ هـ أتم موسى بن نصير فتح المغرب الأقصى . ومن طنجة تطلع القائد البربرى الشهير طارق بن زياد ، مولى موسى بن نصير لفتح الأندلس . وفى شعبان سنة ٩٢ هـ عبر طارق مضيق (هرقل) الذى يفصل بين قارتى افريقية وأوربا ، الذى عُرف فيما بعد باسمه (مضيق جبل طارق) والتقى على أرض أسبانيا مع قوات ملك القوط (لزريق) فى معركة حاسمة ، هى معركة وادى لكة ، جنوبى الأندلس ، انتصر فيها المسلمون انتصاراً كبيراً فتح لهم باقى بلاد الأندلس . وفى سنة ٩٣ هـ فتح طارق أشبيلية وغرب الأندلس ووصل إلى طليطلة والتقى بقوات موسى بن نصير هناك واشترك القائدان الكبيران فى فتح شمال الأندلس . ولم تنته سنة ٩٥ هـ حتى كان موسى وطارق قد أتما فتح شبه الجزيرة الأيبيرية كلها ما عدا مناطق الجبال الشمالية التى زهد المسلمون فى فتحها .

وكانت قوات المسلمين قد قامت بغزو بلاد الروم فى عهد الوليد بقيادة أخيه « مسلمة بن عبد الملك » الذى قام بعدة حملات سنوياً على التوالى فى الفترة مـا بين أعوام ٨٦ هـ و ٩٠ هـ ، فتحت القوات الاسلاميـة خلالها بعـض حصون الـروم واستولت عليهـا وبخاصـة حصن طوانة ، أعظم حصون

قبادوقيا ، وحصن غزالة « وحصن الأخرم » ، ومدن عمورية وهرقلة وسمسطية وأنطاكية .

وفى شهر رمضان سنة ٩٥ هـ ، توفى الحجاج بن يوسف الثقفى ، قائد الوليد العظيم ، وهو ابن أربع وخمسين سنة ، وكانت إمرته على العراق عشرين سنة . وقد توفى الوليد بعد وفاة الحجاج بتسعة أشهر ، فكانت وفاة الوليد فى منتصف جمادى الآخرة سنة ست وتسعين بعد أن حكم عشر سنين ، توفى فى دمشق وهو ابن ست وأربعين سنة ، ودفن بدمشق خارج باب الصغير .

٧ - سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩ هـ) :

أراد الوليد بن عبد الملك أن يجعل إبنه عبد العزيز ولى عهده ، ودس فى ذلك إلى القواد والشعراء ، فبايعه على خلع أخيه سليمان بن عبد الملك الحجاج إبن يوسف وقتيبة بن مسلم . لكن الوليد مات فجأة ، وبايع الناس لسليمان قبل أن يُمكن الوليد لإبنه . وقد تولى سليمان الخلافة ، بعهد من أبيه ، بعد أخيه فى جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وهو ابن ست وثلاثون عاماً . كان فصيحاً مفوهاً ، على خلاف أخيه الوليد ، مؤثراً للعدل ، محباً للغزو ، مغرماً بالطعام ، وكان من الأكلة المذكورين ، قيل أنه من نهمه كان الطباخ يأتيه بالشواء فلا يصبر حتى يبرد فيأخذه بكمه . قال الأصمعى : « كنت مرة أفاوض هارون الرشيد ، فجرى حديث أصحاب النهم ، فقلت : كان سليمان بن عبد الملك شديد النهم ، وكان إذا أتاه الطباخ بشواء تلقاه فأخذه بأكمامه . فقال الرشيد : ما أعلمك يا أصمعى بأخبار الناس ! لقد اعترضتُ منذ أيام جباب سليمان فوجدت أثر الدهن فى أكمامها فظننته طيباً . قال الأصمعى : ثم أمر لى بجبة منها . » وقيل عن نهم سليمان أنه أكل فى مجلس واحد خروفاً بأكمله وست

دجاجات ، وأمر بالتحلية فأكل سبعين رمانة وأنهى على إناء كبير مملوء بزبيب الطائف .

وكانت أيام سليمان استمراراً لأيام أخيه الوليد من حيث الجهاد واستمرار الفتوح ، لكن سليمان لم يحسن تقدير الكثيرين من قواد الدولة من أسرة الحجاج بن يوسف لموقفهم من توليه الخلافة ، وتخلص منهم ولم يشفع لهم عنده تاريخهم الطويل فى الجهاد والفتح والمكاسب الهائلة التى حققوها وذاك الامتداد الهائل للدولة الأموية فى المشرق والمغرب . والقواد الذين وقع عليهم غضب سليمان هم : قتيبة بن مسلم ، ومحمد بن القاسم الثقفى ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد .

وكان سليمان يبغض الحجاج بن يوسف الثقفى وأهله وولاته وقواده ، حتى أن الحجاج كان يخشى أن يموت الوليد قبله فيقع فى يد سليمان ، وذلك لما كان من استجابة الحجاج وقتيبة للوليد فيما اعتزمه من عزل أخيه سليمان من ولاية العهد ومبايعة إبنه عبد العزيز بن الوليد مكانه . لكن الموت عاجل الحجاج قبل الوليد ، ولمّا تولى سليمان الخلافة قام بخلع قتيبة بن مسلم عن ولاية خراسان ، فقام قتيبة بدوره بخلع الخليفة وطلب من رجال جيشه من القبائل أن يوافقوه على ذلك ، ولكنهم رفضوا خلع سليمان ، فقام بشتمهم فأجمعوا على خلافه وخلعه . وكان بخراسان يومئذٍ من مقاتلة العرب ما يزيد على الستين ألف مقاتل ثاروا ضد قتيبة وقتلوه وقتلوا معه أحد عشر رجلاً من بنى مسلم وذلك سنة ست وتسعين . ولقد أحل سليمان على ولاية خراسان يزيد بن المهلب مكان قتيبة بن مسلم سنة ٩٧ هـ .

وأمر سليمان بالقبض على محمد بن القاسم ، ابن أخت الحجاج ، وأمر

بتقييده وحمله إلى العراق ، وما أن وصل العراق حتى حبس فى مدينة واسط وعُذب ، ثم قُتل فى السجن . وبذلك انتهت حياة هذا القائد العظيم ، فاتح بلاد السند وشمال الهند ، هذه النهاية المأساوية المؤلمة .

أما موسى بن نصير ، فاتح المغرب والأندلس ، فقد حقد عليه سليمان لأنه سارع بتسليم غنائم الأندلس الثمينة للوليد ، وهو على فراش الموت ، ولم يصغ لطلب سليمان منه أن ينتظر حتى موت أخيه وتسلمها هو عند تسلمه الخلافة . ولقد ذكر أن سليمان ، بعد أن تولى الخلافة ، قام بمعاقبة موسى بن نصير وحبسه ، ولا تذكر المصادر التاريخية بعد ذلك ، شيئاً عن نهايته ونهاية مولاه القائد البربرى العظيم طارق بن زياد .

وفى عهد سليمان تم فتح بلاد جرجان وطبرستان (جنوبى بحر قزوين) ، وقد شرع سليمان فى فتح القسطنطينية فوجّه أخاه مسلمة بن عبد الملك لفتحها على رأس جيش كبير ، وما أن اقترب جيش مسلمة من عاصمة الروم إلا وجاءه خبر وفاة سليمان ، بدابق من أرض قنسرين وذلك يوم الجمعة العشرين من صفر سنة ٩٩ هـ ، فكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر . ومن الحسنات التى تذكر لسليمان بن عبد الملك أنه أوصى بأن يخلفه فى الحكم ابن عمه عمر بن عبد العزيز بن مروان دون أحد من أولاده ، ومن بعده أخوه يزيد بن عبد الملك .

٨- عمر بن عبد العزيز بن مروان (٩٩ - ١٠١ هـ)

لمّا مرض سليمان بن عبد الملك مرض الموت ، عزم على أن يُبايع بعده بالخلافة لأحد من أولاده ، فاستشار رجاء بن حيْوَه وكان من كبار المقربين إليه وأكثر الواثقين فيهم وفى نصحهم ، فنهاه عن ذلك ، وقال له : « يا أمير المؤمنين إنه مما يحفظ الخليفة فى قبره ، أن يستحفظ على الناس رجلاً صالحاً . فقال

سليمان : أستخير الله وأفعل . ثم إستشاره فى عمر بن عبد العزيز ، فأشار عليه به وأثنى عليه خيراً . فكتب سليمان عهده إلى عمر بن عبد العزيز وختمه ودعا أهل بيته ، وقال : « بايعوا لمن قد عهدتُ إليه فى هذا الكتاب » ، ولم يعلمهم بما فيه ، فبايعوا . ثم لما مات جمعهم ابن حيوة ، وقد كتم موت سليمان عنهم ، وقال لهم : بايعوا مرة أخرى ، فبايعوا . فلما رأى أنه أحكم الأمر أعلمهم بموت سليمان ، وقام بفتح كتاب سليمان ، فإذا فيه العهد لعمر بن عبد العزيز . فتغيرت وجوه بنى عبد الملك ، فلما سمعوا « وبعده يزيد بن عبد الملك » تراجعوا ، فأتوا عمر ، فسلموا عليه بالخلافة .

ولقد وُلد عمر بن عبد العزيز بمنطقة حلوان بمصر أيام إمارة والده عليها ، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن الخطاب ، فجده لأمه عمر بن الخطاب . نشأ نشأة صالحة ودرس علوم الدين والأدب والشعر ، ونبغ فى العلم حتى قيل أن العلماء كانت تلامذة مع عمر بن عبد العزيز . ولما آلت الخلافة إليه تشبه بجده عمر بن الخطاب فى خلقه وسلوكه ، حتى عُرب فى التاريخ بالخليفة الراشد الخامس لما أُشتهر به من صلاح وتقوى وما اشتهر به حكمه ، رغم صغر مدته ، من عدل واصلاح وحسن سياسة ومراقبة لله فى كل الأعمال . وقد تزوج عمر إبن عبد العزيز من فاطمة إبنة عبد الملك بن مروان ، وحفظ له سليمان بن عبد الملك موقفه معه وتأييده له فى أمر ولاية العهد مع أخيه الوليد وعدم مبالاته لما تعرض له من بطش الوليد ، فاختاره من بعده ، لذلك ، لخلافة المسلمين .

وكان عمر من خيار الخلفاء عالماً عابداً زاهداً تقياً ورعاً ، ترك رفاهية الإمارة حين عرضت له الخلافة وعاش عيشة أفقر فقراء دولته ، وكان يشعر بعظم مسئولية الحكم وبحق الرعية عليه من توفير كل ما يحتاجون إليه لهم قبل أن يوفره لنفسه أو لأهل بيته .

أدخل عمر الكثير من الاصلاحات فى الدولة ، وخفف الضرائب عن الناس ويسر سبل المعيشة لهم وأصلح الاقتصاد ، ورفع الجزية عمن أسلم . وكان بعض حكام بنى أمية لم يسقطوا الجزية عمن أسلم من أهل الذمة كما شرع الاسلام ذلك ، بحجة حاجة الدولة إلى المال ، وبذلك عطلوا حداً من حدود الاسلام ، وما أن تولى عمر الخلافة حتى أسقط الجزية عمن أسلم . وقال فى ذلك قوله المشهود : « لقد بعث الله محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً والله لوددت أن يُسلم جميعهم فأُسقط الجزيـة عنهم حتى لا يدخل بيت المال درهم واحد من جزيتهم » . ولقد قام عمر بعزل الولاة والعمال الذين ظلموا الناس ولم يطبقوا العدالة فى حكمهم وأحل مكانهم أهل الدين والصلاح والتقوى .

ولقد جنح عمر بن عبد العزيز إلى السلم مع معارضيه والخارجين على حكمه ، وتجلى ذلك فى موقفه مع الخوارج ومع الشيعة . كذلك قطع عمر السب من على المنابر عن على بن أبى طالب ، وكان بنو أميـة يسبونه على المنابر ، وجعل مكانه قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكّرون » . وقد أحسن عمر بن عبد العزيز إلى العلويين وأغدق عليهم وقربهم إليه .

وقد تقشف عمر بن عبد العزيز فى حياة خلافته زهداً فى الدنيا وخيرها وتقرباً إلى الله ، وكان قبل الخلافة على قدم الصلاح أيضاً إلا أنه كان يبالغ فى التنعم ، فكان الذين يعيبونه من حساده لا يعيبونه إلا بالإفراط فى التنعم والاختيال فى المشية ، وكان شباب دمشق يقلدون تلك المشيـة التى عُرفت « بالمشية العُمرية » . وحين بويع بالخلافـة قدم إليه صاحب المراكب مركب الخليفة المزينة ، فأبى وقال : « إئتوني ببغلتى » .

قال عمر بن عبد العزيز لإمرأته فاطمة بنت عبد الملك وكان عندها جوهر أمر لها به أبوها لم يُر مثله : « إختارى إما أن تردى حليك إلى بيت المال وإما أن تأذنى لى فى فراقك ، فإنى أكره أن أكون أنا وأنت وهــو فى بيت واحد » ، قالت : « لا بل أختارك عليه وعلى أضعافه » فأمر به فحُمل حتى وُضع فى بيت مال المسلمين . فلما مات عمر واستخلف يزيد قال لفاطمة : « إن شئتِ رددته إليكِ » ، قالت : « لا واللــه لا أطيب به نفساً فى حياته وأرجع فيه بعد موتــه » .

وقد ذكرت المصادر أن نفقة الخليفة عمر بن عبد العزيز كانت كل يوم درهمين تُوفى عمر بن عبد العزيز بدير سمعان من أعمال حمص فى العشرين من رجب سنة ١٠١ هـ بعد حكم لمدة سنتين وعدة شهور ، وهو ابن تسع وثلاثين عاماً وكانت وفاته بالسم ، وقد سمه آل بيته من بنى أمية بعد أن ضاقوا بحكمه وشدته معهم وانتزاعه كثيراً مما غصبوه ، سقاه السم غلام له فى شراب مقابل ألف دينار أعطاها بنو أمية له ، فكانت سبب موته . وفقدت دولة بنى أمية بموته أعظم خلفائها وأحسنهم سيرة وأقومهم حكماً ، ولعل الله لو مد فى عمر هــذا الخليفة لتغير حال الدولة الاسلامية عموماً ودولة بنى أمية خصوصاً ، ولكنها إرادة الله تعالى . ولقد حزن الناس لفقده أيام حكم بنى أمية ، كما سبق للناس أن حزنوا من قبل لفقد جده عمر بن الخطاب أيام حكم دولة الراشدين .

٩- يزيد بن عبد الملك بن مروان (١٠١ - ١٠٥ هـ) :

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان ، وُلد سنة إحدى وسبعين ، وولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز بعهد من أخيه سليمان بن عبد الملك . ولقد سار يزيد

على سيرة عمر بن عبد العزيز مدة أربعين يوماً ناهجاً حياة الزهد والتقشف ، ثم عدل عنها إلى حياة الترف والملذات لأن طبيعته لم تكن تتوافق مع طبيعة عمر إبن عبد العزيز . ولم تقع فى عهده أحداث جسام سوى ثورة الخوارج عليه بقيادة يزيد بن المهلب بن أبى صفرة . وكان يزيد بن المهلب قد ثار بالبصرة سنة ١٠١ هـ وغلب عليها وخلع يزيد عن الخلافة ، واجتمع إليه الناس من بنى تميم وقيس وقاتل الشاميين . وأرسل يزيد بن عبد الملك جيشاً لمحاربة ابن المهلب بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك . وكان ابن المهلب قد خرج بقواته إلى واسط ، واجتمع إليه هنالك عدد من رجال القبائل . ووقعت معركة فاصلة بين ابن المهلب وجيش الخليفة عند العقير ، وهو موضع بقرب كربلاء ، وانتهت المعركة بهزيمة ابن المهلب ومقتله ، وانفضاض قواته ولما فرغ مسلمة بن عبد الملك من حرب ابن المهلب جمع له يزيد ولاية الكوفة والبصرة وخراسان .

ومات يزيد بن عبد الملك من أواخر شعبان سنة خمس ومائة ، وقيل أنه مات حزناً لوفاة جارية لـه كان متيماً بحبها تدعى « حبابة » ، فكانت وفاته « عشقاً وصبابة » .

١٠- هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) :

ولى هشام بن عبد الملك الخلافة فى اليوم الذى مات فيه أخوه يزيد بعهد منه سنة ١٠٥ هـ ، وظل فى الخلافة مدة طويلة قاربت العشرين عاماً حتى وفاته بالرصافة من أرض قنسرين فى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ . وكان هشام حازماً عاقلاً ، حليماً ، بخيلاً شديد البخل .

فى أيامه أنبث دعاة بنى العباس فى البلاد الشرقية ، وتحركت الشيعة فى

الخفاء ، وغزت جنوده الترك ببلاد ما وراء النهر . وفى عهده ثار الخوارج على الأمويين فى خراسان سنة ١٢٠ هـ ، فجعل عليها نصر بن سيار والياً ، وكان أكثر الموالين للحكم الأموى كفاية واخلاصاً ، فاستطاع بقوته وشدته أن يوطد دعائم الحكم الأموى فى خراسان وبلاد ما وراء النهر .

وفى عهد هشام ثار عليه العلويون بقيادة زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، إمام الشيعة الزيدية ، وتبعه خمسة عشر ألفاً من أهل الكوفة سنة ١٠٥ هـ ، وهى السنة التى تولى فيها هشام الخلافة .

ويذكر صاحب الفخرى ثورة زيد هذا بقوله : « كان زيد من عظماء أهل البيت علماً وزهداً وورعاً وشجاعة ، وكان دائماً يُحدث نفسه بالخلافة ويرى أنه أهل لذلك ، وما زال هذا المعنى يتردد فى نفسه ويظهر على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، حتى كانت أيام هشام بن عبد الملك . فاتهمه (هشام) بوديعة لخالد بن عبد الله القسرى ، أمير الكوفة ، فحمله إلى يوسف بن عمر أميرها فى ذلك العصر فاستحلفه أن ما لخالد عنده مالاً وخلىّ سبيله . فخرج ليتوجه إلى المدينة فتبعه أهل الكوفة وقالوا له : أين تذهب ، يرحمك الله ، ومعك مائة ألف سيف نضرب بها دونك ، وليس عندنا من بنى أمية إلا نفر قليل ، لو أن قبيلة واحدة منا صمدت لهم لكفتهم باذن الله . ورغبوه بهذا وأمثاله ، فقال لهم ، ياقوم إنى أخاف غدركم فإنكم فعلتم بجدى الحسين ، عليه السلام ، ما فعلتم ، وأبى عليهم . فقالوا : نناشدك الله إلا ما رجعت ، ونحن نبذل أنفسنا دونك ونعطيك من الأيمان والعهود والمواثيق ما تثق به . فإنا نرجو أن تكون المنصور وأن يكون هذا الزمان الزمان الذى يهلك فيه بنو أمية . فلم يزالوا به حتى ردوه . فلما رجع إلى الكوفة أقبلت الشيعة تختلف إليه يبايعونه ، حتى أحصى ديوانه خمسة عشر ألفاً من أهل الكوفة ، سوى أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وأهل

خراسان والرى وجرجان والجزيرة ، وأقاموا بالكوفة شهوراً . ثم لما تم الأمر لزيد وخفقت الألوية على رأسه ، قال : الحمد لله الذى أكمل لى دينى ، والله إنى كنت أستحيى من رسول الله ﷺ أن أرد عليه الحوض غداً ولم آمر فى أمته بمعروف ولم أنه عن منكر . فلما اجتمع الناس مع زيد أظهر أمره ونابذ من خالفه . فجمع له يوسف بن عمر جموعاً وبرز إليه ، وعبأ كل منهما أصحابه ، والتقى الفريقان وجرى بينهما قتال شديد . فتفرق أصحاب زيد عنه وخذلوه ، فبقى فى شرذمة يسيرة فأبلى هو بلاءً حسناً وقاتل قتالاً شديداً . فجاءه سهم فأصاب جبينه ، فطلب حداداً فنزع السهم من جبينه ، فكانت فيه نفسه ، فمات من ساعته . فحفر له أصحابه فى ساقية ودفنوه فيها وأجروا الماء على قبره خوفاً من أن يمثلوا بـه . فلما استظهر يوسف بن عمر أمير الكوفة فطلب قبر زيد فلم يعرفه ، فدله عليه بعض العبيد فنبشه وأخرجه فصلبه فبقى مدة مصلوباً ثم أُحرق وذُرى رماده فى الفرات » .

وإلى زيد هذا تنتسب جماعة الشيعة الزيدية ، وهى من أشد فرق الشيعة اعتدالاً وأقربها إلى مذاهب أهل السنة ، وقد كثر أتباع هذا المذهب فى بلاد اليمن . ويؤخذ على هشام إمعانه فى التنكيل بالعلويين وعدم التسامح معهم والايقاع بهم كلما واتته الفرصة لذلك ، برغم ما عُرف عنه من التسامح عموماً وحسن السياسة والتدبير حتى أن المؤرخين يساوونـه فى ذلك مع معاوية وعبد الملك . فقد قيل : « إن السواس من بنى أميـة ثلاثـة : معاويـة وعبد الملك وهشام » . ولقد توفى هشام فى شهر ربيع الآخر من سنـة خمس وعشرين ومائة ، وهو من أطول حكام بنى أمية استمراراً فى الحكم .

ومما يذكر لهذا الخليفة أن فى عهده وقعت معركة تور ، بواتييه ، بين المسلمين والفرنجة على أرض فرنسا . هذه المعركة الشهيرة التى لو كان المسلمون

قد أحرزوا النصر فيها لأكتسحوا أوربا من ناحية الغرب كما اكتسحوها من ناحية الشرق ، ولتحولت أوربا إلى قارة إسلامية ، ولكن شاء الله ألا تكون كذلك . ولقد حدث هذا الزحف الإسلامى إلى هذه البلاد من ناحية الأندلس ، وكان قد بدأ سنة ١٠٠ هـ / ٧١٧ م ، فى عهد خلافة عمر بن عبد العزيز ، حين تقدم الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، وهو الخلف الثالث لموسى بن نصير ، والى المغرب والأندلس ، من عبور جبال البرانس التى تفصل بين أسبانيا وفرنسا . وكانت هذه الحملات سلسلة من الغارات استأنفها ، من بعد الحر الثقفى ، خلفه السمح بن مالك الخولانى ، وكان الغرض منها الاستيلاء على النفائس التى إشتهرت بها الأديرة والكنائس فى تلك المنطقة . وفى سنة ١٠١ هـ / ٧١٨ م ، إحتل السمح مدينة أربونه وإتخذها المسلمون قاعدة للإنطلاق منها إلى داخل أرض الفرنجة (فرنسا) . وفى العام التالى جرت محاولة لاحتلال مدينة تولوز ، لكن هذه المحاولة لم تنجح وقتل فيها السمح . وبعد إنقضاء اثنتى عشرة سنة ، قاد عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، أمير الأندلس بعد السمح ، أكبر الحملات وآخرها عبر جبال البرانس . وبعد أن استولى على تولوز ، إجتاح مدينة بوردو على ضفاف نهر الجارون ، وسار شمالاً إلى بواتييه ، فبلغها وحاصرها ، ثم تركها إلى تور . وفى الطريق بين بواتييه وتور وقعت معركة بين قوات المسلمين بقيادة الغافقى وقوات الفرنجة الميروفيجنيين بقيادة شارل مارتل (المطرقة) . وبعد حرب بينهما استمرت سبعة أيام ، وفى اليوم السابع وهو يوم السبت ١٢٤ هـ / ٧٣٢ م ، استطاع الفرنجة وكلهم من المشاة أن يتقوا البرد بجلود الذئاب وأن يثبتوا فى القتال ، الذى قُتل فيه عبد الرحمن . وكان الظلام يفصل بين المتقاتلين ، فانسحب المسلمون بعد مقتل قائدهم ، تحت جنح الظلام ، ولم يدر شارل أنه حقق النصر حتى صباح اليوم التالى . فأكسبه هذا

النصر لقب مارتل أى المطرقة . ولقد أطلق المسلمون على هذه المعركة إسم بلاط الشهداء ، ورغم أنه لم يحدث قتال حاسم فى ساحة الحرب عند تور ، إلا أن نتيجة هذه المعركة كانت كبيرة بالنسبة للجانبين ، وكانت آخر محاولة من جانب المسلمين لغزو أوربا من ناحية الغرب . وبرغم أن المسلمين احتلوا سنة ١٢٦ هـ / ٧٣٤ م مدينة أفينيون الفرنسية ، وبعد تسع سنوات أغاروا على ليون ونهبوها ، إلا أن معركة تور تعتبر المدى الأقصى الذى بلغه المسلمون فى زحفهم على أوربا الغربية وذلك فى العهد الأموى .

١١- الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ - ١٢٦ هـ) :

بويع الوليد بن يزيد بالخلافة فى اليوم الذى توُفى فيه عمه هشام ، ذلك لأن هشام لم ينجب أولاداً ذكوراً وكانت له فقط ابنتين اثنتين . كان من فتيان بنى أميــة وظرفائهم وشجعانهم وأجوادهم وأشدائهم . منهمكاً فى اللهــو وسماع الغناء ، وكان شاعراً محسناً له أشعار حسنة فى العتاب والغزل ووصف الخمر .

انهمك فى اللذائذ قبل توليــه الخلافة وازداد إنهماكاً فيها بعد أن صار خليفة . ولقد أساء إلى نفسه بسلوكه العام السىء ، كذلك باساءتــه لأكابر أهله ، فأجمعوا أمرهم على قتله . وقتلوه بتدبير من يزيد بن الوليد بن عبد الملك بقرية من قرى دمشق سنة ١٢٦ هـ ، وبذلك لم تطل مدة خلافته عن الأربع عشرة شهراً .

١٢- يزيد (الناقص) بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦ هـ) :

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وسُمى (الناقص) لأنه أنقص من أعطيات أهل الحجاز ما كان قد زادهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، فسُمى الناقص لهذا السبب . وقيل أنه سُمى كذلك أيضاً لنقصه الجند من أعطياتهم .

وقد وثب يزيد على الخلافة بعد أن قتل ابن عمه الوليد وتملك . وأمه فارسية جدها الأكبر كسرى أنو شروان ملك الفرس العظيم .

وفى أيام يزيد شرعت أمور الدولة الأموية فى الاضطراب ، وشرعت الدعوة العباسية تنبع وانبعث دعاتهم فى الأمصار . ويزيد هو أول من خرج بالسلاح فى العيدين ، فقد خرج من صلاة العيدين بين صفين من الخيل عليهم السلاح من باب الحصن إلى باب المصلى . وقد حارب يزيد انتشار الغناء فى عهده ، وقال فى ذلك لقومه : « يابنى أمية إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ويزيد فى الشهوة ويهدم المروءة وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعل المسكر فإن كنتم لابد فاعلين فجنبوه النساء فإن الغناء داعية للزنا » .

ولم يُمتع يزيد بالخلافة ، بل مات من عامه فى سابع ذى الحجة ، فكانت خلافته ستة أشهر ناقصة ، وكان عمره خمساً وثلاثين سنة ، ويُقال أنه مات بمرض الطاعون .

١٣- إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦ هـ) :

بويع ابراهيم بن الوليد بالخلافة بعد موت أخيه يزيد الناقص ، فقال قوم أنه عهد إليه بالخلافة بعده ، وقال قوم آخرون أنه لم يعهد . ومكث ابراهيم فى الخلافة سبعين يوماً ، ثم خُلع ، خرج عليه مروان بن محمد وأخذ البيعة لنفسه ، فهرب ابراهيم ، ثم جاء إلى مروان وخلع نفسه من الخلافة وسلمها له طائعاً فى صفر سنة ١٢٧ هـ . وعاش ابراهيم ، بعد ذلك ، إلى سنة ١٣٢ هـ ، وقُتل مع من قُتل من بنى أمية على يد الخليفة العباسى الأول أبى العباس عبد الله السفاح .

١٤- مروان بن محمد (١٢٦ - ١٣٢ هـ) :

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، ويُلقب بالجعدى ، نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم ، وبالحمار ، لصبره على محاربة الخارجين عليه وعلى مكاره الحرب ، ويُقال في المثل : « فلان أصبر من حمار في الحروب » ، فلذلك لُقب به .

قام مروان بخلع ابراهيم بن الوليد عن الخلافة ، وبويع له بالخلافة في دمشق ، في شهر صفر سنة ١٢٧ هـ . ولقد ثارت القلاقل في الدولة ضد هذا الخليفة ، بسبب انتشار دعوة بنى العباس وسخط الناس على بنى أمية ، وبخاصة الموالى ، وفى مقدمتهم الفرس . وفى أيام خلافة مروان نشط بنو العباس فى كسب الأنصار ، وكانوا يدعون إلى نصرة إمام من آل البيت ، ورفعوا شعار الرضا من آل محمد ، أى أن تكون الخلافة لمن يرضى عنه المسلمون من آل البيت علوياً كان أم عباسياً . واستفاد هؤلاء من تدهور أحوال الدولة الأموية آنذاك واضطراب حال ولاياتها وسخط الموالى الذين انتشرت بينهم آراء الشيعة والخوارج السياسية . فلما استوثق العباسيون من أمرهم قام داعيتهم وقائدهم ، أبو مسلم الخراسانى ، بإعلان الثورة على الأمويين فى خراسان وباسقاط الخليفة مروان بن محمد . وقد سار أبو مسلم بجيشه من خراسان وقام بهزيمة قوات مروان بن محمد فى معركة الزاب ، على نهر الزاب سنة ١٣٢ هـ . وعقب ذلك دخل أبو العباس عبد الله (السفاح) الكوفة ، وأعلن قيام الخلافة العباسية وسقوط الخلافة الأموية .

أما مروان ، فقد فر ، بعد معركة الزاب ، إلى الشام فتبعه ، قائد العباسيين عبد الله بن على العباسى إلى هناك ، ففر مروان إلى مصر . فتبعه إلى هناك

القائد صالح بن على ، أخو عبد الله بن على ، ونجح فى القبض عليه وقتله فى بلدة بوصير بالفيوم فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ . وبقتل مروان بن محمد ، آخر خلفاء الأمويين ، ينتهى حكم الدولة الأموية ، ويبدأ عهد جديد فى حكم الدولة العربية الاسلامية ، وهو العهد الذي عُرف بالعهد العباسى ، الذى أقام فيه العباسيون دولتهم التى عُرفت بالدولة العباسية .

ولعل سقوط هذه الدولة العريقة وإنتهاء أمرها دون أن يتجاوز عمرها القرن من الزمان يجعلنا نتساءل عن أهم الأسباب التى أدت إلى سقوط هذه الدولة .

وفى الحقيقة ، فإنه يأتى فى مقدمة هذه الأسباب ، تلك المعارضة التى لقيتها الدولة ، منذ قيامها ، وبخاصة من الموالى فى الأمصار . وقد قامت هذه المعارضة فى وجه الأمويين من جماعات المسلمين الذى لم يقروا الأمويين على الطريقة التى وصلوا بها إلى الحكم ولم يعترفوا بأحقية حكامها بالخلافة . وقد ظل البعض منهم موالياً لعلى بن أبى طالب ولبنيه وأحفاده من بعده ، وقد رأى هؤلاء ضرورة إستمرار حكم المسلمين فى بيت رسول الله . ورأى البعض الآخر أن معاوية انتزع الحكم ، دون وجه حق ، من مستحقيه ، وأنه أغفل نظام الشورى الذى جاء به الإسلام وسار عليه الخلفاء الراشدون وصولاً إلى الحكم ، وأنه حوّل الخلافة إلى مُلك وراثى كسروى ، الأمر الذى يتنافى مع ما حدث فى سقيفة بنى ساعدة وما طبقه الشيخان أبو بكر وعمر . ولقد كانت جماعتى الشيعة والخوارج أكثر المعارضين لحكم الأمويين ، ومن أشدهم عملاً على إسقاط حكمهم وإنهاء دولتهم .

ويرى العلويون ، الذين عرفوا بالشيعة لكونهم أشياع على وآل البيت ، أن الإمامة حق لآل البيت من نسل على والسيدة فاطمة ، إبنة رسول الله ﷺ ، وأن

خلافة الأمويين باطلة من أساسها ، وقالوا أن علياً وأهل بيته هم الثمرة وقريشاً هي الشجرة ، والثمرة أفضل من الشجرة . وقال بعضهم أن خلافة أبي بكر وعمر باطلة لأن فيهما إفتئات على حق على في إمامة المسلمين بعد رسول الله . وقد إستند هؤلاء على حديث رسول الله لما خرج لغزوة تبوك واستخلف علياً ، فقال على لرسول الله : « أتخلفني في الصبيان والنساء ؟ فقال له رسول الله : « ألا ترض أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي » . وقد ورد هذا الحديث في كتاب المغازي من صحيح البخاري وفي فضائل الصحابة من صحيح مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص . وقد أضيف على نص الحديث قوله عليه السلام في حق على ، « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وأنصر من نصره وأخذل من خذله » . قال ابن الجوزي : إن هذا الحديث موضوع مع أنه رواه البخاري ومسلم ، وأنه ليس هنالك نص على استخلاف على بعد الرسول ﷺ . ولو دل هذا القول على الاستخلاف لاقتضى أن إبن أم مكتوم خليفة بعد النبي ﷺ ، لأنه إستخلفه على المدينة واستخلف أيضاً غيره . فلم خُص على بالخلافة ، دون غيره ، مع اشتراك الكل في الاستخلاف ؟ وأيضاً لو كان هذا من باب الفضائل لما تأثر على ووجد في نفسه وقال للرسول : « أتجعلني مع النساء والأطفال والضعفاء ؟ » فقال له الرسول ، تطييباً لنفسه : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى » . وقد شبه النبي أبا بكر بابراهيم وعيسى ، وشبه عمر بنوح وابراهيم لما أشارا في أمر أسارى بدر ، وهذا أعظم من تشبيه على بهارون ، ولم يوجب ذلك أن يكونا بمنزلة أولئك الرسل . وتشبيه الشيء بالشيء لمشابهته في بعض الوجوه كثيرة في الكتاب والسُنة ككلام العرب .. وقد أجمعت الأمة على أن النبي ﷺ ما نص على أحد يكون خليفة على المسلمين من بعده .

وقد ظهرت جماعة الشيعة ، كجماعة سياسية ، بعد معركة كربلاء ، وهى المعركة التى استشهد فيها الحسين وسبعة من أبناء السيدة فاطمة وخمسة من أحفادها . وقد زادت هذه المعركة فى أعداد المناصرين للعلويين ، كما زادت من سخط الساخطين على بنى أمية . وقد قام الشيعة بثورات ضد الأمويين ، قام باحداها زيد بن على بن الحسين فى الكوفة فى عهد هشام بن عبد الملك ، وقام بالثانية إبنه يحيى بن زيد فى بلاد الديلم ، جنوبى بحر قزوين من منطقة طبرستان . وقد قابل حكام الأمويين هذه الثورات العلوية بعنف شديد ، ولم يشفع لأهلها عندهم قرابتهم لرسول الله ، لأن الأمويين إعتبروهم معارضين لحكمهم وخارجين عن طاعة الدولة وجبت محاسبتهم . وبرغم استخدام العنف فى مقاومة هذه الحركات الشيعية ، إلا أن الثورة العلوية ضد الأمويين استمرت . فقد أخذ العلويون يبثون دعاتهم فى كل أرجاء الدولة الاسلامية ، خاصةً فى المناطق البعيدة عن دمشق عاصمة دولة الأمويين ، ونجحوا ، من خلال تنظيماتهم السرية المحكمة ، فى جمع أعداد كبيرة إلى جانبهم ضد الحكم الأموى ، وبخاصة فى بلاد فارس .

أما الخوارج ، فهم فرقة نشأت أثناء معركة صفين بين على ومعاوية ، وبعد حادثة التحكيم . وكان هؤلاء قد أجبروا علياً بقبول التحكيم ، وبعد أن تم التحكيم احتج هؤلاء على على لقبوله ، رافعين شعار « لا حكم إلا لله » ، وهجروا جيش على وانسحبوا إلى قرية حروراء ، بالقرب من الكوفة ، وسموا لذلك بالحرورية . وقد سموا أنفسهم بالشراة ، لزعمهم أنهم اشتروا أنفسهم بأن باعوها فى سبيل الله ، وسماهم أعداؤهم بالخوارج ، لخروجهم عن صف المسلمين وجماعتهم . وبرغم أن علياً قد أوقع بالخوارج هزيمة ساحقة عندما حاربهم عند النهروان ، إلا أنهم ، بعد أن انهزموا ، تفرقوا إلى أماكن عديدة

وظلت أفكارهم الدينية والسياسية قائمة وقوى جانبهم فى العصر الأموى وشكلوا حزب معارضة قوى للأمويين . وقد رأى الخوارج أن الخلافة ليست أمراً قاصراً على قريش وإنما هى حق مباح لكل مسلم حر يبايعه المسلمون أياً كان لونه أو جنسه أو نسبه . وأن لجماعة المسلمين الحق فى عزل الحاكم الذى يختارونه ليحكمهم لو حاد عن الطريق القويم . ولقد حاول الخوارج إسقاط الأمويين ، وكانوا أشد العناصر إقلاقاً لهم بسبب شجاعتهم واستبسالهم فى القتال ورغبتهم فى الاستشهاد وعدم مبالاتهم بالموت . وقد قاتل حكام الأمويين الخوارج بضراوة وأوكلوا إلى قوادهم العظام أمر محاربتهم فاستنفد قتالهم لهم معظم قوتهم . وفى عهد معاوية تصدى لقتالهم زياد بن أبى سفيان واستخدم الشدة والقسوة فى معاملتهم ، فلم تقم لهم قائمة فى العراق مدة ولايته عليها . وكاد الخوارج يقضون على الدولة الأموية فى عهد عبد الملك بن مروان لولا شجاعة قائده وواليه على العراق وفارس ، الحجاج بن يوسف الثقفى ، الذى دخل معهم فى أكثر من ثمانين معركة كان النصر حليفه فى معظمها . وقد هزم الحجاج الخوارج الصُفرية ، كما هزم الخوارج الأزارقة ، وقد كانت أشد فرق الخوارج شراسة فى الاعتقاد وضراوة فى القتال . واشتدت ثورات الخوارج فى عهد مروان إبن محمد ، آخر خلفاء بنى أمية ، وإنضم إلى حركتهم أعداد كبيرة من شعوب الموالى الذين راقتهم شعارات الخوارج السياسية فى الحكم ، وبخاصة موالى الفرس والبربر ، فاستطاع الخوارج ، بذلك ، أن يألبوا شعوب الدولة الإسلامية ضد الدولة الأموية التى تفرغت فى السنوات الأخيرة من حكمها لمحاربة هذه العناصر الساخطة المتمردة ، الأمر الذى أتعب الدولة وأجهد اقتصادها وأدى فى النهاية إلى إنهيارها ثم سقوطها .

وكان سوء حال الموالى فى الدولة الأموية ، سبباً من أسباب سقوط هذه

الدولة . والموالى ، هم المسلمون من غير العرب ، وهى تسمية أطلقها العرب على غيرهم من الشعوب غير العربية الذين عرفوهم بالأعاجم . وقد أخذ عدد الموالى فى الإزدياد بعد أن انتقلت الخلافة للأمويين نتيجة توالى الفتوح الاسلامية ونجاح الأمويين فى توسيع رقعة دولتهم ، ودخول شعوب مثل الفرس والبربر والترك والقبط والأرمن وغيرهم حظيرة الدولة الإسلامية . ولقد نُسب إلى الأمويين ترفعهم على الموالى بحكم أنهم حكام الدولة ، مع أنه لم تثبت صحة ذلك ، فهم كانوا فى حاجة لعون هؤلاء الموالى ، خصوصاً ذوى الكفاءة والمقدرة منهم ، فى إدارة أمور دولتهم ، وبخاصة فى الأمور التى لم يكن يعرفها العرب أو لم يكونوا يتقنوها . وقد ذكر بعض المؤرخين أن نقمة الموالى على الأمويين جاءت من أنهم كانوا يعاملونهم على أنهم مواطنين من الدرجة الثانية ، ودون العرب ، ولا يولونهم مناصب القيادة فى الدولة والجيش ، ولا يشركوهم معهم فى الادارة والحكم . وقد رأى هؤلاء الموالى فى أنفسهم ، وبخاصة الفرس ، التفوق على العرب لأنهم أصحاب حضارة قديمة ومدنية عريقة . وليس من المعقــول قبول مثل هــذه الآراء ، لأن ذلك التميز فى المعاملة يخالف أصول الدين ، وقد ثبت أن حكام الأمويين كانوا يطبقون تعاليم الإسلام وكانوا حريصين على تحقيق العدل والمساواة بين جميع رعايا الدولة . وقد قيل أنه بسبب تعصب الأمويين للعرب دون الموالى ، هرع هؤلاء الموالى إلى الخوارج واعتنقوا مبادئهم السياسية التى تجعل الحكم حقاً متاحاً لأى مسلم رضيت عنــه جماعــة المسلمين . ولقد حاول الخوارج إيغار صدر الموالى ضد الدولة الأموية وتأليبهم للثورة عليهم لتحقيق أهدافهم فى إقامة دولة لهم بعد أن ينجحوا فى تقويض حكم دولة الأمويين..

كذلك كانت العصبية القبلية من أهم العوامل التى أدت إلى القضاء على

دولة الأمويين ووصول حكمها إلى نهايته . وفى ظل الحكم الأموى تفشت روح العصبية القبلية ، تلك الروح التى عمل الاسلام على القضاء عليها وكانت سبب الفرقة بين قبائل العرب وسبب الحروب والنوازل بينهم . وقد بعثت هذه الروح العصبية بين القبائل عقب وفاة يزيد بن معاوية ، غير أنها لم تكن من الشدة بحيث تؤثر فى إنحلال دولة الأمويين ، إلى أن كانت خلافة عمر بن عبد العزيز التى تعتبرة فترة إنتقال بين حال القوة والتماسك وحال الضعف والتفكك فى الحكم الأموى . فقد كان عمر صالحاً ، عادلاً ، قضى فترة خلافته ، الوجيزة ، فى إصلاح ما أفسده سبعة من خلفاء بنى أمية حتى نال رضاء جميع العناصر الثورية ، فلم يتعصب لقبيلة دون أخرى ، ولم يول والٍ إلا لكفايته وعدالته ، سواء أكان من المضرية أو اليمانية . فسكتت هذه الفتن التى كانت تنتاب الدولة وتتربص بها . فلما توفى عمر بن عبد العزيز خلفه يزيد بن عبد الملك ، الذى تعصب للعرب المضرية ضد العرب اليمانية ، ووقعت فى عهده فتنة النزاع بين عرب الشمال وعرب الجنوب . وكانت هذه الفتنة سبباً فى القضاء على أفراد بيت المهلب بن أبى صفرة ، فقد قُتل بعضهم فى الحرب ، وحُمل بعضهم فى الأغلال إلى يزيد بن عبد الملك فأمر بهم فقتلوا جميعاً . ولقد كان بيت المهلب من كبار المخلصين للدولة الأموية ومن كبار المتصدرين للقضاء على ثورات الخوارج ، وكانوا مثالاً فى الشجاعة والنبل والفضل . ولقد زج يزيد بنفسه فى تلك العصبية ، ونرى الخلفاء الأمويين من بعده منهم من ينضم إلى القيسية حيناً ومنهم من ينضم إلى اليمنية حيناً آخر . ولقد أخذ يزيد جانب القيسيين واصطبغت الدولة كلها فى عهده بالصبغة القيسية المضرية وأصبح العنصر اليمنى ضعيفاً لا يملك من الأمر شيئاً .

ولما توفى يزيد بن عبد الملك وخلفه أخوه هشام ، رأى أن القيسية قد علت

كلمتها وخاف إزدياد نفوذها فى الدولة ، فعمل على التخلص منهم والإنحياز إلى اليمنية ليعيد التوازن بين العنصرين المضرى واليمنى . فعزل العمال المضريين وولى مكانهم عمالاً يمنيين . فولى خالد بن عبد الله القسرى على العراق ، وولى أخاه أسد بن عبد الله القسرى على خراسان ، وبذلك أخد العنصر اليمنى يتقوى فى الدولة الأموية على حساب العنصر المضرى . ويغضب خالد وأخوه لليمنية وأخذوا فى الانتقام من المضريين . على أن هشاماً سرعان ما تحول عن اليمنية إلى المضرية فولى العمال من المضريين ، ولى يوسف بن عمر الثقفى العراق ، ونصر بن سيار خراسان ، وكذلك فعل فى بلاد الأندلس . وكان مقتل خالد بن عبد الله القسرى ، زعيم اليمنية من أقوى الأسباب التى عجلت بسقوط البيت الأموى ، فإن اليمنية لم ينسوا للدولة قضاءها على آل المهلب ، وفوجئوا بقتل زعيمهم القسرى واتهامه بممالأة العلويين والزندقة والإلحاد . فعمل اليمنيون على الخلاص من سيادة الأمويين .

ولقد لزم الوليد بن يزيد بن عبد الملك جانب المضريين ، لأن أمه كانت منهم ، وأقصى العنصر اليمنى ، فزاد هذا الأمر من سخطهم على الأمويين ، فأخذوا يدبرون المكائد لقتله وإثارة الناس ضده . وانتهز اليمنيون سخط عامة الناس على الوليد وثاروا ضده ، وإنضم إليهم فى ثورتهم هذه يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، فقتلوه وبايعوا يزيداً بالخلافة . وما كاد يزيد يتولى الخلافة حتى أخذ بسيرة أسلافه من الانحياز لطرف دون الآخر ، فانحاز إلى اليمنيين ضد المضريين ، وأخذ يولى العمال منهم ، عرفاناً منه بمساعدتهم له فى الوصول إلى الخلافة . وأطلق اليمنيون يدهم فى الإساءة إلى المضريين ، الذين ثارت ثائرتهم ، فأشعلوا نار الثورة فى حمص ، وانضم إليهم يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية وعدد من أفراد البيت الأموى . كما ثاروا فى فلسطين بزعامة يزيد بن سليمان

إبن عبد الملك ، كذلك ثاروا فى الأردن بزعامة محمد بن عبد الملك . غير أن الخليفة يزيد بن الوليد استطاع ، بمساعدة اليمنيين ، أن يتغلب على الجميع وأن يقض على ثوراتهم ويزج بزعمائهم من أهل بيته فى غياهب السجون .

ولما تُوفى يزيد ، ولى الخلافة بعده أخوه ابراهيم بن الوليد ، الذى لم يكن يحظ بهيبة الخلافة أو إحترام الناس له . وقد ثار ضده الأمير الأموى مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وسار بجنوده من الجزيرة يريد الشام مطالباً بدم الوليد بن يزيد ، وتظاهر مروان بعزمه على إعادة الخلافة لإبنه ابراهيم وسرعان ما انضمت إليه القيسية ضد اليمنية . وأخذ إبراهيم بن الوليد فى حشد قواته لقتال مروان بن محمد عامل الجزيرة وأرمينية ، لكن مروان كان مقاتلاً شجاعاً خبيراً بالحرب والقتال ، فاستطاع أن يتغلب على جنود ابراهيم وأن يهزمهم شر هزيمة ، ودخل مروان الشام ، وفر ابراهيم هو وأتباعه من أمامه .

ولقد أراد مروان أن تكون الخلافة فى ولد الوليد ، لكن اليمنيين عمدوا إلى إبنى الوليد فقتلوهما فى السجن خوفاً من توليهما الخلافة والقصاص منهم ، وشهدوا بأنهما تنازلا عن الخلافة لمروان . فبايعوه بالخلافة وكذلك أهل الشام ، وبذلك أصبح مروان سنة ١٢٧ هـ خليفة . وفى عهده ثارت روح العصبية القبلية فى جميع أنحاء الدولة الأموية . فقد تعصب مروان للقيسية وطالب اليمنية بدم الوليد ، فثاروا ضده ، لكنه نجح فى هزيمتهم . كذلك نجح فى القضاء على ثورات اليمنيين فى الشام ، ولم يكد الأمر يستقر لمروان فى بلاد الشام حتى خرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك ودعا أهلها إلى خلعه وإنضمت إليه اليمنية فى ثورته . فسار إليه مروان وهزمه بعد حروب طويلة فى بلاد الشام خاضها مروان ضد اليمنيين الذين كانوا يتركزون هناك . ولقد ساد النزاع القبلي الدولة

جميعها فى الشام واليمن والعراق والحجاز وكان على مروان مُحاولة رأب صدع الدولة لكن ذلك جاء بعد فوات الأوان وبعد نجاح الدعوة العباسية فى خراسان .

وهكذا وجدنا أن الدولة الأموية دخلت بسبب العصبية القبلية تارةً فى دائرة نفوذ اليمانية وتارةً أخرى فى دائرة نفوذ القيسية ، الأمر الذى أدى إلى شدة الاضطراب وكثرة الحروب الداخلية . وقد كان تزايد نفوذ أى من الفرقتين يعتمد على ميول كل خليفة من خلفاء الأمويين . فازداد نفوذ العرب اليمنية فى خلافة معاوية بن أبى سفيان وخلافة إبنه يزيد لاستنادهما عليهم فى مواجهة عرب أهل الحجاز القيسية الذين تعصبوا للعلويين . وقد ناصر عبد الملك بن مروان القيسية ضد اليمانية ، واعتمد خصوصاً على ولاء رجال بنى ثقيف القيسية ضد اليمنية وخاصة ضد الثروات التى قام بغالبيتها عرب اليمنية . كذلك تعصب الوليد بن يزيد ، الذى كانت أمه قيسية ، للقيسية وقام باقصاء العنصر اليمانى ، فقاموا بتدبير المؤامرات ضده . وتعصب يزيد بن الوليد لليمانية فثارت ضده القيسية . وتعصب يزيد بن الوليد لليمانية فثارت ضده القيسية . كما تعصب مروان بن محمد للقيسية فثارت ضده اليمانية ، وساعدت العباسيين فى القضاء على حكمه وعلى دولة بنى أمية عموماً . وقد عجلت هذه الحروب القبلية بنهاية الدولة الأموية وأدى النزاع بين عرب الشام القيسية واليمانية إلى تضعضع وزعزعة الأساس الذى ارتكز عليه الحكم الأموى فى إقامة دولته . هذا فضلاً عن إنتقال هذا الداء العضال إلى شتى الأمصار الاسلامية مما أدى إلى عدم قدرة الدولة على السيطرة على ولاياتها وعدم مقدرتها فى إستمرار سيادتها عليها ، الأمر الذى جعلها تربة خصبة رتع فيها الشيعة والخوارج ، وحققوا ما يريدون دون أن تنالهم يد الدولة بأى أذى .

كذلك كان انقسام البيت الأموى على نفسه ، من عوامل سقوط الدولة الأموية . ولقد جاء هذا الانقسام بسبب نظام ولاية العهد وتولية الخلفاء العهد من بعدهم لأكثر من واحد ، وهو المبدأ الذى أقره الأمويون فى مؤتمر الجابية سنة ٦٤ هـ . وقد أدى ذلك إلى النزاع بين أمراء البيت الأموى الحاكم والصراع على تولى الحكم ، مما أدى إلى الحروب بينهما التى أضعفت الدولة وأدت إلى تدهورها ثم نهايتها . وكان مروان بن الحكم ، هو أول من سن هذه السنة ، حين جعل ولاية العهد من بعده لإبنيه عبد الملك ثم عبد العزيز ، وقد خالف فى ذلك ما تقرر فى مؤتمر الجابية من أن تكون ولاية العهد لعبد الملك ثم لخالد إبن يزيد ثم لعمرو بن سعيد بن العاص . وكان من أثر ذلك أن خرج عمرو بن سعيد بن العاص ثائراً على عبد الملك . وقد سار عبد الملك بن مروان على سنة أبيه مروان ، فقد فكر فى خلع أخيه عبد العزيز بن مروان من ولاية العهد وتولية إبنيه الوليد ثم سليمان ، ولم يمنعه من ذلك سوى وفاة أخيه عبد العزيز قبل أن يقدم على هذه الخطوة . كذلك حاول الوليد بن عبد الملك خلع أخيه سليمان إبن عبد الملك من ولاية العهد وجعلها فى إبنه عبد العزيز ، وقد أجابه قواده إلى ذلك ، وفى مقدمتهم الحجاج بن يوسف الثقفى . وكاد هذا الأمر يتم لولا وفاة الوليد فجأة ونجاح سليمان أخيه فى الوصول إلى الخلافة ، وانتقامه ممن كان لهم ضلع فى محاولة إبعاده عن الخلافة . ولقد ظهر هذا الخلاف واضحاً فى البيت الأموى الحاكم فى النزاع الذى وقع بين يزيد بن الوليد بن عبد الملك وبين إبن عمه الوليد بن يزيد . وقد شارك الوليد فى قتل يزيد وإزاحته عن الخلافة : ولقد أضعفت هذه الخلافات قوة البيت الأموى ، فأتاح مناخ الضعف هذا الفرصة لأعدائهم العباسيين فى الاستفادة من جميع الظروف وتجنيد جميع العناصر الساخطة على حكمهم ، ونجحوا فى النهاية فى إسقاط الدولة الأموية وأقاموا على أنقاضها الدولة العباسية .

الفصل الرابع

نظم وحضارة
الدولة العربية الإسلامية

جاء الإسلام بدعوة دين ودعوة دولة ودعوة حياة سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية ، ووضع أسس العقيدة التى يجب أن يؤمن أتباعه بها ، وجعل أساسها كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وجهاد المجتهدين من أهل العلم والفضل فيما لم يرد فى الكتاب والسنة . ورسم حدود المعاملات بمختلف أنواعها حتى تساعد على إقامة مجتمع إسلامى متميز . ولقد وضعت الدولة الإسلامية لها نظماً تعتبر أساس حضارتها ومظهراً بارزاً من مظاهر تلك الحضارة ، وقد شملت هذه النظم السياسة والإدارة والاقتصاد والإجتماع ، وكل ما يتصل بأمور هذه الدولة ويحقق آمال شعوبها . وتتمثل هـذه النظم فى : النظام السياسى ، والنظام الإدارى ، والنظام القضائى ، والنظام المالى ، والنظام الحربى .

النظام السياسي:

حين أقام الرسول ﷺ ، الدولة فى المدينة ، أصبح الرئيس الأعلى لحكومتها ، كما كان الرئيس الأعلى للدعوة الإسلامية . وكان المسلمون يرجعون إليه لحل جميع مشاكلهم الدينية والمدنية ، وقـد نزلت عليه سور التشريع المختلفة فى المدينة ، وكانت هذه السور وآياتها تساعده فى وضع دستور حكومى عام منتظم . وقد حكم الرسول وإلتزم بما أنزل عليه من وحى فى كتاب الله وقام بتطبيقه حرفياً فيما يتصل بالعقيدة والأمور المعاشية وما طُرح على الساحة من مشاكل فى حياته وطوال مدة بعثته . كما كان يستشير كبار صحابته ، وبخاصة أبا بكر وعمر فيما لم ينزل به الوحى من تشريع ، ولم يكن يستبد برأيه فى النظر فى هذه الأمور . والحكم فى الإسلام يقضى بأن الله هو مالك المُلك ، والرسول هو مندوبه على الأرض ومطبق شرعه ومبلغ دعوته ، والقرآن هو دستوره ، وأن كل

شخص يؤمن بهذا الدين ويدخل فى حظيرة الإسلام عليه أن يقر بالسيادة والحكم لله والخضوع لأوامره وأحكامه ، وإطاعة رسوله وتطبيق دستوره حتى يكون مواطناً صالحاً فى هذه الأمة . ولقد تعرض التشريع الإسلامى ، الذى أصبح أساساً لنظام الحكم فى دولة الإسلام الجديدة ، إلى جميع ما يصدر عن الإنسان من عمل سواء من عبادات أو أمور مدنية أو جنائية أو أمور سياسية أو حربية ، أو تنظيم للأسرة وتنظيم علاقة الأفراد بعضهم ببعض داخل الأسرة أو خارجها ، وعن تنظيم التعامل بين الناس بعضهم وبعض ، وتنظيم تعامل المسلمين مع غير المسلمين داخل نطاق الدولة ، لأن الإسلام دين ودولة ونظام متكامل يشمل كل ما يهم الإنسان وينفعه فى دنياه وآخرته .

وقد قام الرسول ﷺ بوظيفة رئيس الحكومة المدنى ورئاسة سلطتها التنفيذية ، بتعيينه كتاباً للوحى ونواباً عنه من الصحابة لتفقيه القبائل وتعليمهم أصول الإسلام وإمامة المسلمين فى الصلاة ، وجباية الزكاة وجمع الصدقات والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وإرساله الكتب إلى الملوك والحكام ، وقيادته الجيوش فى المعارك والغزوات وتعيين القواد على تلك الجيوش ، ورسم خطط القتال ، وعقد معاهدات الصلح وتحديد شروطها ، إلى ذلك من الأمور الدنيوية ، وذلك إضافة إلى قضائه بينهم ، إلى جانب رسالته الأساسية وهى الدعوة لله وتبليغ رسالة الوحدانية إلى كل الآفاق ومحاربة الوثنية على الأرض جميعاً .

ولما توفى الرسول ، فوجئ المسلمون بوفاته ، واضطربوا فى أمر إختيار من يستحق أن يخلفه من بعده فى قيادة الدولة ومسيرة الدعوة ، ومن هو ذلك العظيم الذى يخلف رسول الله فى القيادة والدعوة وهو المثل الأعلى الذى لايدانيه مثل من بنى البشر ؟ ومن هنا واجه المسلمون أول امتحان لهم فى إختيار خليفة

رسول الله ، ومن هنا نشأت المشكلة الأساسية فى الدولة الإسلامية والتى عُرفت بمشكلة الخلافة . وقد سمى من خلف رسول الله فى حكم الدولة الإسلامية وتنفيذ الأحكام الشرعية خليفة ، فقيل له : خليفة رسول الله ، وقيل له أيضاً خليفة الله على الأرض . وأطلق الشيعة عليه لقب : إمام ، تشبيها بإمام الصلاة فى إتباعه والاقتداء به ، ولذا سموا الخلافة بالإمامة الكبرى . وذهب السلف إلى أن الخلافة أو الإمامة هى أساس كل حكم فى الإسلام ، وجروا فى تعريف الخلافة على أنها : رياسة فى أمور الدين والدنيا نيابةً عن رسول الله ، وأن منزلة الخليفة من الأمة هى منزلة رسول الله من المؤمنين ، له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة ، وله عليهم حق القيام على دينهم ، فيقيم فيهم حدوده وينفذ فيهم شرائعه ، كما له حق القيام على شئون دنياهم ، وبيده ، وحده ، زمام الأمة ، وكل ولايـــة مستمدة منه ، وكل خطة دينية أو دنيوية متفرعة عن منصبه ؛ فهو الحاكم الروحى والحاكم الزمنى للدولة الإسلامية .

ولقد ترك القرآن الكريم والرسول للمسلمين ، بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى ، تحديد نظام الحكم عندهم ، حسب ما يجدونه صالحاً لدينهم ودنياهم فتولى الخلافة أربع خلفاء عرفوا بالخلفاء الراشدين ، وكانت طريقة توليتهم انتخابية شورية ، لكن الخلافة فى العصرين الأموى والعباسى تحولت إلى النظام الملكى الوراثى ، مثلما كان الحال عند الفرس والروم . وكانت البيعة الخاصة تتم للخليفة عند توليه الخلافة ، ثم تؤخذ له البيعة العامة من كافة المسلمين فى مسجد العاصمة الجامع ثم فى سائر مساجد الدولة المختلفة ، على أنه رئيسهم ينظر فى أمورهم ويتولى زمام أمرهم . وكان مقر الخليفة فى عاصمة الدولة ، وتحول لذلك هذا المقر من المدينة إلى الكوفة إلى دمشق إلى بغداد . وكان خبر البيعة للخليفة المختار يُرسل إلى الأمصار فتوافق شعوب الأمصار على

ذلك موافقة عامة ، ويبايعون ولاتهم باسم الخليفة الجديد. ولما إستقر الأمر لمعاوية بن أبى سفيان ، أوجد فكرة ولاية العهد ، وبايع الناس إبنه يزيد فى حياته ، ثم جددوا البيعة ليزيد بعد وفاة أبيه معاوية . وتطور أمر ولاية العهد فى العصر الأموى ، ثم فى العصر العباسى بعد ذلك ، حين كان الخليفة يختار لولاية العهد أكثر من إبن من أبنائه .

ولقد اختلف رأى الفرق الإسلامية السياسية والدينية حول أمر إختيار خليفة المسلمين ، فقال المهاجرون ، فى سقيفة بنى ساعدة ، أن الخلافة يجب أن تكون فيهم وأن الخليفة يكون من قريش ، وحجتهم فى ذلك : إنهم أول من آمن بالرسول والدعوة وصبر على أذى المشركين وهاجروا ، وهم من قريش ، وقريش هى قبيلة الرسول ، والسيادة لها على العرب قبل الإسلام وبعده ، والعرب لا تنصاع إلا لقريش . أما الأنصار ، الذين إجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة غداة وفاة الرسول ، فقد كان لهم رأى آخر فى أمر الخلافة ، وهو أن تكون الخلافة فيهم ، وحجتهم فى ذلك : أنهم هم الذين نصروا الرسول ومنعوه وآووه فى مدينتهم وقامت الدولة فى مدينتهم التى ظلت عاصمة لهذه الدولة ، وأن الرسول مات عندهم وهو راضٍ عنهم ، وهم الذين أعز الله الإسلام بسيوفهم ، فالحكم لا يكون إلا فيهم . ولكن الأمر فى السقيفة إنتهى باعترافهم للقرشيين المهاجرين بحق الخلافة على أن تكون لهم الوزارة دون الخلافة وأن يكون منهم المستشارون للخليفة .

أما رأى العلويين ، الذين عُرفوا فيما بعد كفرقة سياسية ، باسم الشيعة ، أى أشياع على وآل بيت الرسول ، فقد كان مخالفاً لما رآه كل من المهاجرين والأنصار فى السقيفة واجتمعوا عليه ، فهم يرون أن علياً وآل البيت من أبنائه

وأحفاده من بعده ، هم أصحاب الحق فى الخلافة . وحجتهم فى ذلك ، أنهم أنصار آل البيت ، وهم يرون أن تكون الخلافة فى بيت النبى وأن لا تخرج أبداً عن هذا البيت ، لأن هذا البيت ، بانتمائه للنبى ، قد ورث قيادة الدين والدنيا . وقد قالوا أن أقرب الناس إلــى النبى هو عمه العباس وإبن عمه على بن أبى طالب ، لكن العباس ، فى نظرهم ، لم يكن من السابقين فى الإسلام ولم يسلم إلا عند فتح مكة ، وقد حارب فى معركة بدر فى صفوف المشركين ، لذا ، ففى نظرهم ، أن علياً يفضله فى أمر الدين لأنه لم يسجد لصنم قط ، وهو أول مــن أسلم من الصبيان وهــو فى بيت الرسول ، وهو زوج فاطمة إبنته ووالد أحفاده ، وجهاده وفضلــه وعلمه لا ينكر . فهم يرون أن علياً أحق بالخلافة بعد رسول الله ، وهو نظر بعضهم ، يفضل فى ذلك كل من أبى بكر وعمر ، وأن مــا حدث فى السقيفة منه إفتئات على حقه . وهم يرون أيضاً ، إن من بعد علىّ ، تكون الخلافة وراثية فى أولاده وأحفاده . ويعتقد الشيعة أن النبى عينّ علياً خليفةً له تصريحاً وتلميحاً . أما تصريحاً : فاستندوا فى ذلك على حديث غدير خم ودعاء « وال من والاه » ، حيث ورد قوله ﷺ لعلى لما خرج لغزوة تبوك واستخلف علياً وراءه : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبى بعدى » ، « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره وأخذل من خذله » . أما تلميحاً ، وهو استخلافه له حين خرج إلى تبوك ، وأن الرسول أمّر فى كثير من البعوث أناساً على أبى بكر وعمر وغيرهما من الصحابة ، لكن لم يؤمر على علىّ أحداً قط . وقالوا : أن حقه فى الخلافة بعد الرسول واضح ، وتعدى عليه أبو بكر واقتعد فى غير موضعه ، ثم خلفه فى التعدى عمر ، ثم رجا أن يوفق عمر للرجوع إلى الحق فأبهم الحال وجعلها شورى قصراً للخلاف للذين سمع من النبى ﷺ ، ثم تحيَّل ابن عوف حتى ردها عنه إلى عثمان ، ثم

قتل عثمان لتسوره على الخلافة وعلى أحكام الشريعة وصار الأمر إلى على بالحق الإلهى النبوى ، فنازعه من عاقده وخالف عليه من بايعه ونقص عهده من شده » . ويجعل الشيعة للإمام صفات دينية متفردة ، فهو مستودع العلم الشرعى ، وهو وحده الذى يفهم القرآن والسنة وله الحق وحدة فى تفسيرهما ، لذا لقبوا الخليفة بالإمام باعتباره قدوتهم ومثلهم الأعلى .

أما رأى الخوارج فى الخلافة ، فهم يرون أن تكون بإختيار حر من المسلمين ولا يشترطون أن يكون الخليفة عربياً ولاقرشياً ولا أبيض ولا أسود وإذا أختير أحد خليفة لا يصح له أن يتنازل عن الحكم ، ووجب على الجماعة الإسلامية عزله إذا هو لم يخضع خضوعاً تاماً وينفذ تنفيذاً تاماً لما أمر الله . وقد قال الخوارج بصحة خلافة أبى بكر وعمر ، وصحة خلافة عثمان فى سنى حكمه الأولى ، وصحة خلافه على حتى قبوله التحكيم ، وبعدم صحة خلافة الأمويين .

أما رأى المرجئة ، وهى الطائفة السياسية الدينية التى ظهرت فى دمشق عاصمة الأمويين ، والتى كان شعارها إرجاء الحكم على العصاة المسلمين إلى يوم البعث وعدم إدانة أى مسلم مهما كانت الذنوب التى اقترفها ما دام قد اعتنق الإسلام ونطق بالشهادتين ، فقد إرتضوا حكم بنى أمية ، على إعتبار أنه الحكم الذى إرتضاه غالبية المسلمين وتصالحوا عليه .

أما عن المعتزلة (القدرية) ، فبرغم أنها إبتدأت مذ نشأتها طائفة دينية لا دخل لها فى السياسة على عكس ما كان على الشيعة والخوارج والمرجئة ، إلا أنها لم تلبث أن خاضت غمارا لسياسة فتكلمت فى الإمامة وشرط الإمام ، وقد قالوا بضرورة وجود إمام فى كل عصر ووجوب عصمة ذلك الإمام عن الخطأ . ويتفق المعتزلة مع الخوارج فى القول بأن الإمامة تجوز فى قريش وفى غيرهم من الناس .

وكان لابد ، بطبيعة الحال ، للخليفة من حكومة تعاونه ، ولقد وجدت هذه الحكومة فى الدولة الإسلامية منذ أقام الرسول الدولة فى المدينة ، فلقد اتخذ الرسول ﷺ له أعواناً يؤدون وظائف الدولة . فكان له مجلس إستشارى من كبار الصحابة يؤدون عمل الوزارة ، وإن لم يكونوا يتسمون بالوزراء . وكان للرسول عدد من كتاب الوحى وكتاب الرسائل ، من أمثال : زيد بن ثابت وعلى بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان وأبى بن كعب والزبير بن العوام وغيرهم . وكان الرسول يتولى أمر القضاء ويفصل بين المتخاصمين ، لكن الرسول لم يكن يقوم بذلك فى كل الحالات والأوقات وفى كل أنحاء الدولة بعد إتساعها ، فكان ينيب عنه قضاة يحكمون بين الناس من كبار الصحابة أمثال على بن أبى طالب ومعاذ بن جبل .

أما الجيش فكان الرسول قائده العام ، وكان يقوده بنفسه فى الغزوات والمعارك الكبرى ، أما السرايا فكان يولى عليها بعض الصحابة . وكان الرسول يضع خطط القتال ويشرف بنفسه على الجند وسلاحهم ووسائل ركوبهم .

وكان الرسول ينيب عنه عمالا على القبائل وعلى المدن ، فكان عل كل مدينة كبيرة بالحجاز واليمن وعلى كل قبيلة كبيرة عامل من عماله . وكانت وظيفة هؤلاء العمال فى أعمالهم ، إمامة الناس فى الصلاة وجمع الصدقات إذ لم يكن هناك خراج ولا بيت مال .

وقد تكونت السلطة التنفيذية فى الحكومة الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين من الخليفة ، وهو رأس الدولة ، ومجلس من أهل الشورى من كبار الصحابة ، كان يجتمع فى المسجد الجامع ويتشاور مع الخليفة فى أمور المسلمين العامة . وقد كان بعض الصحابة يقوم بعمل الوزارة للخلفاء ، دون أن يتلقبوا

بهذا اللقب ، فكان عمر بن الخطاب وزيراً لأبى بكر ، وكذلك على وعثمان كانا وزيرين لعمر وكان مروان بن الحكم بمثابة الوزير للخليفة عثمان بن عفان . وفى العهد الأموى ، إستخدم خلفاء الأمويين رجالاً يقومون بعمل الوزراء ، ولكن لم يطلق عليهم أيضاً هذا اللقب . فلقد استخدم معاوية بن أبى سفيان زياداً بن أبى سفيان كوزير له ، كما استخدم عبد الملك بن مروان رجالات من ثقيف مثل الحجاج بن يوسف الثقفى كوزراء له .

وبالنسبة لإدارة الولايات زمن الراشدين ، نجد أن أبا بكر ، حين تولى الخلافة ، يقر عمال الرسول على ولاياتهم وأعمالهم . وكانت رقعة الدولة أيام خلافته ، القصيرة العمر ، لم تتجاوز حدود جزيرة العرب . وقد قسمت هذه الدولة إلى إثنتى عشرة ولاية ، أهمها : مكة ، والمدينة ، والطائف ، ونجد ، وحضرموت ، والبحرين ، واليمن . ولما إتسعت الدولة فى عهد عمر وإمتدت حدودها لتضم أقاليم كثيرة فى قارتى أسيا وأفريقية ، قام عمر بتقسيمها إلى أقسام إدارية كبرى عدة ، وهى : ولايات الحجاز ونجد وشبه الجزيرة ، وولايات فارس والعراق ، وولايات بلاد ما وراء النهر ، وولايات الشام ، وولايات مصر والمغرب . وقد قسم عمر ولايات فارس والعراق إلى ثلاثة أقسام جعل قسم خراسان عاصمته مرو ، وقسم العراق الشمالى وحاضرته الكوفة ، وقسم العراق الجنوبى وحاضرته البصرة . كذلك قسم ولايات الشام إلى قسمين ، قسماً جعل قاعدته حمص ، والقسم الثانى جعل قاعدته دمشق ، وجعل فلسطين قسماً مستقلاً بذاته . أما ولايات مصر والمغرب فقسمها إلى ثلاث ولايات : مصر العليا ، ومصر السفلى ، وغرب مصر وليبيا . وقد جعل عمر على كل ولاية والياً تشدد فى إختياره ، كما جعل إلى جانب كل والٍ فى ولايته عاملاً للخراج ، مسئولاً عن الأمور المالية ومستقلاً فى إدارته عن الوالى . وكان عمر فى كل موسم حج يجمع ولاته

وعمال خراجه ويقوم بمحاسبتهم اشد الحساب ومن كان يجد منه تقصيراً كان لا يتردد فى عزله على الفور . ولقد استمر هذا التقسيم الإدارى قائماً فى عهد خلافة عثمان وعلـى . أما فى عهد الأمويين ، وقد بلغت الدولة أقصى إتساع لها ، فقسمت الدولة إلى خمس ولايات كبرى ، هى : ولاية الحجاز واليمن ووسط شبه الجزيرة ، وولاية العراقيين العربى والعجمى ، وولاية بلاد الجزيرة ، وولاية مصر بقسميها ، وولاية افريقيا الشمالية ، غربى مصر وبلاد المغرب والأندلس وجزر البحر المتوسط ، وقاعدتها القيروان . وقد سار الأمويون ، على سياسة الخلفاء الراشدين، فى إختيار ولاتهم على هذه الولايات من العرب .

النظام الإداري :

تقسمت الإدارة ، داخل العاصمة المركزية فى الدولة العربية والإسلامية ، إلى ما عُرف بالدواوين ، وهى تقابل الآن الوزارات والمصالح الحكومية التى تتولى إدارة شئون الدولة الداخلية والخارجية . ولقد اختلف فى أصل كلمة دواوين ، التى مفردها : ديوان ، هل هى من أصل عربى أم فارسى ؟ . وقد قال بعض علماء اللغة ، ومنهم الأصمعى ، أن الكلمة كلمة فارسية معربة ، معناها : سجل أو دفتر ، وأطلق اسم الديوان ، من باب المجاز ، على المكان الذى تحفظ فيه السجلات الرسمية . والخليفة عمر بن الخطاب هو أول من أنشأ الدواوين فى الدولة الإسلامية ، نقلاً عن الفرس ، وذلك بسبب إتساع الدولة فى عهده وكثرة مواردها والحاجة لضبط هذه الموارد والاستفادة منها ، فأنشأ أول ما أنشأ ديوانى العطاء ، والجند . وقد جعل عمر لعموم المسلمين عطاءً ثابتاً من عائد أموال الفتوح والخير الذى تدفق على الدولة الإسلامية بسببها ، جعل إختصاصه ديوان العطاء . ولما عزم عمر تدوين الديوان فى المحرم سنة ٢٠هـ ، بدأ العطاء لبنى هاشم ، ثم الأقرب فالأقرب برسول الله ﷺ . فكان القوم إذا تساووا فى

القرابة قدم أهل السابقة فى الإسلام ثم إنتهى إلى الأنصار ، ثم لمن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار ، ولمهاجرة الحبشة ، ولمن شهد أحد ، ولأبناء شهداء بدر وأحد ، ولمن هاجر قبل الفتح ، ولمسلمة الفتح ، ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن وجهادهم .

أما ديوان الجند ، فقد رصده عمر ، لتسجيل أسماء الجنود وأسرهم ورصد أعطيات ثابتة لهم مقابل تفرغهم للقتال . وقد اقتصر الرصد فى هذا الديوان على الجند العرب فقط حتى سنة ٢١٨هـ ، وهى السنة التى أسقط فيها الخليفة العباسى المعتصم بالله الجند العرب من ديوانهم وأحل مكانهم الجند الأتراك . ولقد أستمر أمر هذين الديوانيين قائماً فى عهد خلافه عثمان وعلى .

أما فى العهد الأموى ، فقد زاد عليهما أربعة دواوين أخرى ، وهى :

ديوان الخاتم ، وديوان الخراج ، وديوان الرسائل ، وديوان المستغلات . أما ديوان الخاتم ، فقد أنشأه معاوية بن أبى سفيان ، وكان موظفوه يقومون بنسخ أوامر الدولة وإيداعها فيه ، بعد أن تحزم بخيط وتختم بالشمع ، ثم تختم بخاتم صاحب هذا الديوان أو رئيسه ، كما هو الحال اليوم فى قلم الأرشيف أو السجلات . ويرجع السبب فى إنشاء هذا الديوان إلى أن معاوية أحال رجلاً على زياد بن أبى سفيان ، عامله عل بلاد العراق ، بمائة ألف درهم ، فمضى ذلك الرجل وقرأ الكتاب على أن المبلغ مائتى ألف وليس مائة ألف . فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر هذا العدد وأكتشف تزوير الأعرابى ، فإستعاد منه المائة ألف ووضع ديوان الخاتم ، فصارت التوقيعات تصدر مختومة لا يعلم أحد ما تشتمل عليه ولا هو يستطيع أن يغيرها فى شئ .

أما ديوان الخراج ، فقد خصص لرصد الخراج المفروض على الأرض التى

فتحها المسلمون عنوة فى مختلف الأمصار ، وقد كان يشكل المصدر الرئيسى لميزانية الدولة . وكان هذا الديوان أشبه بوزارة المالية الآن حين توسع إختصاصه وصار يهتم بأمر الدخل والمنصرف من بيت المال . وقد كان يكتب فى هذا الديوان بالفارسية والرومية إلى عهد عبد الملك بن مروان ، الذى نقل ديوان فارس والشام إلى العربية ، ونقل إبنه الوليد ديوان مصر إلى العربية سنة ٨٥هـ .

أما ديوان الرسائل . فقد كان صاحبه يشرف على الرسائل التى ترد من الولاة ، أما ديوان المستغلات ، فقد كان ديواناً تجمع فيه الإيرادات المتنوعة .

وقد كان الخليفة فى عصر الراشدين والعصر الأموى يشرف إشرافاً مباشراً على هذه الدواوين ، وكان فى بعض الأحيان ينيب عنه أحد الأمراء أو أحد المقربين إليه للإشراف على ديوان منها أو على عدة دواوين .

ولقد اهتم حكام الدولة الأموية بالبريد ، وأول من إتخذه منهم الخليفة معاوية إبن أبى سفيان ، إقتداءً بما كان عند الفرس والروم . وفى عهد عبد الملك بن مروان أدخلت تحسينات كبيرة على نظام البريد فى الدولة الإسلامية ، فقد أنشأ هذا الخليفة مصلحة بريدية منظمة خدمة لموظفى الدولة وتسهيلاً لمراسلاتهم . أقامها على الأساس الذى وضعه معاوية ، وجعل عبد الملك منها شبكة محكمة تربط أجزاء الدولة المترامية الأطراف وتجمع شتاتها . فعمد تحقيقاً لهذه الغاية إلى إجراء الخيول بصورة منظمة ، فى مراحل متتابعة ، بين دمشق من جهة وقواعد الولايات من جهة أخرى . وأقام على البريد موظفين مسئولين ، كان من جملة ما ترتب على كل منهم أن ينهى إلى الخليفة كل ما يحدث فى منطقته من الأحداث الهامة . وكان عبد الملك يسمح بدخول صاحب البريد عليه فى أى ساعة كانت من ليل أو نهار . ولقد استفاد الوليد بن عبد الملك من هذا النظام

واستخدمه فى تنظيم أعمال البناء وتحقيق مشاريع العمران . وقد كان البريد فى العصر الأموى ، ينقل غالبيته ، عن طريق البر ، وكانت تخصص محطات على كل مرحلة من مراحله للبريديين وللدواب التى تنقلهم .

كذلك عرفت الدولة الإسلامية ، فى العصرين الراشدى والأموى ، نظام الشرطة . ويُقال أن أول من شرط الشرطة فى الإسلام عمرو بن العاص ، عندما ولى إمرة مصر الولاية الأولى له ، بينما يميل أكثر المؤرخين إلى القول بأن معاوية إبن أبى سفيان هو أول من إستعمل الشرطة . ولكن إذا إعتبرنا العسس ، وهو تفقد أحوال الرعية ليلاً وتتبع اللصوص وطلب أهل الفساد ممن يخشى شرهم ، أساساً لنظام الشرطة ، فإن تأسيس الشرطة يرجع بذلك إلى عهدى الشيخين أبى بكر وعمر . فقد ذكر بعض المؤرخين أن عبدالله بن مسعود ، الصحابى الجليل ، كان أميراً على العسس فى خلافة أبى بكر ، وأن الخليفة عمر بن الخطاب تولى بنفسه العسس ، وكان ، فى بعض الأحيان ، يصطحب معه فى ذلك الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف . ثم لمَّا تكاثر المفسدون وظهر أمرهم فى وضح النهار أنشأ الخلفاء الشرطة لحفظ الأمن والسهر على إستتبابه .

وكانت الشرطة ، فى أول الأمر ، تابعة للقضاء ومنفذة لأحكام القضاة ومساعدة لهم فى القبض على الجناة وإحضارهم أمام القاضى وإقامة الحدود عليهم ، ثم ما لبثت أن إستقلت الشرطة عن القضاء وإنفصلت عنه وذلك تنزيهاً للقضاء . وأصبح لصاحب الشرطة حق النظر فى الجرائم ، قبل عرضها على القاضى ، بعد أن كان عمله قاصراً على منع وقوع الجرائم والقبض على المجرمين . وكان الخليفة يُعين صاحب الشرطة ، أو رئيس الشرطة ، الذى كان بمثابة وزير الداخلية اليوم ، فى عاصمة الدولة . أما فى الأقاليم ، فكان كل أمير عليها يولى صاحب شرطة فى ولايته . وقد كان الخلفاء يتخيرون لمنصب

صاحب الشرطة كبار القواد وعظماء الخاصة ممن تتوفر فيهم شروط تولى هذا المنصب الخطير الذى يحتاج صاحبه إلى مواصفات خاصة تؤهله له . وكان صاحب الشرطة يشرف على السجون فى الدولة ، وقد ظهرت السجون فى الدولة الإسلامية منذ عهد عمر بن الخطاب . وقد تطورت هذه السجون فى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز ، الذى جعل لها ديواناً خاصاً ، عُرف بديوان السجون ، يشرف عليها ويتولى أمرها . وقد أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بحسن معاملة المساجين ، والفصل بين فئاتهم على حسب نوع جرائمهم ، وبتخصيص سجن مستقل للنساء . كذلك أمر العناية بمرضى السجون وكسوتهم فى الصيف والشتاء ، وأمر ألا يقيد المحابيس فى سجنهم حتى لا تعيقهم القيود عن أداء الصلاة .

النظام القضائي :

لقد أوجد الإسلام نظام القضاء مزوداً بكل ضمانات العدالة ، حرصاً منه على رفاهية المجتمع الإسلامى وأمن مواطنيه وسعادتهم ، ولقد احتكم المسلمون إلى الرسول وتقاضوا أمامه ، واعتبروا حكمه ملزماً ، وذلك تطبيقاً للآية الكريمة ، (٦٥) ، من سورة النساء فى قوله تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ . ولذلك يعتبر الرسول أو قاضٍ فى الإسلام . وكان عليه السلام يستمد أحكامه من كتاب الله ، فإن لم يجد ، فكان يستشير أصحابه ثم يقض برأيه مجتهداً فى حكمه . ولقد كان أساس التقاضى أمام الرسول : البينة على من إدعى واليمين على من أنكر . ولقد ولىَّ الرسول عدداً من الصحابة للقضاء فى البلاد وبين القبائل ، نيابةً عنه ، فولى على سبيل المثال ، علياً بن أبى طالب قضاء اليمن .

وقد طبق الخليفة عمر بن الخطاب النظام القضائى على نطاق العالم الإسلامى ، فعين قضاة ، ينوبون عنه ، فى الفصل بين الناس وفض مشاكلهم . ويوسع عمر دائرة القضاء لتغطى رقعة الدولة الإسلامية جميعها بعد إتساعها فى عهده ؛ فولى أبا الدرداء قضاء البصرة ، وعثمان بن قيس بن أبى العاص قضاء مصر ، وغيرهم . ويمتاز عهد عمر فى القضاء بذلك الكتاب المشهور الذى بعث به إلى أبى موسى الأشعرى ، حين ولاه قضاء البصرة ، والذى يعتبر بمثابة لائحة داخلية يعمل القضاة بها . وقد بيّن فى هذا الكتاب القواعد التى على القاضى ضرورة الارتكاز عليها حين يتصدر للقضاء . وقد ظل هذا الكتاب دستوراً للقضاء فى الإسلام سار على نهجه القضاة المسلمون عصوراً طويلة .

وقد كان القضاء ، فى عهد الراشدين ، مستقلاً ، محترم الجانب ، وكان الخلفاء يتشددون فى إختيار القضاة ممن عرفوا بالعلم والحزم والعدالة والنزاهة ولم يكن للقاضى كاتب أو سجل تدوّن فيه الأحكام ، ولم يكونوا فى حاجة إلى ذلك لأن الأحكام كانت فورية التنفيذ . وكان القاضى يجلس للقضاء فى المسجد بعد الصلاة . ولم يكن القضاة يتقاضون أجراً آنذاك وكانوا يحتسبون أجرهم عند الله على عملهم هذا ويعتبرونه عملاً يبتغون به وجه الله تعالى . وكانت لهم أعمالهم الأخرى التى كانوا يتكسبون منها لمعاشهم . ولقد إستمر إستقلال القضاء فى العهد الأموى ، ولم يتأثر بالسياسة كما لم يتدخل الحكام فى شئونه . فلم يتأثر القضاة فى ذلك العهد بميول الحكام ولم يخشوا سطوتهم ، وكانت كلمتهم نافذة حتى على الولاة وعمال الخراج والبيت الخلافى الحاكم . ولم يكن التشريع القضائى والأحكام ، فى العهد الأموى ، تتبع مذهباً معيناً ، وذلك لأن المذاهب الفقيهة الأربعة لم تكن قد ظهرت بعد ، وإنما كان هنالك أئمة كثيرون مجتهدون فى التشريع مثل الإمام الأوزاعى ،

وغيره . وكان خلفاء الأمويين يعينون القضاة فى العاصمة دمشق ، وكانوا يتركون أمر تعيين قضاة الأمصار لولاة الأمصار . وقد بدئ ، فى ذلك العهد ، بتسجيل الأحكام لإتساع الدولة وكثرة عدد القضايا وللحفاظ على حقوق الناس من الضياع . كذلك تفرغ القضاة لعمل القضاء ، وخصص خلفاء الأمويين رواتب ثابتة لهم نظير ذلك ، تكفى القاضى مؤنته وتمنعه من الرشوة أو النظر إلى ما فى أيدى الناس .

وبالنسبة لقضاء أهل الذمة ، فلقد كان الذميون يتقاضون وفق شرائعهم فى قضايـا الملة والميراث ، أما فى القضايا الجنائية فكانوا يتقاضون أمام المحاكم الإسلامية ، كذلك عند تقاضيهم مع المسلمين أو الدولة . وكان للذمى أن يستأنف حكم محكمته ، إن لم يرق له ، أمام قاضٍ مسلم . وكان القاضى المسلم يقض فى قضايا أهل الذمة على عتبة المسجد بعد صلاة العصر .

ولقد أرتبطت الحسبة بالنظام القضائى الإسلامى ، وكان صاحبها ومتولِ أمرها يُعرف بالمحتسب . وكانت وظيفة المحتسب تنحصر فى مراقبة أعمال السوق وما يجرى بداخله ، والمحافظة على النظام فيه وتحرى أمر نظافته ، ومراقبة الموازين والمكاييل والأسعار ، ومنع الغش فى السلع والمبيعات المعروضة فى السوق . ولقد انبثقت الحسبة من مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لذلك أضيفت للمحتسب مهمـة مراقبة الآداب والأخلاق العامة فـى السوق ومراقبة أداء العبادات داخلها . وهناك من يُرجع هذه الوظيفة ونشأتها فى دولة الإسلام إلى الرسول ﷺ ، ويُروى عنه أنه كان أول محتسب ، ذلك لأنه نهى عن الغش بقوله : « من غشنا فليس منا » ، كما يُروى عنه ، عليه السلام ، أنه ولىّ سعيداً إبن العاص على أمر السوق بعد فتح مكة . وكان الخليفة عمر بن الخطاب هو

أول من باشر وظيفة المحتسب من الخلفاء ، وحزى حزوه في ذلك الخلفاء الراشدون والأمويون . هذا وقد ظلت وظيفة الحسبة تعتمد على المجهودات الفرديـة للأشخاص ، ولم تُعتمد كوظيفة حكومية رسمية ، إلا فى العصر العباسى .

النظام المالي :

حدد الإسلم بعض موارد دخل الدولة الإسلامية ، وكانت هذه الموارد تجمع فى مكان يُعرف ببيت المال ، وهو أشبه بخزانة الدولة العامة ، أو وزارة المالية فى العصر الحاضر ، والخليفة عمر بن الخطاب هو أول من أنشأ بيت المال ، ولم يكن بيت المال قائماً أيام الرسول وأيام أبى بكر ؛ لأن موارد الدولة كانت أيامهما محدودة ، وكان يوزعانها فى حينها على مستلزماتها . فلما إتسعت الدولة فى عهد عمر وتدفقت الأموال على الحكومة الإسلامية ، إتخذ عمر بيت المال العام لتنظيم التعامل مع هذه الأموال وصرفها فى وجوهها السليمة . ولقد كان مقر بيت المال فى عاصمة الخلافة ، ويتفرع منه بيوت مال محلية فى الولايات . وكان بيت المال فى عهد الراشدين يعتبر ملكاً عاماً لكل المسلمين ، لكل منهم نصيب فيه . لكن خلفاء الأمويين ، ومن بعدهم العباسيين ، جعلوه ملكاً خاصاً لهم يتصرفون فيه كيف شاءوا . وقد تمثلت أهم موارد بيت مال الدولة الإسلامية ، فى عهد الراشدين والأمويين ، فى الخراج ، والجزية ، والزكاة ، والفيء ، والغنيمة .

أما الخراج ، فقد كا أقدم أنواع الضرائب لارتباطه بالأرض الزراعية ، عرفته الشعوب القديمة المختلفة ، وأقرته دولة الإسلام على وضع يتفق مع تعاليم الشريعة الإسلامية . والخراج فى الإسلام ، هو مقدار من المال أو الحاصلات الزراعية

يُفرض على نوعين من أنواع الأراضى ، أولها : الأراضى التى فتحها المسلمون عنوة ، أى بالحرب والقتال ، ويبقى على هذه الأرض أهلها يفلحونها على أن يدفعوا نصف ما تغله هذه الأرض عيناً أو محصولاً حسبما يقرر ولى الأمر . وثانيها : الأراضى التى صالح المسلمون أهلها وهم عليها على أن يؤدوا الخراج وتبقى فى أيديهم يتوارثونها وليس لأحد الحق فى انتزاعها منهم . وأرض الخراج تظل أرض خراج ولا يسقط الخراج عنها حتى ولو أسلم أهلها أو آلت إلى ملكية مسلمين . وكانت هنالك أراض لا تدفع الخراج وإنما تدفع العشر ، زكاة عنها ، وقد عُرفت لذلك بالأرض العشرية ، وهى على أنواع ثلاثة : الأرض التى أسلم أهلها وهم عليها دون حرب ولم تؤخذ عنوة ، والأرض التى جلا عنها أصحابها ، أو كل أرض لم يُعرف لها صاحب ووزعت على الفاتحين المسلمين ، والأرض البور (الموات) التى ملكها المسلمون عنوة ، ثم أحيوها باستصلاحها وزراعتها .

وقد كان ديوان الخراج الرئيسى فى العاصمة ، وكان فى كل ولاية من الولايات ديوان لجمع الخراج يتبع الديوان الرئيسى ، مهمتهم جمع الخراج من الأقاليم وإرسال الفائض من قيمته ، بعد تدبير احتياجات الولاية منه ، إلى ديوان الخراج الرئيسى وكان الخلفاء يدفعون من إيراد الخراج رواتب الجند ورواتب العمال والموظفين ويرسل الباقى منه إلى بيت المال ، فيصرف الخليفة منه مقررات قصر الخلافة ويصرف ما تبقى كلا فيما خصص له .

أما الزكاة ، فكانت ضريبة فرضها الإسلام على المسلمين ، وجعلها من فرائضه الأساسية الخمس . وكانت الدولة ، فى عهد الراشدين ، تتولى جمعها وصرفها على مستحقيها ، أما فى العصر الأموى فتركت الدولة أمر جمعها وإيتائها لضمائر الناس . ومصادر الزكاة أربعة : زكاة النقد ، وزكاة السوائم ،

وزكاة الزرع والثمار وزكاة المعدن . أما زكاة النقد فهى على المال سواء أكان سائلا أم بضاعة وسلعة أم دخل مستمر ، وقد قدرت قيمة هذا النوع من الزكاة بربع العشر فى العام ، على أن يصل المبلغ إلى النصاب المحدد وهو ٢٠٠ درهم وأن يمر عليه عام . أما زكاة السوائم ، فقد كانت تفرض على السائمة من الحيوانات من ماشية وأبقار وإبل وجاموس ، ولا زكاة فى الخيل والبغال والحمير إلا إذا كانت للتجارة ففيها زكاة التجارة . وتؤخذ عن الإبل والغنم عن كل مائة منها واحدة ، أما البقرة والجاموس ، فمن كل ٣٠ تبيع أو تبيعة (لم يوف العام) تؤخذ تبيعة أو تبيع ، ومن كل ٤٠ مسن أو مسنة (ما وفى سنتين) مسن أو مسنة . أما زكاة الزرع والثمار فحكمها العشر إذا كانت الأرض تسقى بالمطر أو السيح أو المياه الجارية ، ونصف العشر إذا كانت تسقى بواسطة مكلفة . أما زكاة المعدن ، وتعرف بالركاز ، وهى المعادن أو الكنوز المدفونة فى الأرض أو الصخور ، ويؤخذ عنها الخمس . أما الأحجار الكريمة فلا خمس عليها ولا زكاة . ولقد ورد فى القرآن الكريم ، فى الآية ٦٠ ، من سورة التوبة مصرف الزكاة ، فى قوله تعالى : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ .

أما الجزية ، فلم تكن من مستحدثات الإسلام ، بل فرضها اليونانيون على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد ، مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقيين ، ووضعها الرومان على الشعوب التى اخضعوها لحكمهم وعرفت عندهم بضريبة الرؤوس . كذلك كان الفرس يأخذون الجزية من رعاياهم وقد عرفت عندهم باسم : جيزيت ، وقد تكون هذه الكلمة دخلت العربية وصارت جزية . والجزية فى الإسلام مبلغ يدفعه أهل الذمة للدولة مقابل حمايتها لهم ، وهى تقابل الزكاة التى يدفعها المسلمون حتى يتساوى الفريقان

فى دفع إستحقاق الدولة من ضريبة . وتسقط الجزية عن الذمى باسلامه ، بخلاف الخراج ، وهى مفروضة على الذكور القادرين على دفعها ولا تؤخذ عن النساء ، أو الصبيان أو الشيوخ أو المقعدين والعميان أو الرهبان . قال تعالى فى الآية ٢٩ ، من سورة التوبة : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ . وقد قُدرت الجزية بأربعة دنانير فى العام على الذمى الغنى ، وديناران على المتوسط الحال ، ودينار واحد للفرد العادى .

أما الفئ ، فهو ما أفاء الله به على المسلمين دون قتال ، ويدخل فيه ما صولح عليه المسلمون من جزية وخراج ، ويقسم الفئ خمسة أسهم متساوية على مستحقيه ، حسبما ورد فى الآية ٧ ، من سورة الحشر ، من قوله تعالى : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ . وصار التقسيم كذلك حتى دوّن عمر الدواوين وعينّ أرزاق الناس وأعطياتهم فى ديوان العطاء ، فأصبح الفئ يوضع فى بيت المال ويُصرف منه على الأشغال العامة للدولة كالأعطيات والأرزاق وشحن الثغور وتزويد الجيوش بالرجال والعتاد والسلاح .

والغنيمة ، هى ما يغتنمه المسلمون فى الحرب من العدو بالقتال ويأخذونه منه عنوة ، وهو على أربعة أقسام : أسرى من الرجال وسبايا من النساء وأرض وأموال . وحكم توزيع الغنيمة فى الإسلام ، أن يوزع خمسها على مستحقى الفئ ، أما الأربعة أخماس الباقية فتوزع على المقاتلين . وكان نصيب الجند الفرسان ضعف نصيب الجند المشاة . وقد جاء توزيع الغنيمة وفقما ورد فى

الآية ٤١ ، من سورة الأنفال ، فى قوله تعالى : ﴿ واعلموا أنَّما غنمتم من شئ فلله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ .

وكانت هنالك ضرائب أخرى تُحصل وترد إلى بيت المال ، منها : أعشار السفن التجارية ، وهى تقابل ضريبة الجمارك الحالية ، وضريبة ما يخرج من البحر ، إضافة إلى أموال المواريث ، وهى الأموال التى يموت صاحبها دون أن يكون له وارث فتؤول تركته إلى بيت المال .

ولقد كان بيت المال يتولى أمر الصرف مما يرد إليه من دخل على نفقات الدولة ، مثل : ما يخص ديوان العطاء وديوان الجند من ، مخصصات ورواتب ودفع رواتب الولاة والعمال والقضاة والموظفين ، وصيانة مرافق الدولة وتسليح الجيش وتجهيز الأسطول وحماية الثغور والنفقة على السجون وعلى المؤسسات الإجتماعية ، إضافة إلى احتياجات قصور خلفاء الأمويين من نفقة ومصروفات .

وبخصوص العملة ، فإنه لم تكن للعرب عملة خاصة بهم ، قبل الإسلام ، وفى صدر الإسلام ، بل تعاملوا بالعملات الرومية والفارسية من دنانير ودراهم وفلوس نحاسية . ولقد أقر الرسول وأبو بكر نقود الجاهلية ، لكن عمراً وعثمان ، ضربا دراهم فضية ظلت تستخدم فى التعامل إلى جانب الدنانير الرومية والدراهم الفارسية . أما الدولة الأموية ، فقد إستمر الوضع فيها مثل السابق حتى عهد عبد الملك بن مروان ، الذى أمر بتعريب العملة ، وأوكل هذا الأمر إلى الحجاج بن يوسف الثقفى ، واليه على العراق . وقد قام الحجاج بالفعل بضرب دراهم ودنانير إسلامية فى أول دار ضرب إسلامية بالعراق . وقد أمر عبد الملك بالتعامل بهذه العملات العزبية الجديدة فى كل الأمصار الإسلامية دون العملات الأخرى ، وإستمر الحال على ذلك طوال العصر الأموى .

النظام العسكري :

كان القتال محرماً على الرسول قبل الهجرة لضعف المسلمين وقلة عددهم ، وفى المدينة ، بعد الهجرة ، أذن الله للمسلمين بالقتال دفاعاً عن دينهم ، ولتأمين الدعوة ورد الأمر إلى نصابه ، وفتح الفتوح لنشر دين الإسلام والقضاء على الوثنية فى العالم أجمع . وكان النبى هو القائد الأعلى للقوات الإسلامية ، فكان يقود المقاتلين المسلمين بنفسه فى المعارك والغزوات ، وكان يضع خطط القتال ، ويعين القادة الأكفاء على السرايا . وكان النسوة يشاركن الرجال فى الذهاب للحرب مع الجيوش ، وكان مكانهن فى مؤخرة الجيش وكن يقمن بالتمريض والإسعاف وخدمة الجرحى ، واعداد مؤنة الطعام والشراب للجيش ، وتحميس الجند على القتال ، وكان بعضهن يقاتل بالسلاح مثل الرجال .

وكان الذهاب للقتال فى عهد الرسول وأبى بكر تطوعاً ، لكن عمراً كان أول من جعل الجند فئة مخصوصة ، فأنشأ ديوان الجند ، وخصص فيه الجند المقاتلين الذين تفرغوا لأعمال الجندية نظير رواتب ثابتة تدفع لهم ولأسرهم تكفيهم معاشهم يحصلون عليها من ديوان الجند . وإلى عمر يرجع الفضل فى إقامة الحصون والمعسكرات الطويلة الدائمة لراحة الجنود فى أثناء الطريق ، بعد أن كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الإبل ولا يرتاحون إلا فى أكواخ مصنوعة من سقف النخيل ، ومن ثم بنيت العواصم وأقيمت الحصون والقلاع لصد هجمات الأعداء المباغتة .

ولقد أكمل الأمويون ما بدأه عمر فى نظام الجندية ، فأدخل عبد الملك بن مروان نظام التجنيد الإجبارى ، ونظّم الجيش تنظيما دقيقاً فى عهد هذا الخليفة

على يد قائده الكبير الحجاج بن يوسف الثقفى . وكان الجند فى عهد الرسول والراشدين والدولة الأموية من العرب ، وقد سمحت الدولة الأموية بتجنيد شعوب البلاد المفتوحة من فرس وترك للمشاركة فى الجهاد والفتح لبلاد ما وراء النهر ، كذلك سمحت للبربر ، بعد أن اعتنقوا الإسلام ، بالمشاركة مع الجيوش العربية الفاتحة لبلاد الأندلس ، وكان منهم القادة مثل طارق بن زياد .

ولقد قُسم الجيش الإسلامى إلى فرق ، وكانت الفرقة تتألف من عشرة آلاف مقاتل يُولى أميرٌ عليهم . وتنقسم الفرقة بدورها إلى عشر كتائب كل كتيبة بها ألف مقاتل عليهم قائد . وتنقسم الكتيبة إلى مائة فصيلة ، كل فصيلة تتكون من عشرة جنود عليهم عريف . وقد تكونت فرق الجيش الإسلامى من عناصر الفرسان ، والمشاة ، والكشافة ، والرماة ، والمنجنيقيين ، والنفاطين . وتعددت وتنوعت أسلحة هذا الجيش ما بين سيوف ورماح وحراب وسهام ودروع ودبابات ومنجنيقات وبارود .

كذلك اهتمت الدولة العربية الإسلامية بشأن الأسطول ، وخاصة فى العصر الأموى ، إبتداءً من عهد حكم معاوية بن أبى سفيان . وقد سار خلفاء الأمويين على سُنة معاوية من حيث الاهتمام ببناء الأسطول وتجهيزه للقيام بالحملات البحرية ، حتى نافسوا فى ذلك البيزنطيين وسيطروا على البحر المتوسط وجعلوه بحيرة عربية بعد أن كان بحيرة رومية .

كذلك إهتمت الدولة العربية الإسلامية ببناء السفن الحربية اللازمة لتكوين الأسطول ، وكانت لها ترسانتها (دار صناعتها) فى البحر المتوسط عند الشواطئ السورية والمصرية والمغربية . وقد تنوعت سفن الأسطول الإسلامى واختلفت أحجامها وأشكالها تبعاً للمهمات التى كانت تقوم بها ، وكان من بينها :

الشوانى ، والبوارج ، والقراقير ، والصنادل ، والطرادات ، والحراريق ، والعشاريات والسميريات ، والبطس ، والأغربة ، وغيرها . كما تعددت أسلحة الأسطول ، فإضافة إلى أسلحة الجند البرية التى كان يحملها المقاتلون على الأسطول ، كانت هنالك الأسلحة البحرية من كلاليب وباسليقيات والنار الأغريقية . ولقد خاض الأسطول الإسلامى معارك كبيرة ، وأحرز انتصارات حاسمة فى البحر المتوسط ، وشارك القوات الإسلامية البرية مرات عديدة فى محاصرة القسطنطينية ، عاصمة دولة الروم .

الحياة الإجتماعية :

إحتوى مجتمع الدولة العربية الإسلامية على عنصرين من عناصر السكان ، وهما : العنصر العربى وعنصر الموالى ، وهذان العنصران لم يعيشا منفصلين بل حدث الاختلاط والتمازج بينهما .

والعنصر العربى هو الذى كوّن الدولة ، وهو الذى كان له الحكم فيها ، وهو لها بمثابة العمود الفقرى للجسم ، وهو الذى حقق النصر وتوسع الدولة على حساب أكبر أمتين كانتا فى عصره ، وهما الفرس والروم . ولقد أعطاه هذا النصر نوعاً من الثقة والاعتداد بالنفس ، جعله ، فى ظل الإسلام ، يفتخر بأصله العربى . ولذلك إحتفظ العربى فى ظل دولته بالنزعة القبلية ، نزعة لقبيلته ، ونزعة للجنس العربى عامة . ولقد بارك الحكم الأموى هذه النزعة وقواها عند العرب ، لمّا صار العرب فى عهدهم حكام وقواد هذه الدولة . وقد قامت الدولة الأموية ، ومن خلالها استيقظت العصبية القبلية عند العرب فتعصب كل خليفة إما لليمينة أو للمضرية . مما أدى إلى إحياء الصراع العربى القديم بين هذين العنصرين فى الجاهلية .

وأخص ما نلاحظ فى هذا العصر ، عصر الدولة العربية الإسلامية ، هو إتصال العرب بغيرهـــم بالهجرة ، وإنتقال الموالـى والأسـرى إلـى البلاد العربية ومرابطة الجيوش الإسلامية بالثغور ، ثم تلقيد العرب للأمم التى غلبوها فـى بعض النظم السياسية والإدارية والاقتصادية . كل هذا من شأنه غيرٌ من طبيعة العربى شيئاً فشيئا حتى إذا قـــوى هـذا التغيير ظهرت آثاره فـى حياة العرب الاجتماعية عامـة . وأخذت هذه الآثار تظهر بحيث شعرنا بأن هنالك فروقاً بين هـــذا العصر وبين العصر الأول للاسلام حيث لم يكن هنالك ترف أو رفاهـية ، ولـم تكن الإدارة العربية قـــد تأثرت تأثيراً بعيداً بالإدارة الرومية فـى الشام والفارسية فـــى العراق ، ولم يكـن الاتجـاه للنقل والتمدن قـــد ظهر .

وعنصر الموالى ، يُطلق على الشعوب الغير عربية التى خضعت لحكم العرب من فرس وترك وبربر وقبط وروم وأرمن وغيرهم ، وقد تغلغل هؤلاء الموالى ، الذين أسلموا ، فى الحياة الإسلامية وشاركوا فى جميع مجالاتها . ولكنهم شاركوا على أنهم محكومون وليسوا حاكمين ، ولو أنهم كانوا يشعرون بينهم وبين أنفسهم أنهم أرقى من العرب ثقافة وأعرق حضارة . ولقد شارك هؤلاء الموالى العرب فى كل ما عمل على نهضة الدولة وتقدمها ، وتغلبوا عليهم فى أمور لم يكن العرب يحسنوها كأمور المال والزرع والصناعة . وقد تدخل هؤلاء الموالى فى الحياة الخاصة الدقيقة للحكام ، وامتلأ بهم البلاط الخلافى ، ونهضوا بالواجبات العسكرية نهوض العرب بها . ولقد حُرم هؤلاء الموالى فى العهد الراشدى والأموى من تولى الحكم ومناصب الدولة العليا وقيادة الجيش والقيد فى ديوان الجند ، الأمر الذى أدى بثورتهم على الحكومة الإسلامية وطلبهم مساواتهم بالعرب وإذا لاحظنا أن العرب كانوا قلة داخل الدولة الواسعة التى كونوها بعد الفتوح الإسلامية ، لذلك كانت مطالبة الموالى بالمساواة مع العرب ظلت تتزايد ،

الأمـر الذى جعلهم ينضموا للعناصر المعادية مثل جماعة الشيعة وجماعة الخوارج .

وفى الحقيقة إذا ناقشنا مسألة التفرقة فى المساواة بين العرب والموالى مناقشة موضوعية نجد أن هذه المسألة لم تكن فى كل أقاليم الدولة بشكل وقدر متشابه ، بل اختلفت من أقليم لآخر : ولقد تمثلت هذه التفرقة تماما فى العراق ، وذلك لكثرة عدد القوات العربية التى كانت ترابط هناك وبخاصة فى البصرة والكوفة ، معاقل الثورات ضد الأمويين . ولقد تجلت التفرقة داخل هذه القوات بين عرب اليمنية والعرب المضرية ، وهى من باب أولى تكون أشد ضد غير العرب . لكن هذا النوع من المعاملة فى الشام إختلف تماماً عما كان عليه فى العراق ، فالأمويون كان ينظرون لموالى الشام على أنهم أتباع لهم ولذلك كان لهم شئ من الامتياز والاعتبار وذلك لشدة إتصالهم بالخلفاء وكبار رجال الدولة . وكثير من موالى الشام كان يعمل فى الوظائف الهامة للدولة سياسية أو إدارية أو مالية أو عسكرية ، وقد كانت ثقة حكام الأمويين بهم ثقة كبيرة وزائدة . من أجل ذلك تميز وضع الموالـى فـى الشام عنه فى العراق . أما الموالى فى الحجاز فكان وضعهم أحسن مـن وضعهم فـى الشام وذلك لاعتمـاد الطبقة العربية المترفة التـى كانت تعيش هناك عليهم فى كل أمورهم ، وكانوا يعملون لحسابهـم فـى الزراعة والصناعة والتجارة ، وكان منهم المغنون والندماء والخدم الذين كانوا يشرفون على أمور تـرف هـذه الطبقة العربية المترفة . وفـى هـذه البيئة الحجازية بالذات ، كان الموالـى فـى الظاهر محكومين وفـى الحقيقة سادة وحكام ، وهم وإن كانـوا قـد أعتبروا فـى الظاهر طبقة من الدرجة الثانية إلا أنهم من الناحية العملية كانـوا طبقة من الدرجة الأولى ووصلوا إلى درجة التحكم فى سادتهم من العرب .

وإذا ما تركنا التقسيم لعناصر سكان المجتمع الإسلامى فى العهدين الراشدى والأموى ، وقسمنا المجتمع آنذاك تقسيماً رأسياً إلـى طبقات نجده ينقسم إلى الآتى : طبقة الحكام ، وطبقة العلماء والتجار ، وطبقة الحرفيين والصناع ، وعامة الشعب ، وطبقة الرقيق .

وتأتى طبقة الحكام على قمة هذا التقسيم الهرمى ، وهى الطبقة الخاصة التى تشمل الخلفاء والأمراء وأفراد البيت الخلافى والوزراء وكبار رجال الدولة ، وهـى تمثل الطبقة العليا فى الدولة التى نعمت بالحياة المترفة . ولقد إستفادت هـذه الطبقة من مكانتها الممتازة فى الدولة وعاشت فى ثراء ، وشيدت القصور الفخمة ، وكانت تعقد فى هذه القصور حفلات متعددة فى مناسبات كثيرة تمد فيها الموائد والأسمطة ، وبخاصة فى المناسبات الدينية . ووُجدت فى هذه القصـور مجالس الغناء والطرب ، كما وُجدت أيضاً مجالس العلم والوعظ والأدب . ولقد تطاولت بعض مصادر الشيعة والعباسيين على خلفاء بنى أمية ونسبت إل بعضهم شرب الخمر والتمادى فى شربه ، فنسبوا ذلك زوراً للخليفة يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك ، والوليد الثانى بن يزيد . وقد كان الأصفهانى صاحب كتاب الأغانى ، وهو الشيعى المتعصب من أكثر الكُتاب تحاملاً على خلفاء بنى أمية ، وعنه نقل الكثيرون فى الماضى والحاضر من أكاذيبه الشئ الكثير على خلفاء بنى أمية . ولا يحق لنا أن نصدق هذه الاتهامات لخلفاء هذه الدولة الذين أقاموا الدولة ونشروا الإسلام وسادوا العالم بايمانهم وإخلاصهم لدينهم وجهادهم فى سبيل الله .

ولقد إتصلت طبقة العلماء والتجار بطبقة الخاصة نظراً لارتباطها بطبقة الحكام . وكان من مآثر هذا العصر تشجيع العلم والعلماء والنهوض بالعلم

وتكريم العلماء ، لذلك عاش العلماء فى رغد العيش لما كان الحكام يغدقونه عليهم من أموال . وكان للعلماء تأثيرهم فى المجتمع من حيث الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومحاربة الفساد بكل أشكاله . ولقد مثلّ التجار أرستقراطية المال فى الدولة ، وكان بعضهم من العلماء . وارتبط كبار التجار بقصر الخلافة والحكام ورجال الدولة ارتباطاً مباشراً ، ولذلك جمعوا ثروات طائلة .

أما الحرفيون والصناع فقد كانوا يؤلفون فئة نشطة فى المجتمع الإسلامى ، وكانوا ينتمون إلى عناصر وطوائف ومذاهب مختلفة . ولقد تكفل أصحاب كل حرفة بتنظيم مصالحهم المشتركة . وكان الحرفيون والصناع يشكلون الطبقة المتوسطة التى سكنت المدن وكانت تميل إلى العامة فى ثوراتهم ضد الحكم . وكان أرباب كل حرفة أو صنعة يسكنون فى حى خاص بهم يسمى باسمهم ، وقد أرتبطت هذه الطبقة مع بعضها البعض برابط المصاهرة .

أما طبقة العامة ، فهم يمثلون عامة الشعب ، وينضم تحت لوائها الفلاحين والعمال والأجراء وصغار الحرفيين ، وقد كانت هذه الطبقة تعيش فى مستوى اقتصادى متواضع ، لذلك كانوا ينضمون ، دون تردد ، لأى حركات ثورية يقوم بها الشيعة أو الخوارج أو أى متمرد على الدولة . وكانت الدولة تتملقهم فى بعض الأحيان وتنعم عليهم ببعض الانعامات ، إتقاءً لشرهم ، وبخاصة فى المناسبات العامة والاحتفالات الدينية .

وتأتى طبقة الرقيق فى آخر درجات السلم الاجتماعى للدولة العربية الإسلامية وكلمة رقيق تطلق على كل من فقد حريته بين الناس وأصبح ملكاً لغيره ، وقد أطلق العرب على المسترق الأبيض من الرجال مملوكاً والأسود عبداً ، والنساء البيض جوارى والسود إماء .

وتقضى تعاليم الإسلام ، بأن سبب الرق هو وقوع الكافر أسيراً فى يد المسلمين عند الحرب ، فإذا حارب المسلمون الكافرين فمن أُسر من محاربيهم جاز للإمام أن يسترقه ، كما يجوز له أن يسترق أهل البلد الذى فُتح عنوة فى الحرب رجالاً كانوا أو نساءً ، وهذا الكفر والوقوع فى الأسر هما سبب الرق . ولا يشترط لأجل بقاء الرق بقاء سببه ، فلو وقع كافر فى الأسر فأسترق ثم أسلم لا يزول عنه الرق . وكانت الحروب فى صدر الإسلام دائمة ، والنصر فيها مستمر متلاحق والأمم المغلوبة كثيرة ؛ من أجل ذلك إزداد عدد الرقيق فى الدولة الإسلامية وتنوع . وبهذه الطريقة انتشر الرقيق بين المحاربين ودخل بيت كل منهم . ذلك بالإضافة إلى ما كان يرد من رقيق على الدولة الإسلامية من أسواق الرقيق العالمية .

ولقد أحل الإسلام للرجل ملك اليمين ، أى ملكية الرجل للجارية أو الأمة وأن يتخذها زوجةً له ، وبأى عدد كان منهن بخلاف الحرائر اللائى حددهن الإسلام بأربع . من أجل ذلك كان ، غالباً ما يكون فى البيت الإسلامى زوجة واحدة حرة أو عدد منهن من الحرائر لا يزدن عن الأربعة ، وإلى جانبهن عدد من الجوارى والإماء يتسراهن رب البيت ، وكثيراً ما كان الخلاف يقع بين الحرائر والجوارى ، ولذلك ذهب بعض اللغويين إلى تسمية الجوارى بالسرارى ، وهى منسوبة إلى السر والاخفاء ، لأن الرجل كثيراً ما كان يتسرى الجوارى ويبعدهن عن حريمه الحرائر . وهذا الرقيق من رجال ونساء لا يسترد حريته إلا بأن يعتقه مالكه سواء أكان شخصاً أم قبيلة ، وإذا ما أعتنق يُعرف بأنه مولى هذا الشخص أو القبيلة التى اعتقته . فمثلا كان يقول لبلال بن رباح ، مولى أبى بكر لأن أبا بكر اشتراه من سيده أمية بن خلف ثم أعتقه . وإذا ما ولدت الأمة من سيدها ، سميت : أم ولد ، وتبقى حلاً لمالكها حتى يموت ، فإذا ما مات

تصير حرة تجرى عليها أحكام الحرائر ، أما الأبناء الذين تلدهم فيولدوا أحراراً ذكوراً كانوا أم إناثاً . هـذا ولقد قام الرقيق على إختلاف أنواعه بأعمال كثيرة فى الدولة الإسلامية ، وشاركوا فى الحياة السياسية والاجتماعية ، وكان لهم دور مؤثر داخل المجتمع الإسلامى

ومـن ناحية التقسيم الدينى فى المجتمع الإسلامى ، نجد أن غالبية هذا المجتمع كان من المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام سواء فى الجزيرة العربية أو فى الأمصار المفتوحة من مختلف شعوب الدولة الإسلامية ، ولم يكن فى هذا المجتمع وثنيون أو عبدة أوثان وأصنام لأن الإسلام أعلنها حرباً شعواء على الوثنية والشرك بالله . أما أهل الكتاب فكانوا يعرفوا بالذميين ، أو أهل الذمة ، والذمة فى اللغة ، هى العهد والأمان والضمان ، وأهل الذمة هم المستوطنون فى بلاد الإسلام مـن أهل الكتاب مـن يهود ونصارى . وقـد أُلحق بهم ، فـى زمن عمر بن الخطاب ، المجوس (الزرادشتيون)، على إعتبار أنه كان لهم كتاب وأضاعوه .

ولقد كفلت العهود التى أعطاها الرسول لليهود والنصارى ، والتى أعطاها عمر للمجوس حقوق أهل الذمة ، وتتلخص فى أن للذميين حق الأمان فى الدولة الإسلامية على نفوسهم أموالهم ، وحق الحماية لمعتقداتهم وممارسة شعائرهم الدينية ، وحماية دور عباداتهم ، وحق ممارسة الأعمال المدنية المختلفة . إلا أنهم مقيدون فى تغيير الدين ، فلا تغيير فى الدين إلا للدخول فى الإسلام ، ولا يسمح بزواج المسلمة من الكتابى ويسمح للمسلم بالزواج من الكتابية ، ولا يسمح أيضاً بتوارث أهل ملتين من أهل الكتاب . أما الواجبات المفروضة على أهل الذمة ، فتنحصر فى دفعهم الجزية ، وعدم التآمر على المسلمين والتحالف

ضدهم مع عدوهم ، وعدم فتن المسلم فى دينه وقطع الطريق عليه أو قتله ، وعدم التعرض لكتاب الله ولنبيه أو للإسلام بما لا ينبغى . ولقد كان لأهل الذمة رؤساؤهم الذين يقضون بينهم ويعلمونهم أصول دينهم ويمثلونهم أمام الحاكم . فكان رئيس النصارى اليعاقبة هو البطريق ، ورئيس النصارى النساطرة ، هو الجاثليق النسطورى . كذلك كان لليهود رئيسان ، أحدهما رئيس دينى والآخر رئيس مدنى ، والرئيس الدينى هو الجاعون ، والرئيس المدنى هو راس الجالوت ، أى رئيس الجالية اليهودية .

ولقد استخدمت الدولة العربية الإسلامية أهل الذمة فى كثير من الوظائف المدنية ، وبخاصة الوظائف الإدارية والمالية وأعمال النقل والترجمة والطب ... وقد تخصص أهل الذمة فى بعض الأعمال داخل المجتمع الإسلامى ، فعملوا فى الزراعة ، وتخصصوا فى بعض الحرف مثل النسيج والصباغة والدباغة وأعمال الصيرفة .

أما عن الحياة فى المدن الإسلامية ، فنجد أن الحياة المادية للعرب قد أخذت فى التطور عند سكناهم المدن ، وتباعد ما بينها وبين الجيل الماضى . فالعرب الأوائل كانوا أقرب إلى البساطة فى حياتهم منها إلى التعقيد . وكان العصر الأموى عصر صراع بين حياة البداوة الأولى الجافة وحياة المدنية الناعمة المترفة . وفى المدن أقام العرب فى أحياء خاصة مختلفة تبعاً لرابطتهم القبلية ، وكان الذين رغبوا منهم فى الزراعة عدد قليل ، ولذلك غلب عليهم التجمع فى المدن . وكان بعض العرب ، وبخاصة البدو ، قد تسللوا إلى الأرياف فسكنوها وأنشأوا فيها القرى ، ونشأت هذه القرى حول منابع المياه ، وأُعتبر فى إختيار مواقعها سهولة الدفاع وخصوبة التربة . ولقد ظهر التغير واضحاً على العربى المسلم

ساكن المدينة فى معظم الأمور المادية من ملبس ومأكل ومسكن ووسائل نقل ووسائل تسلية واستمتاع ، ولم يقتصر الأمر على الناحية المادية بل تعداه إلى الناحية العقلية ، فما كان يعرفه العربى فى البادية صار خلاف ما عرفه فى المدينة . ففى الطعام والشراب ظهرت أنواع جديدة من الأطعمة والأشربة الفارسية التى لم يعرفها العرب الأوائل ، أما المسكن فقد شهدت هذه المدن المبانى الضخمة والقصور الواسعة المحاطة بالحدائق الغناء ، وبخاصة قصور الخلفاء والأمراء . وتعددت أنواع الملابس وتنوعت فى المدن بالنسبة للجنسين ، بما كان يصنع من أنواع مختلفة منها من الحرير والقطن والكتان فى دور الطراز . وفى الحفلات والأعياد ، تجلت مظاهر الاحتفال بعيدى الفطر والأضحى ، فضلا عن الاحتفال بالأعياد القومية وأعياد أهل الذمة وظهرت أنواع التسلية المختلفة فى المجتمع الإسلامى ، وكان منها الخاص والعام ، كالنرد والشطرنج واللعب بالكرة والصولجان والرمى بالنشاب والصيد والسباحة والسباق بأنواعه المختلفة .

أما عن دمشق ، عاصمة الدولة الأموية ، فهى ذات دمشق الموجودة الآن ، لم تتغير كثيراً ، فى مظاهرها الخارجية ، ومناهج الحياة فيها ، منذ عهد الأمويين . فقد كانت آنئذ ، مثلها اليوم ، ذات دروب ضيقة مسقوفة ، فيها الشامى بسراويله الفضفاضة وعمامته الكبيرة ، يسير جنباً إلى جنب مع البدوى الذى لفحته الشمس والتف بعباءة متهدلة وستر رأسه بكوفية وعقال . وتعبر الطريق بضع نساء محجبات ويسترق غيرهن النظر من نوافذ مشبكه فى بيوتهن التى تشرف على الأسواق والساحات العامة . وكانت العاصمة مقسمة إلى حارات وأحياء لازالت باقية حتى اليوم ، وكان لكل بيت باب على الشارع يؤدى إلى بهو داخلى يتوسطه حوض ماء كبير ، فيه نافورة ينطلق منها الماء فى الفضاء ، وقد نبتت إلى جانبه شجرة برتقال أو ليمون . والأمويون هم أصحاب الفضل فى

تجهيز دمشق بنظام لتوزيع المياه منقطع النظير فى ذلك العهد ، لا يزال مألوفاً إلى اليوم . ولا يزال اسم الخليفة يزيد الأول بن معاوية ، يُطلق على قناة متصلة بنهر بردى ، كان هو الذى شقها . أما الحدائق الغناء التى تحيط بالمدينة (الغوطة) ، فهى مدينة بوجودها لنهر بردى الذى تجرى منه المياه فى قنوات أخرى إلى أنحاء المدينة لتبعث فيها النضارة والخصب . ولا يزال فى دمشق إلى اليوم نحو ستين حماماً عاماً ، بعضها مزدان بالفسيفساء والبلاط المزخرف ، وكلها تشهد بغزارة المياه فى المدينة وإحكام توزيعها ، وكلها يرجع تاريخها أيضاً إلى العصر الأموى .

الحياة الاقتصادية :

تشتمل الحياة الاقتصادية فى أى دولة على نواحى أحوال الزراعة والصناعة والتجارة ، وقد راجت الحياة الاقتصادية فى الدولة الإسلامية نتيجة تقدم زراعتها وصناعتها واتساع نطاق تجارتها فى الداخل والخارج .

وكانت الزراعة هى الحرفة الرئيسية فى الدولة بسبب ما ضمته بين جنباتها من أقاليم زراعية هى أقاليم الشام والعراق وفارس وبلاد ما وراء النهر ومصر والمغرب والأندلس . ولقد تأثرت هذه البلاد ، فى بادئ الأمر ، بهجرة العرب البدو إليها واستقرار أعداد كبيرة منهم بينها . وكان هؤلاء البدو لا يحترفون الزراعة ولا يجيدونها ، فقل إنتاج الأرض من المحاصيل ، فى بادئ الأمر ، وكان لهجرة عدد كبير من مزراعى الأراضى المفتوحة وتركهم أرضهم الزراعية وخلو هذه الأرض من العاملين بها بسبب هروبهم أو موت بعضهم فى الحروب ، الأثر الأكبر فى ضعف أحوال الزراعة فى البلاد المفتوحة فى فترة الفتوح . لكن لمَّا استقرت الأحوال فى تلك البلاد ، وأمن الناس على أنفسهم فى ظل الحكم الجديد ، وعرفوا عدالته ونزاهته ، عاد المزارعون إلى أراضيهم واستقرت أحوال الزراعة ،

بسبب عناية الدولة لها ورعايتها وتشجيع المزارعين على الإنتاج ، فعادت الأرض تنتج ما كانت تنتجه من حاصلات ، بل إن كميات هذه الحاصلات زادت وتضاعفت فى ظل الأمن والأمان الذى وفره الحكم الجديد .

ولقد تقسمت الأرض الزراعية فى البلاد المفتوحة إلى ثلاثة أنواع : أرض خراج ، وأرض عشرية ، وأرض وقف أو حبوس . وأرض الخراج يزرعها صاحبها على أن يأخذ نصف ريعها ويقدم للدولة النصف الآخر ، وذلك وفقما صالح الرسول ﷺ يهود خيبر . أما الأرض العشرية ، فهى الأرض التى يدفع أصحابها عشر إنتاجها ضريبة زكاة . وأرض الحبوس ، هى الأرض الموقوفة ، أو المحبوسة على عمل من أعمال الخير ، فهذه الأراضى تُزرع وتصرف أموال ريعها على ما وقفت عليه . ولقد كان خراج الأرض الزراعية يشكل الدخل الرئيسى لبيت المال فى عهد الراشدين والعهد الأموى . وكانت منطقة السواد بالعراق من أكثر المناطق خراجا لما كانت تتمتع به أرض هذه المنطقة من خصوبة وكثرة إنتاج .

ولنهوض الزراعة ، عمل الخلفاء الأمويون ، على نشر الأمن وتأمين الطرق فى البلاد ، وقاموا بتنفيذ المشروعات التى تساعد على تقدم الزراعة ، مستفيدين فى ذلك من خبرات الفرس والمصريين واليمنيين فى الزراعة . فقاموا بتنظيم الرى وتيسيره للمزارعين وبخاصة فى بلاد فارس والعراق . كما شقوا الترع والقنوات وأقاموا القناطر والسدود وبنوا الجسور ، وحفروا الآبار ، ورفعوا الماء إلى الأراضى المرتفعة بواسطة النواعير .

وقد قام العرب بتطوير زراعة بعض المحاصيل ومنها القطن وقصب السكر لحاجة الدولة لهما . كذلك نقلوا إلى الأقاليم الغربية فى الدولة زراعة بعض حاصلات لم يكونوا يعرفون زراعتها ، مثل البرتقال ، وقد لقى الإهتمام بزراعة

القمح والشعير عناية خاصة من المسئولين فى الدولة ، وذلك لإعتماد الناس عليهما كغذاء أساسى لهم ولدوابهم . كذلك برع العرب فى زراعة النخيل فى الأمصار المفتوحة ، ونقلوا زراعتها حتى وصلت إلى الأندلس . وكان اهتمام خلفاء الدولة عظيماً بزراعة المواد الخام اللازمة للصناعة ، مثل القطن والكتان والقصب والسمسم والعنب والزهور ونباتات الصباغة .

هذا عن الزراعة ، أما عن الحرف والصناعات ، فقد تقدمت فى العالم الإسلامى ، بسبب تكامله العمرانى الحضارى ، كما يقول إبن خلدون . ولقد تعددت الحرف والصناعات فى بلدان العالم الإسلامى بسبب توافر العوامل التى تساعد على قيامها ، من وفرة ثروة معدنية ومواد خام ، ووفرة الأيدى العاملة الرخيصة ، وسهولة تصريف المنتجات الصناعية فى أسواق الدولة الداخلية والأسواق الخارجية . ولم تقتصر الصناعات فى العالم الإسلامى على الصناعات اليدوية الدقيقة والصغيرة التى إشتهر بها الصانع اليدوى المسلم ، وإنما شملت أيضاً الصناعات الثقيلة مثل الأبواب الحديدية الضخمة والأوانى النحاسية الكبيرة والأسلحة الخفيفة والثقيلة ما يلزم الجيش والأسطول . ولقد انتشرت دور الصناعة فى المدن الإسلامية المختلفة ، كذلك انتشرت فى موانيها وثغورها دور صناعة السفن .

أما أصحاب الحرف من زجاجين ونساجين وحرايريين وقفاصين وحلوانيين وغيرهم ، فقد كان لكل حرفة منها سوق خاص فى المدن الإسلامية ، عُرفت به فى نطاق سوق المدينة الكبيرة .

ومن الصناعات التى إزدهرت فى العصر الأموى : صناعة الزجاج والخزف ، وخصوصاً فى الشام ومصر ، وقد كان أهل هذه الصناعة فينيقياً ورثها المسلمون

السوريون والمصريون عنهم . وكانت مصنوعات مدينة حلب الزجاجية ، منذ بداية القرن الثانى الهجرى ، صناعة زائدة القيمة على المستوى العالمى . وكانت دمشق تصنع الزجاج المذهب والفسطاط تُصنع الأقداح الزجاجية المذهبة . كذلك تقدمت صناعة الأوانى والأكواب الخزفية فى بغداد والفسطاط ودمشق وغرناطة بالأندلس ، وعرف المسلمون صناعة أنواع كثيرة من الخزف من فخار وقاشانى وفسيفساء .

كذلك تقدمت صناعة المنسوجات المختلفة فى سائر بلاد العالم الإسلامى وخصوصاً فى مصر وفارس والعراق ، وصارت للنسيج الإسلامى شهرة عالمية فى العصور الوسطى وقد بلغت قيمة قطعة نسيج من الكتان المصنع فى مدينة تنيس المصرية مائة دينار ، وهو مبلغ لم تصله أى قطعة نسيج فى العالم آنذاك . وقد اشتهرت هذه المدينة أيضاً بصنع القصب الملون ، والبوقلمون ، وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار . وكانت مدينة كازرون ببلاد فارس من أهم مراكز النسيج هناك . وقد ازدهرت صناعة المنسوجات الحريرية فى بلاد فارس ، فى أقليم خوزستان ، وفى مدينة تستر ، وفى منطقة طبرستان . وكان يصنع فى دمشق نوع من الحرير عُرف بالدمشقى ، وعرفته أوربا باسم الدمقس . واشتهرت بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر بصنع أجود أنواع البسط والسجاجيد ، وبخاصة مدن شيراز وأصفهان .

ومن الصناعات التى تقدمت عند العرب فى دولتهم الإسلامية ، صناعة الورق ، ويُقال أن مصانع الورق بدأت فى سمرقند بعد أن فتحها المسلمون سنة ٩٤هـ ، ومنها إنتقلت صناعته إلى شرق العالم الإسلامى . ثم أخذت مصانع الورق ، المصنوع من الكتان ، والمعروف بالكاغد ، تنتشر فى سائر أمصار الدولة

الإسلامية . ومن الصناعات التى تقدمت عندهم أيضاً : الصّناعات المعدنية ، والخشبية ، والكيميائية ، وصناعة العطور .

ولقد أدى التكامل الاقتصادى فى الدولة الإسلامية إلى إزدهار التجارة فى الداخل والخارج . وبخصوص التجارة الداخلية فقد لعبت الأسواق دوراً كبيراً فى نشاطها ، وكان العرب قد عرفوا كثيراً من الأسواق فى الجاهلية والاسلام . وكانت السوق مركز البيع والشراء وميدان تصريف الإنتاج الزراعى والصناعى للدولة . وقد كانت الأسواق الإسلامية تحت إشراف المحتسب الذى يراقب عمليات البيع والشراء ومنع الغش والتلاعب والاحتكار . وكان فى السوق ، على أرباب كل حرفه وصنعة من الصنائع ، عريف من أهلها يتولى أمرهم . كذلك كان يوجد الصيارفة فى السوق لتسهيل التعاملات المالية بداخلها . وتعددت الأوزان والمكاييل بداخل الأسواق ، واختلفت أعيرتها ، رغم وحدتها فى الاسم ، بين مختلف مناطق الدولة والعهود المتعاقبة .

أما التجارة الخارجية ، فلقد إزدهرت هذه التجارة بعد تمام حركة الفتوح الإسلامية ، وقد أتقن العرب التجارة الخارجية علماً وعملاً ، وقد دفعتهم كثرة الأرباح إلى أن يطوفوا البلاد ويغامروا بقوة ويكونوا رواد العالم الأول فى التجارة براً وبحراً . وقد عرفوا سواحل إفريقية الشرقية ومناطقها الوسطى النائية والهند والصين وجزر الهند الشرقية وسيطرت سفنهم التجارية على التجارة فى البحر المتوسط وفى المحيط الهندى . وقد جلب التجار العرب من هذه البلاد البعيدة : حاصلات الشرق الغنية من توابل وعطور وبخور وعقاقير وأحجار كريمة وبسط وسجاجيد ، وجمعوا من ورائها الثروات الطائلة . وازدهرت تبعاً لازدهار التجارة الخارجية الموانى الإسلامية على البحرين المتوسط والأحمر ، مثل ميناء القلزم وجدة وعدن على البحر الأحمر وميناء الإسكندرية واللاذقية وصور وصيدا على البحر المتوسط .

الحياة الثقافية :

دعى الإسلام إلى العلم ، وحض القرآن على ضرورة التعلم ، وكانت أول سوره ، وهى سورة العلق ، تدعو أياتها إلى ذلك ، فى قوله تعالى : ﴿ إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ . كذلك خصت أيات أخرى فى سور أخرى على العلم والتعلم وأعلت من مكانة المتعلمين . وأيضاً حثت أحاديث رسول الله ﷺ على طلب العلم وجعله فريضة على كل مسلم . ومن المعروف أن الإسلام جاء وفى قريش سبع عشرة رجل فقط يعرفون القراءة والكتابة ، لذلك جعل رسول الله فى غزوة بدر فداء بعض الأسرى نظير تعليم الأسير القراءة والكتابة لعشرة من صبيان المسلمين بالمدينة .

ولقد بدأت حركة التعليم والتعلم فى الدولة الإسلامية منذ نشأتها ، وتطورت مراكز نقله من المسجد إلى الكتاتيب ثم المدارس والجامعات . وقد خرجت هذه المراكز العلمية جماعة من أعظم علماء المسلمين الذين علموا وتخرج على أيديهم عدد كبير من الفقهاء والأدباء وكبار المفكرين . وكانت عناية المسلمين فى صدر الإسلام مقصورة على العلوم الدينية والشرعية ، ولكن مع قيام الدولة الأموية أخذ الاهتمام يزداد بالعلوم الأخرى ، وقد بلغت الحركة العلمية ذروتها ، فى المجالين النقلى والعقلى ، فى العصر العباسى الأول .

ولقد كان العصر الأموى ، على وجه الاجمال ، بصدد الحياة الفكرية عصر تمخض واختمار . ذلك أن قربه من الجاهلين ، وتوالى الفتن وكثرة الحروب والانشغال الأكبر بمجال الجهاد والفتوح ، واضطراب الحالة الإقتصادية فى بعض فترات حكمه ، عملت جميعها على عرقلة ما من شأنه أن ينهض

بالحركة الفكرية ومع ذلك فقد كان هذا العهد الذى بذرت فيه البذور التى قدُر لها أن تنمو وتكبر وتبلغ غاية نضجها فى خلافة العباسيين .

ومن العلوم الدينية التى ازدهرت فى الدولة الإسلامية : علم تفسير القرآن وعلم الحديث ، وقد انقسم التفسير إلى قسمين : قسم عرف بالتفسير المنقول ، والقسم الثانى عُرف بتفسير الإجتهاد ، أو الرأى . ولذلك نرى الصحابة وكذلك التابعين من بعدهم ينقسمون بين هذين الفريقين . ومن أشهر رجال التفسير من الصحابة : على بن أبى طالب ، وعبد الله بن العباس ، وعبد الله بن مسعود ، وأُبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبى موسى الأشعرى ، وعبد الله بن الزبير . ومن أشهر المفسرين من التابعين مجاهد ، وعطاء بن أبى رباح ، وعكرمة مولى إبن العباس ، وسعيد بن جبير ، وغيرهم . ومن علماء الأجيال التالية : سفيان بن عيينه، ووكيع بن الجراح ، وغيرهما .

ولقد حظى علم الحديث ، وهو السنة ، باهتمام بالغ من علماء صدر الإسلام من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهما من علماء الحديث . وكان أكثر الصحابة رواية عن رسول الله ﷺ : أبو هريرة ، وعائشة أم المؤمنين ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن العباس . وكان لهؤلاء الصحابة تلاميذ يروون عنهم . هذا ولم يجمع الحديث فى عهد الرسول ولا فى عهد الراشدين كما حدث بالنسبة للقرآن ، وقد عرضت فكرة جمعه للخليفة عمر بن الخطاب لكنه عدل عنها خوفاً من وقوع اللبس بينه وبين القرآن ، وعرضت كذلك الفكرة للخليفة عمر بن عبد العزيز ، لكن قصر مدة خلافته لم تمكنه من ذلك . ومن أشهر المحدثين والفقهاء ، فى أوائل القرن الثانى الهجرى ، الحسن البصرى ، وابن شهاب الزهرى ، وابن شراحيل الشعبى .

والكتاب والسنة هما المصدران الأساسيان للتشريع الإسلامى ، ولقد واجه المسلمون مسائل كثيرة فى كل شأن من شئون الحياة ، بعد وفاة الرسول وانقطاع الوحى ، وكانت تحتاج إلى تشريع ، لم يكونوا فى حاجة له وهم فى جزيرة العرب ، فقد إتسعت الدولة وكثرت مشاكلها وتعددت أجناسها وتشعبت أمورها ، لذلك توصل علماء المسلمين إلى أصل آخر من أصول التشريع ، وهو التشريع بالاجتهاد والرأى والعمل بالقياس . وكان الخليفة عمر أظهر الصحابة فى إستعمال الرأى ، ذلك لبداية إتساع الدولة فى عهده ، ومواجهته لمسائل جديدة فى أمور السياسة والاقتصاد والعمران والمعاملات ، ويعتبر عمر مؤسساً لمدرسة الرأى والاجتهاد فى التشريع . ولقد انتشر أتباع هذه المدرسة وازداد فى القرنين الأول والثانى الهجريين ، وقد كان كثير من التابعين وتابعى التابعين من تلاميذ هذه المدرسة ، التى كان العراق أكبر موطن لها . وفى عهد الدولة الأموية ظهر أئمة التشريع المجتهدين ، الذين كان لهم إجتهادهم الخاص كالإمام الأوزاعى فى الشام . وفى أواخر عهد الدولة الأموية ظهر إثنان من إئمة تشريع أهل السنة الأربعة المعتمدين عند المسلمين ، وهما : الإمام أبو حنيفة النعمان فى العراق ، إمام الحنفية ، والإمام مالك بن أنس فى المدينة ، إمام المالكية .

وكان درس قواعد اللغة العربية من المهام الفكرية الأولى التى إضطلع بها العرب فى صدر الإسلام . وكان قد دعى إلى ذلك حاجة الداخلين الجدد فى الإسلام من شعوب الأمصار إلى تعلمها والحديث بها ، ورغبتهم فى قراءة القرآن وفهمه . كذلك حرصهم على تقلد الوظائف الحكومية التى كانت قصراً على من يجيد العربية ، وخصوصا بعد حركة التعريب للدواوين التى تمت فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان .

والجدير بالذكر أن المحاولة الأولى لدرس اللغة العربية درساً علمياً بدأت فى البصرة . وقد اشتهر فى هذه المدينة العالم اللغوى الأول الشهير : أبو الأسود الدؤلى ، المتوفى سنة ٧٠ هـ ، الذى جعلته أخبار الرواة المنشئ للنحو العربى . ولو أن هنالك رواية تقول أن أبا الأسود الدؤلى قد نحي فى وضع قواعد اللغة العربية نحو على بن أبى طالب ، ومن أجل ذلك سمى ذلك العلم : نحواً . ولقد كان الخليل بن أحمد ، المتوفى سنة ١٧٠ هـ ، من أبرز علماء النحو ، هو وتلميذه سيبويه ، الذى ألف كتابه الشهير فى النحو والذى أسماه بالكتاب ، وكان الخليل بن أحمد قد تولى إصدار أول معجم فى اللغة العربية ، وهو المعجم المعروف بكتاب « العين » ، والذى اعتمد الخليل فى تنسيقه على النظام الأبجدى الهندى الذى يبدأ بأحد حروف الحلق وهو حرف العين . كذلك يُنسب للخليل بـن أحمد وضع أصول علم العروض واستنباط بحور الشعر العربى .

ولقد ازدهرت الخطابة فى العصر الأموى ازدهاراً لم تبلغ نظيره فيما بعد وقد تجلت ضروب الخطابة فى المساجد لتوصيل الخطباء رسالتهم الدينية ، كما تجلت فى ساحات القتال حين يثير القائد الحماسة فى صدور رجاله ، سواء أكان هذا القتال خروجاً للغزو والفتح ، أو إقتتالا بين الفرق الدينية والسياسية التى ظهرت على مسرح أحداث الدولة الأموية . وكان من أشهر الخطباء فى العهد الأموى : الحسن البصرى ، وزياد بن أبى سفيان ، والحجاج بن يوسف الثقفى . ولازالت خطب هؤلاء وغيرها تعد إلى الآن من أنفس الذخائر الأدبية التى بقيت لنا من ذلك الزمن القديم .

أما عن الشعر ، فلم تكن أحداث عهد الفتوحات الأولى مواتية لظهور الشعراء فى أمة ذات تقليد راسخ فى الشعر وعرفته وأقرضته منذ عهد بعيد فى

الجاهلية . ولكن ما كادا الأمويون يتولون الخلافة ، وتدفع السياسة الأحداث فى إتجاه دنيوى ، حتى عاود الشعر ظهوره على الساحة الإسلامية ، وفى هذه الفترة بلغ الانتاج الشعرى قمة إزدهاره . وكان كعب بن جعيل التغلبى ، المتوفى حوالى سنة ٨٧هـ ، أقدم شعراء الأمويين . كذلك كان الأخطل ، المتوفى حوالـــى سنة ١١٠هـ ، شاعر البلاط الأموى أمام الشيعة والخوارج . وكان جرير ، المتوفى سنة ١١١هـ ، شاعر الحجاج الثقفى ، والفرزدق ، المتوفى سنة ١١٤ هـ ، شاعر عبد الملك بن مروان وأولاده الوليد وسليمان . وكان مورد رزق هؤلاء الشعراء يتمثل فى مدحهم للخلفاء والأمراء والقواد ، وكانوا يقومون نحوهم بما تقوم به الصحافة الحزبية فى العصر الحاضر . أما من حيث تقييم شعرهم فقد كانوا فى طليعة شعراء العرب الذين لم يصل إلى مكانتهم شاعر آخر حتى اليوم . وفى العهد الأموى ظهر الشعر الغزلى على يد الشاعر عمر بن أبى ربيعة ، المتوفى حوالى سنة ١٠١هـ ، أمير شعراء الغزل فى الأدب العربى . كذلك ظهر شعر الحب العذرى البرئ على يد جميل بثينة ، من بنى عذرة ، وقيس بن الملوح ، المعروف بمجنون ليلى بنت عامر . وإلى جانب ذلك ظهر الشعر السياسى ، وكانت أولى مناسباته أخذ البيعة ليزيد بن معاوية بالخلافة . وفى ذلك العهد تحققت أولى المحاولات لجمع الشعر الجاهلى القديم ، على يد حماد الراوية (٩٥ – ١٥٥ هـ) .

أما عن التاريخ وتدوينه ، فقد كان من أول المهام الفكرية التى غُنى بها العرب المسلمون . وقد كان الدافع إلى إهتمامهم بذلك رغبتهم فى جمع سيرة الرسول ﷺ وسيرة الصحابة . ولقد بدأ علم التاريخ عند العرب ينهج إتجاها دينيا ، وهو الإتجاه الذى ظهر عند أهل الحديث فى مجتمع صدر الإسلام . ولم يخرج التاريخ يومئذ عن كونه نوعاً من أنواع الحديث . لذا يمكن القول بأن المؤرخين

المسلمين بدأوا محدثين ثم إنتهوا مؤرخين . ولقد سميت الدراسات الأولى لحياة الرسول ﷺ باسم المغازى ، وهى كلمة تعنى لغوياً : غزوات الرسول وحروبه ، ولكنها فى الحقيقة ، تناولت فترة الرسالة المحمدية بأكملها والمسيرة النبوية كلها . وقد كانت سيرة الرسول ومغازيه جزءً من الحديث يرويها الصحابة ، روايتهم للحديث ، لذلك سلكوا فى روايتها نفس أسلوب الحديث فى الرواية ، وهو أسلـوب العنعنة والإسناد . وكان أكثر كتاب السيرة والمغازى الأول من أهل المدينة ، باعتبار المدينة موطن رسول الله وعاصمة الدولة الإسلامية التى أقامها . ومن أوائل كتاب السيرة والمغازى : عروة بن الزبير ، المتوفى سنة ٩٤هـ وابان إبن عثمان بن عفان ، المتوفى سنة ٩٥هـ ، ووهب بن منبه ، المتوفى سنه ١١٠هـ . وبعد جهود هؤلاء الكتاب الثلاثة انتهى علم السيرة والمغازى إلى رجلين من الموالى ، هما : محمد بن اسحق ، المتوفى سنة ١٥١هـ ، ومحمد بن عمر الواقدى ، المعاصر لابن اسحق ، يمثلان مرحلة الإنتقال من المحدث إلـى المؤرخ . وقـد وصلتنا عـن ابن اسحق أقـدم سيرة للرسول ، تكـاد تكون محفوظة بالكامل ، إختصرها تليمذه عبد الملك بن هشام ، المتوفى سنة ٢١٨هـ ، فى كتابه الذى بين أيدى الناس اليوم ، والمعروف بسيرة ابن هشام . ومن المعروف أن خلفاء بنى أمية اهتموا بدراسة التاريخ وتودينه ، وقد بدأ هذا الأمر من بينهم الخليفة معاوية بن أبى سفيان الذى استدعى عبيداً بن شريه إلى دمشق ليحدثه عن ملوك العرب القدماء على إختلاف ممالكهم ، ويؤلف له كتاب : « الملوك وأخبار الماضيين » .

وفى مجال العلوم العقلية ، فقد تسربت الثقافات الأجنبية من هندية وفارسية ويونانية ، إلى الفكر العربى فى عهد الراشدين والعهد الأموى ، وذلك عن طريق الاحتكاك بعناصر هذه الثقافات ودخول سكان البلاد المفتوحة ، المتأثرين بهذه

الثقافات فـي دولة الإسلام . ولقـد أخذت الحياة المادية للعرب تتطور تطوراً واضحاً ، وبخاصة فى العهد الأموى ، ويتباعد ما بينها وبين الجيل الماضى . وكان لهذا التطور أثره الأكبر فى تكوين الحياة الجديدة لعالم الإسلام فى هذا العصر ، الذى يُعرف أيضاً بعصر الانتقال . وقد تأثرت الثقافة الجديدة فى هذا العصر تأثراً بعيداً بالثقافات العربية . فنجد خالداً بن يزيد بن معاوية يتصل بعلوم الأجانب السرية كعلم الكيمياء ويشتغل به . وقد أمر خالد جماعة من فلاسفة اليونان ، ممن كانوا ينزلون مصر ويتحدثون بالعربية ، أن ينقلوا له كتباً فى الكيمياء من اليونانية إلى العربية . فكان من بين هؤلاء راهب رومى يدعى (مريانوس) طلب منه أن يعلمه صنعة الكيمياء . وعندما تعلم خالد مبادئ هذا العلم أمر بنقله إلى العربية ، فتم له ذلك على يد رجل يُعرف باسم (اصطفان الحكيم) ، وقد كان ذلك أول نقل فى الإسلام من لغة مخالفة للعربية إلى العربية . وفى عهد مروان بن الحكم ، نقل الطبيب السريانى (ما سرجويه) إلى العربية كتاباً فى الطب من اللغة السريانية ، هو كتاب (كناش هارون بن أيمن) وقد حفظت هذه الترجمة فى دمشق حتى أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز ، المتوفى سنة ١٠١هـ ، حيث حبب إليه بعض خاصته إخراجها للمسلمين للانتفاع بها ، فأخرجها وجعلها تحت أيديهم . وقد طلب الخليفة عمر بن عبد العزيز بترجمة بعض كتب الطب من السريانية إلى العربية . وذكر ابن النديم ، فى كتابه الفهرست ، أن هاشماً ، كاتب الخليفة سليمان بن عبد الملك ، قد نقل مـن اليونانية إلى العربية رسائل الفيلسوف الكبير أرسطو إلى الاسكندر الأكبر .

ونتيجة لحركة النقل من الثقافات المختلفة إلى العربية فى العصر الأموى ، إستمد العرب الكثير من علومهم العملية عن الثقافة اليونانية وبخاصة فى مجال

الفلسفة والطب . ولقد عرف العرب فلاسفة اليونان الكبار : سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وقد انتشرت آراؤهم وأفكارهم الفلسفية فى بلاد الشرق حين فتح الاسكندر الأكبر الكثير من بلاد قارة آسيا . كذلك عرف العرب الإفلاطونية الحديثة التى ظهرت فى الإسكندرية فى العصور الأولى للمسيحية ، وانتشرت فى مدينة جند يسابور ببلاد فارس وبين جماعة الصابئة فى حران بالعراق . ومن أهم الأسباب التى أدت إلى ازدهار الفلسفة فى العالم الإسلامى فى أواخر العهد الأموى وأوائل العهد العباسى : إشتداد الجدل بين المسلمين والمسيحيين فى أمر الدين ، مما دفع علماء المسلمين إلى استخدام نفس سلاح المسيحيين فى مجال الجدل ، وهو المحاورة والمنطق ، كذلك دفع حب جماعة المعتزلة للفلسفة أن يرفعوا لواءها دفاعاً عن الإسلام ، وكان المعتزلة يعرفون بفلاسفة الإسلام . كذلك فإن حب المسلمين للفلسفة قد تحول بهم من حب فى إستخدامها كسلاح للدفاع عن الإسلام إلى حب الفلسفة لذاتها ، بعد أن وجدوا فيها الأداة العملية فى الإقناع والمتعة العقلية . ولقد أدى ذلك إلى نشوء علم الكلام عند المسلمين ، وهو العلم الذى يبحث فى العقيدة ويرد على المخالفين لها بالأدلة العقلية . وهو مبنى على أن أصحابه يؤمنون بالاسلام وبصحة العقيدة الإسلامية ، ثم يجادلون مخالفيهم فى ذلك بالمنطق والإقناع وطرق الجدل الفلسفى الصحيحة . وإذا كان علم الكلام قد بدأ ظهوره فى أواخر العهد الأموى فإنه إتسع ، بعد ذلك ، فى العصر العباسى ، وقد أخذت به جماعة المعتزلة والشيعة والمرجئة والخوارج .

أما الطب ، فقد عرف العرب الطب والتطبيب . منذ أقدم عصور الجاهلية ، وكان على طريقة البدو فى مزجه بالكهانة وعلاج الأمراض بالطرق والوسائل البدائية من رقى وتعاويذ وفصد وكىٌ وحجامة ، واستخدام بعض العقاقير النباتية

والأعشاب . وجاء الإسلام وقضى على الكهانة وفتح الباب للطب الحقيقى على مصراعيه وأبطل المداواة بالسحر والشعوذة . وكان من أشهر أطباء الدولة الإسلامية فى عهد الرسول : الحارث بن كلدة الثقفى . وإبنه النضر بن الحارث . ولقد سمح الرسول ﷺ لبعض الصحابة بالتداوى على أيديهم ، برغم شركهم وعدم دخولهم الإسلام وشدة عدائهم له . وقد كثر اشتغال اليهود والنصارى بالطب فى ظل الدولة الإسلامية ، ونبغ الأطباء النصارى فى المشرق ؛ فى الوقت الذى كانت فيه الكنيسة الغربية تحرم صناعة الطب ، وتعتبر المرض عقاباً من الله لعباده لا ينبغى للإنسان أن يصرفه عمن وقع عليه . ولقد كان أطباء البلاط الأموى من اليونانيين والسريان ، من هؤلاء اشتهر الطبيب النصرانى ابن أثال ، طبيب معاوية إبن أبى سفيان ، والطبيب اليونانى ثياذوق ، طبيب الحجاج بن يوسف الثقفى . والطبيب اليهودى ماسرجويه ، طبيب مروان بن الحكم . ولقد قام ماسرجويه بترجمة أول كتاب فى الطب عن السريانية ، والطبيب عبد الملك بن أبجر الكنانى . وقد بنى المسلمون المستشفيات ، التى عُرفت فى صدر الإسلام بتسميتها الفارسية وهى المارستانات ، أو البيمارستانات . ويُعد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦هـ) أول من بنى المارستان فى الإسلام ، وجعل فيه الأطباء وأجرى عليهم الأرزاق ، وجعل فى هذا المارستان قسماً لعلاج مرضى الجذام ، وقسماً آخر لعلاج المجانين .

وبخصوص علم الفلك ، إهتم المسلمون بهذا العلم منذ ظهور الإسلام فلقد ذكر القرآن الكريم كثيرا من القضايا الفلكية ، الأمر الذى دعى المسلمين إلى دراسة الفلك وتعلمه ، لمعرفة أوقات الصلاة بحسب الموقع الجغرافى والفصل الموسمى ، ولتحديد الإتجاه نحو القبلة عند الصلاة ، ورؤية هلال رمضان ، فضلا عن إتباع أمر الله بالتفكر فى خلق السماوات والأرض . ولقد حرم الإسلام

التنجيم وأكد كذب المنجمين ولو صدقوا ، وحرم قراءة الطالع بواسطة الأبراج والنجوم ، وعُد ذلك تدخل من البشر فى علم الغيب الذى لا يعلمه إلا الله تعالى . ولقد بدأ الاهتمام بعلم الفلك فى العهد الأموى ، وقد قيل أن خالداً بن يزيد بن معاوية قد أمر بترجمة أول كتاب فى الفلك من اليونانية إلى العربية ، وهو كتاب : (عرض مفتاح النجوم) المنسوب لهرمز الحكيم . كذلك ورد أن الخليفة عبد الملك بن مروان قد أمر بترجمة كتب أخرى فى الفلك من اليونانية إلى العربية ، وأنه كان زائد الاهتمام بهذا العلم .

ولقد عرف المسلمون الأوائل الكيمياء ، وأطلقوا عليها : علم الصنعة ، ولقد اهتم الأمير الأموى خالد بـن يزيد بن معاوية بدراسة هذا العلم والترجمة فيه ، لسيطرة فكرة تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة عليه . كذلك أدت عناية المسلمين بالطب والصيدلة وتحضير الأدوية وتركيبها إلى الاهتمام بهذا العلم والتوسع فيه . ويُعد جابر بن حيان ، الذى توفى سنة ١٤٧هـ ، أبو الكيمياء العربية ، إذ يُنسب إليه أكثر من خمسمائة مؤلف فى هذا العلم . وقد ظلت كتبه تدرس فى أوربا دون غيرها خلال عدة قرون . ولنبوغ ابن حيان فى هذا العلم ، ذكر عنه إبن خلدون بقوله ما نصه : « وما زال الناس يؤلفون فى هذا العلم قديماً وحديثاً ، وإمام المدونين فيه جابن بن حيان ، حتى أنهم يخصونه به فيسمونه : علم جابر » . وتُنسب إلى ابن حيان عدة إختراعات كيميائية منها : تقطير الخل للحصول على حامض الخليك المركز ، واستعمال ثانى أكسيد المنجنيز فى صنع الزجاج ، وتحضير نوع من الطلاء يمنع الصدأ عن الحديد ، واستخدام مادة الشب فى تثبيت ألوان الصباغة على الأقمشة ، وصنع ورق غير قابل للإحتراق .

هذا عن العلوم النقلية والعقلية التى ظهرت فى صدر الإسلام وفى العصر الأموى ، وارتقت بعد ذلك فى العصر العباسى الأول . أما عن الفنون الإسلامية فالحقيقة أن الدولة الإسلامية لم تغفل جانب الفن بكل أشكاله حتى نهاية العصر الأموى ، من تصوير ورسم وزخرفة وعمارة وموسيقى . وقد جاءت هذه الفنون لتعبر عن نظرة الإنسان المسلم للكون وللحياة ومدى إدراكه لإبداع الله تعالى فى خلقه وعظيم صنعه . وقد تميزت هذه الفنون الإسلامية بشخصيتها المستقلة وطابعها الخاص المميز الواضح المعالم . كذلك تميزت بوحدة أساليبها ، رغم تعدد نواحيها وأشكالها واختلاف عناصر وأمصار المساهمين فى صنعها والمنجزين لها وتداخل التأثيرات المحلية لقرون عديدة ، وكذلك يرجع إلى تأثر هذه الفنون بروح الإسلام وانصباب أنواعه المختلفة ، فى المقام الأول ، على المواضيع الدينية وانبعاث أعمالها الفنية تحت تأثير الباعث الدينى .

وفى مجال التصوير والرسم والزخرفة ، ظهرت التصاوير والرسوم فى بلاد العالم الإسلامى منذ العصر الأموى . وأقدم ما يمثل فن الرسم فى الإسلام الرسوم الطينية المحفوظة فى قصر عميرة بشرقى الأردن ، وهو يقع على بعد خمسين ميلاً شرقى عمان العاصمة وينسب للخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ، وكان يأوى إليه فى موسم الصيد . وقد رسمت على جدران حمام هذا القصر صور على الجص لستة شخصيات ملكية يرتدون ثياباً جميلة بينهم صورة للخليفة نفسه . كذلك نجد صورة لمشهد صيد فيها أسد يرى واثب على حمار وحشى ، ومشهد آخر يمثل بعض الراقصات وهن يرقصن وبعض العازفين وهم يعزفون . ولقد كشفت الحفريات الحديثة فى خرابة المفجر ، الواقعة شمال أريحا بثلاثة أميال ، عن قصر شتوى للأمويين متقن الصنع ، زخرفت جدرانه برسوم آدمية وحيوانية ، ولقد حفر النحات عليه إسم الخليفة هشام بن عبد الملك .

وعلى أحد جدرانه لوحة عليها رسوم لأنواع مختلفة من الطيور والحيوانات . ومن قصور البادية التى بناها الأمويون للانتجاع والصيد ، وخلفوا عليها رسومات وتصاوير : قصر المشتى ، الذى بناه الوليد الثانى ، الذى كان شديد الولع بالصيد ، ولا تزال واجهة هذا القصر الجميل برسوماته وتصاويره الدقيقة محفوظة إلى اليوم فى متحف برلين . وفى قصر الحير الغربى ، الذى بناه الخليفة هشام بن عبد الملك ، نجد على جدرانه الداخلية عدداً من الصور المختلفة ، منها صورة نصفية لامرأة تحمل سلة وقد التف حول عنقها ثعبان . وقد زين العنق بعقد من اللؤلؤ . وقد حوت جدران الجامع الأموى بدمشق وقبة الصخرة بالقدس والمسجد النبوى بالمدينة على زخارف نباتية بأحجار الفسيفساء ، غاية فى الجمال والدقة فى التصوير . وقد تجلى الطابع الزخرفى فى الفن الإسلامى بشكل واضح ، باستخدام الفنانين المسلمين فى تزويق منتجاتهم الفنية بشتى أنواع الزخارف من رسوم كائنات حية بطريقة زخرفية ، ومن زخارف هندسية ونباتية وكتابية . ومن الملاحظ أنه فى مجال استخدام الكائنات الحية فى الزخرفة أن الفنان المسلم كان ينحو نحواً زخرفياً بعيداً عن محاكاة الطبيعة ، كما أنه إستخدم فى زخرفته رسم كائنات خرافية ساعده خياله الخصب على ابتكار أشكال كثيرة منها . ومن حيث استخدام الزخارف النباتية فقد إبتكر الفنانون المسلمون ما عُرف بفن الأرقشة ، وهى الزخرفة الإسلامية الأصيلة التى إنفرد بها الفن الإسلامى وعُرفت خارجه باسم الأرابيسك . كذلك استخدم الخط العربى كعنصر زخرفى زينت به العمائر من مساجد وقصور بكتابة آيات قرآنية بطريقة زخرفية جميلة .

وفى مجال العمارة الإسلامية ، نجد أن العرب المسلمين تأثروا بالفرس والروم فى هذا المجال ، بعد أن تركوا حياة البداوة البسيطة ، وسكنوا المدن وانغمسوا فى الحياة المدنية الجديدة . فقلدوا الشعوب المفتوحة فى معمارهم المتأثر سواءً بالعمارة

الرومانية أو الفارسية ، وشيدوا الدور والقصور من الحجر ، والرخام بعد أن تركوا سكنى الخيام وبيوت الطوب اللبن . وكان لتعاليم الإسلام أثرها الظاهر فى هذا الفن المعمارى ، الذى إقتبسوه عن غيرهم ، فقلدوه تقليداً ظاهراً ، وأدخلوا عليه الكثير من التطور ، ما يتلاءم مع تعاليم دينهم وأوامر شريعتهم ، حتى غدا لهم فن معمارى إسلامى خالص متميز ، له نموذجه الخاص القائم بذاته حتى اليوم .

وكان بناء المسجد ، هو أول المبانى المعمارية التى إهتم المسلمون بإنجازها ، وقـد تحروا فى بناء مساجدهم أن تكون فى معمارها مغايرة لمعمار كنائس النصارى وأديرتهم ومعابد اليهود ومعابد الوثنيين ، فبنوها خالية من الرسوم والصور والتماثيل ، واقتصروا على تزيينها وزخرفتها بالآيات القرآنية بالخطوط العربية المختلفة ، وبخاصة الخط الكوفى . وكانت عمارة المسجد ، فى أول أمرها ، بسيطة ، ولم يكن المسجد أكثر من بناء مربع يقوم سقفه على عمد من جذوع النخيل ، اقتداءً بمسجد الرسول ﷺ بالمدينة . ثم تطورت عمارة المسجد ، على يد البنائين غير العرب ، وزادوا فيه ، ولم تلبث أن أخذت نظاماً ثابتا لاتكاد تخرج عنه . فكان معظمها يتكون من ساحة كبيرة مكشوفة فى الغالب ، تتوسطها بركة ماء لزوم الوضوء والاستنجاء ، ويحيط بها أربعة أروقة تسندها الأعمدة ، ويكون أحـد هـذه الأروقة فـى إتجاه الكعبة ، ويكون فيه المحـراب والمنبر . وقـد اختلفت المساجد بعد ذلك فى إتساعها وفى فخامة بنائها باختلاف العصور .

وكان أول مسجد بنى فى الإسلام هو مسجد قباء ، الذى بناه الرسول وهو فى طريقه إلى المدينة مهاجراً ، وبعد ذلك بنى مسجده النبوى . وتسابق بعد ذلك المسلمون فى بناء المساجد داخل شبه الجزيرة وخارجها فى الأمصار . وكان مسجد الكوفة ثالث المساجـد الإسلامية فـى الإسلام ، ثم مسجد عمرو بن

العاص ، الذى بُنى فى مصر عند فتحها ، وعُرف بجامع عمرو ، أو الجامع العتيق . وكان مسجد قبة الصخرة ، المعروف بمسجد عمر ، هو أول مسجد بنى فى الشام بمدينة القدس ، بناه عبد الملك بن مروان سنة ٧٢هـ / ٦٩١م ، وإلى شرقى القبة يوجد بناء صغير ، كان يقوم مقام بيت المال لمسجد القبة ، وهو يعود إلى العهد الأموى . وبالقرب من قبة الصخرة قام عبد الملك بتوسعه المسجد الأقصى وجعله يضم قبة الصخرة وكل الباحة المقدسة البالغة نحواً من ٣٤ فداناً بكل ما يقوم عليها من أبنية مقدسة . ويجئ المسجد الأموى فى دمشق ، الذى بناه الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧هـ/ ٧٠٥م كأعظم المساجد التى بناها الأمويون وتوسعوا فى بنائه طوال عهدهم . وقد بنى الوليد فى الجانب الشمالى من المسجد مئذنة ، هى أقدم مئذنة إسلامية خالصة لا تزال قائمة ، ويتميز جامع دمشق أيضاً بأنه أول مسجد ظهر فيه المحراب . ولقد قام الوليد بن عبد الملك بترميم مسجد الرسول بالمدينة ، وتوسيع الحرم الملكى ، وبناء الكثير من المستشفيات والمدارس والمساجد فى الشام .

أما القصور الإسلامية ، فلقد أفادتنا كتب التاريخ والأدب عن اتساع نطاق بنائها فى الدولة الإسلامية وبخاصة قصور الخلفاء والأمراء ؛ إلا أن غالبية هذه القصور قد إندثرت للأسف ولم يبق إلا بعض أطلالها مما سمح لنا بمعرفة نظمها وأصول تصميمها . وقد وُجد فى هذه القصور ساحات واسعة ومخازن كثيرة ، عُرفت بالخزائن . ومن قصور خلفاء الأمويين التى بنيت على الطراز البيزنطى أو الفارسى ولازالت بقاياها قائمة منثورة على تخوم البادية : قصر عمرة وقصر المفجر ، ويرجع بنائهما للخليفة الوليد بن عبد الملك . وهنالك قصر آخر مشهور فى تلك البادية يُعرف بقصر المشتى ، بناه الوليد الثانى . وقد بنى الوليد أيضاً قصر خربة المنية إلى الشمال الغربى من بحيرة طبرية ، وقصر القسطل إلى الجنوب من

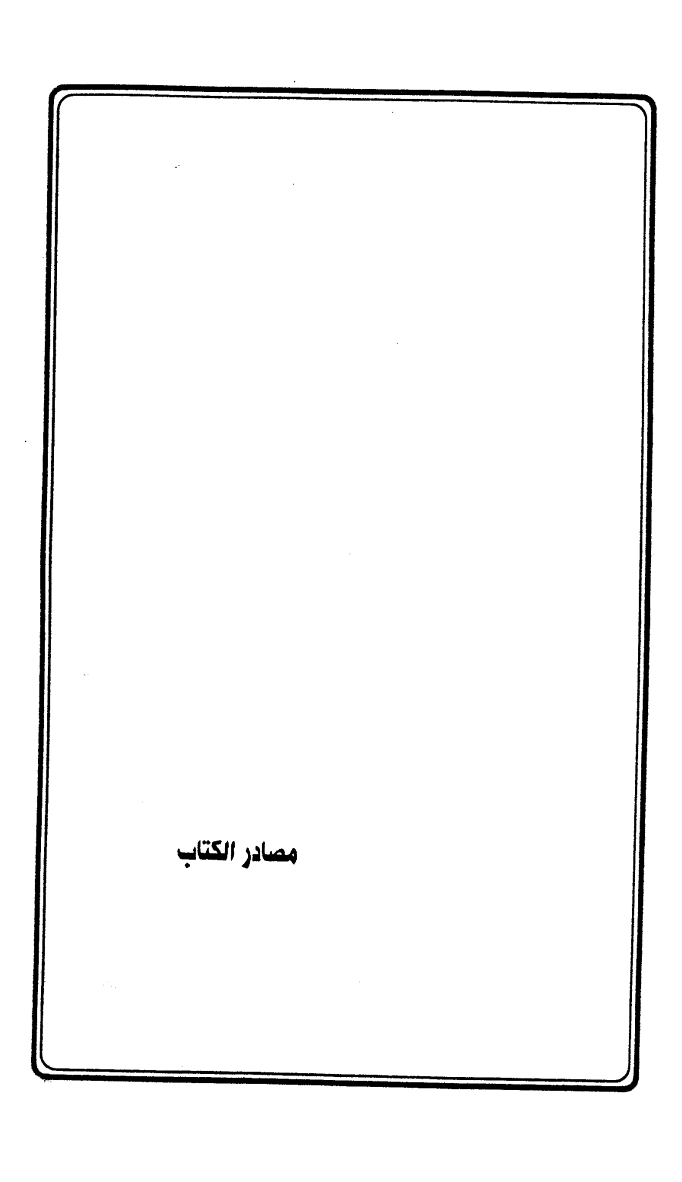
مدينة عمان الأردنية . وهنالك قصور أخرى على تخوم البادية إلى الشمال أهمها قصر أسيس شرقى دمشق بثمانين ميل . وهنالك قصران آخران فبى هذه المنطقة يُعرفان بالحير ، يقع الأول منهما ، وهو الحير الشرقى ، على بعد ٤٠ ميل شمال شرقى تدمر بناه هشام بن عبد الملك سنة ١١١هـ/٧٢٩م ، أما الحير الغربى فيقع على بعد ٤٠ ميل جوب غربى تدمر ، وقد بناه هشام سة ١٠٩هـ/ ٧٢٧م . وكان الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك يقيم فى بلدة بناها فى فلسطين هى الرملة ، وهى البلدة الوحيدة التى أنشأها العرب فى الشام ، وقد بقيت آثار من قصر الخليفة فى هذه المدينة وبقايا مئذنة مسجده الأبيض هناك . ولقد تحقق ، فيما خلفه الأمويون من قصور ومساجد ، إنسجام العناصر الفنية العربية والفارسية والسريانية واليونانية ، وتألف من ذلك كله النواة الأولى للفن الإسلامى .

وصلى اللهم وبارك على

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

—

تم بحمد الله تعالى



مصادر الكتاب

المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

* ابن الأثير : الكامل فى التاريخ
* ابن الأثير : أُسد الغابة فى معرفة الصحابة .
* آدم متز : الحضارة الإسلامية، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده
* أحمد أمين : فجر الإسلام .
* الأزرقى : أخبار مكة
* أنور الرفاعى : الإسلام فى حضارته ونظمه .
* البلاذرى : فتوح البلدان .
* الجهشيارى : الوزراء والكتاب .
* جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام .
* جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر .
* حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى .
* ابن خلدون : المقدمة .
* ابن خلكان : وفيات الأعيان .
* إبن سعد : الطبقات الكبرى .
* السيوطى : تاريخ الخلفاء .
* الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة .
* أبو صالح الألفى : الفن الإسلامى ، أصوله وفلسفة مدارسه .
* الطبرى : تاريخ الرسل والملوك .
* ابن عبد البر : العقد الفريد .

* ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها .
* عطية القوصى : تاريخ وحضارة العرب قبل الإسلام .
* عطية القوصى : الحضارة الإسلامية .
* عطية القوصى : محمد النبى المصطفى .
* عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب .
*أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى .
* فيليب حتى : تاريخ سوريا .
* القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا .
* الماوردى : الأحكام السلطانية .
* المقريزى : النزاع والتخاصم بى بنى أمية وبنى هاشم .
* ابن النديم الفهرست .
* النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب .
* ابن هشام : سيرة رسول الله ﷺ .
* الواقدى : فتوح الشام .
* ياقوت الحموى : معجم البلدان .

*****

محتويات الكتاب

	رقم الصفحة
– تقديم	٥
– الفصل الأول :	
ظهور النبى الرسول المصلح والدعوة المحمدية	١١
– الفصل الثانى :	
عصر الخلفاء الراشدين (١١ – ٤١هـ)	٨٣
– الفصل الثالث :	
عصر الخلافة الأموية (٤١ – ١٣٢ هـ)	١٥١
– الفصل الرابع :	
نظم وحضارة الدولة العربية الإسلامية	٢٠٧
– المصادر والمراجع	٢٦١

رقم الايداع بدار الكتب

٨٧٧٥ /١٩٩٤

I-S-B-N

-222-073-3